http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة



البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٤٧

ثم قال :

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

وقلت فى عينيتى :

ولى لوعة بالرّاح إذ فيه راحتى وروحى وريحانى ، وخير واسع

سكرنا فهمنا فى بهاء جماله فغبنا عن الإحساس ، والنور ساطع

والميسر فى طريق الإشارة : هو الغنى الذي يحصل بهذه الخمرة ، وهو الغنى باللّه عن كل ما سواه ، (قل فيهما إثم كبير) أي : فى تعاطيهما حرج كبير ، ومنافع للناس بعد تعاطيهما ، فيهما إثم كبير عند طالب الأجور ، ومنافع للناس لمن طلب الحضور ورفع الستور. وأنشدوا :

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت لشرب الراح إفطارا

فالراح شيء شريف أنت شاربه ، فاشرب ، ولو حمّلتك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء «١» صافية خذ الجنان ، ودعنى أسكن النارا

وقال ابن الفارض :

وقالوا : شربت الإثم! كلا ، وإنّما شربت التي فى تركها عندى الإثم

وقال آخر «٢» :

طاب شرب المدام فى الخلوات اسقني يا نديم بالآنيات

خمرة تركها علينا حرام ، ليس فيها إثم ولا شبهات

عتّقت فى الدّنان من قبل آدم أصلها طيّب من الطّيّبات

أفت لى أيّها الفقيه وقل لى : هل يجوز شربها على عرفات؟

فيهما إثم كبير عند أهل الحجاب ، ونفع كبير عند ذوى الألباب ، يعنى : فى الخمرة الأزلية والغنى باللّه. وقوله تعالى : (و إثمهما أكبر من نفعهما) : خطاب على قدر ما يفهم الناس لأن إثمهما ظاهر للعوام ، وهو ما يظهر على

---

(١) الصهباء : الخمر.

(٢) وهو الششترى.

(٢٤٧/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٤٨

النشوان من خراب الظاهر ، وصدور الأحوال الغريبة ، ونفعهما خاص عند خواص الخواص ، لا يفهمه إلا الخواص ، بل يجب كتمه عن غير أهله. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وقع سؤال ثالث عن قدر المنفق ، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله :

وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا ...

قلت : (العفو) : ضد الجهد ، وهو السهل ، ويقال للأرض السهلة : عفو ، والمراد : أن ينفق ما تيسر بذله ، ولا يبلغ به الجهد ، وهو خبر ، أو مفعول ، أي : هو العفو ، أو ينفقون العفو.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ ما القدر الذي ينفقونه؟ قُلْ لهم : هو الْعَفْوَ أي : السهل الذي لا مشقة فى إعطائه ، ولا ضرر على المعطى فى فقده ، روى أن رجلا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بقدر بيضة من الذهب ، فقال :

خذها عنى صدقة ، فأعرض عنه ، حتى كرّر مرارا ، فقال : هاتها ، مغضبا ، فحذفها حذفا لو أصابه لشجّه ، فقال :

«يأتى أحدكم بماله كلّه يتصدّق به ، ويجلس يتكفّف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى». قاله البيضاوي مختصرا.

قلت : وهذا يختلف باختلاف اليقين فقد تصدّق الصدّيق رضي اللّه عنه بماله كله ، وعمر رضي اللّه عنه بنصف ماله ، فأقرهما ، وردّ فعل غيرهما ، فدلّ ذلك على أن العفو يختلف باختلاف الأشخاص ، على حسب اليقين.

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ أي : مثل هذا التبيين الذي ذكرنا ، (يبين) لكم الآيات ، حتى لا يترك لكم إشكالا ولا وهما ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ بعقولكم ، وتأخذون بما يعود نفعه عليكم ، فتتفكرون

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

فِي الدُّنْيا وسرعة ذهابها وتقلبها بأهلها ، إذا أقبلت كانت فتنة ، وإذا أدبرت كانت حسرة ، لا يفى طالبها بمقصوده منها ولو ملكها بحذافيرها ، ضيقة الزمان والمكان ، عمارتها إلى الخراب ، وشأنها إلى

انقلاب ، سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، فتزهدون فيها وترفعون همتكم عنها.
وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «مالى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا كرجل سافر فى يوم صائف ، فاستظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها». وفى صحف إبراهيم عليه السّلام : «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب – أي : يتعب – عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها». وأنشدوا :

(٢٤٨/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٤٩
ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم وكلّ نعيم ليس فيها بدائم
تذكّر إذا ما نلت بالأمس لذّة فأفنيتها هل أنت إلا كحالم
وتتفكرون فى (الآخرة) ودوام نعيمها ، وسعة فضائها ، وبهجة منظرها فترغبون فى الوصول إليها ، وتتأهبون للقائها ، فتؤثرونها على هذه الدار الفانية. قال بعض الحكماء : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لكان ينبغى للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى ، لا سيما والأمر بالعكس ، الدنيا من طين يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى ، فلا يختار هذه الدار إلّا أحمق خسيس الهمة ، وباللّه التوفيق.
الإشارة : كما نهى الحق جل جلاله عن السرف فى الأموال ، ونهى عن السرف فى الأحوال ، فالسرف ، من حيث هو ، يؤدى إلى الملل والانقطاع ، «أحب العمل إلى اللّه ما دام عليه صاحبه ، وإن قل» كما فى الحديث ، واللّه ما رأينا أحدا أسرف فى الأحوال إلا ملّ ، وضعف حاله ، وفى الحديث : «لا يكن أحدكم كالمنبت – أي : المنقطع – لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى». وقال فى المباحث :
فاحتل على النفس فربّ حيله أنفع فى النّصرة من قبيله
فلا يزال يسايس نفسه شيئا فشيئا حتى يملكها ، ويظفر بها ، فإذا ظفر بها كانت له شبكة يصطاد بها العلوم والمعارف ، فتتفكر فى الدنيا فتراها فانية فترحل عنها ، ثم تتفكر فى الآخرة فتراها باقية ، فإذا رامت السّكنى فيها رأتها كونا مخلوقا فرحلت إلى خالقها ، فكشف الحق عنها الحجاب ، وأدخلها مع الأحباب ، فغابت عن الكونين فى شهود المكون ، فلم يبق لها دنيا ولا آخرة ، بل هى الآن فى بهجة ونضرة (إلى ربها ناظرة) ، حققنا اللّه بهذا المقام العلى. آمين.
ثم سألوا أيضا عن مخالطة اليتامى ، فأجابهم الحق تعالى بقوله :
وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى ...
قلت : العنت : التعب والمشقة ، أعنتكم : أتعبكم.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ مخالطة الْيَتامى أي : خلط مال اليتامى بمال الوصىّ ، أو القائم به ، فيأكلون جميعا ، قُلْ لهم : يفعلون ما هو إِصْلاحٌ لليتيم وأحفظ لماله ، فإن كان خلط مال اليتيم مع

(٢٤٩/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٠

مال الوصي أحفظ لماله ، وأوفر ، فهو خير ، فإنما هم إخوانكم فى الدين ، وإن كان عزل مالهم عن مالكم ، وأكله وحده ، أوفر لماله ، فاعتزالهم خير ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ من قصده الإفساد ، ممن قصده الإصلاح ، فيعامل كل واحد بقصده ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لأمركم بعزلهم وحفظ مالهم مطلقا ، فيحرجكم ، ويشق عليكم ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب ، لا يعجزه شىء ، حَكِيمٌ لا يفعل شيئا إلا لحكمة ومصلحة.

ولما نزل قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ... الآية ، تحرّج الصحابة من مخالطة اليتامى ، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزلت الآية.

الإشارة : كل من لا شيخ له فى طريق القوم فهو يتيم ، لا أب له ، فإن ادعى شيئا من الخصوصية سمى عندهم لقيطا أو دعيا ، أي : منسوبا إلى غير أبيه ، وما زالت الأشياخ تحذّر من مخالطة العوام ، ومن مخالطة المتفقرة الجاهلة ، أعنى : الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية ، حتى قالوا : مخالطتهم سم قاتل.

وقال بعضهم : يجتنب المريد مخالطة ثلاثة أصناف من الناس : المتفقرة الجاهلين ، والقراء المداهنين ، والجبابرة المتكبرين.

قلت : وكذلك الفروعية المتجمدين على ظاهر الشريعة ، فصحبتهم أقبح من الجميع ، ومن ابتلى بمخالطة العوام فلينصحهم ، ويرشدهم إلى مصالح دينهم ، إنما هم إخوان فى الدين ، واللّه يعلم المفسد من المصلح ، فمن خالطهم طمعا فى مالهم أو جاههم ، أفسده اللّه ، ومن خالطهم نصحا وإرشادا أصلحه اللّه ، ولو شاء اللّه لأمر الفقراء باعتزالهم بالكلية ، وفى ذلك حرج ومشقة ، ومن حكمته تعالى أن جعلهم حجابا لأهل الحجاب ، ومدخلا لذوى الألباب ، حجابا للضعفاء ، ومدخلا ومشهدا للأقوياء ، واللّه تعالى أعلم.

ولمّا فرغ الحق جل جلاله من ذكر بعض أمر الجهاد وما يتعلق به ، شرع يتكلم على النكاح ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢١]

وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

قلت : بدأ الحق جل جلاله بذكر محل النكاح ، وسيأتى فى سورة النساء تمامه فى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ ... الآية.

(٢٥٠/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥١

يقول الحق جل جلاله : ولا تتزوجوا النساء الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ، ونكاحهن حرام ، بخلاف الكتابيات ، كما فى سورة المائدة. ونكاح أمة سوداء مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ نكاح مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ حسنا وحسبا ومالا ، أو : ولا مرأة مؤمنة أمة كانت أو حرة خير من مشركة إذ النساء كلهن إماء اللّه.

روى أنه – عليه الصلاة والسلام – بعث مرثدا الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين فأتته امرأة يقال لها : عناق ، وكان يهواها فى الجاهلية – فقالت : ألا تخلو؟ فقال : إن الإسلام حال بيننا ، فقالت : هل لك أن تتزوج بي؟ فقال : نعم ، ولكن أستشير رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فاستشاره ، فنزلت الآية. قاله البيضاوي.

ولا تزوجوا المشركين وليّتكم ، وهو حرام مطلقا إذ الرجال قوامون على النساء ، ولا تسلّط للكافر على المسلمة ، فلا تنكحوهم حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ أسود مملوك مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ حسبا ومالا إذ لا حسب مع الكفر. وإنما حرّم نكاح أهل الكفر لأنهم يَدْعُونَ إِلَى الكفر ، وهو سبب النَّارِ ، والصحبة توجب عقد المحبة ، والطباع تسرق ، فلا يؤمن جانب الكفر أن يغلب على الإيمان ، وَاللَّهُ تعالى إنما يَدْعُوا إِلَى سبب الْمَغْفِرَةِ ، والتطهير من لوث الكفر والمعاصي بِإِذْنِهِ وقدرته ، فلا يأمر إلا بما يقوى عقد الإيمان واليقين ، وينهض إلى الطاعات ، وهو صحبة أهل الإيمان واليقين ، وَيُبَيِّنُ آياتِهِ الدالة على جمع عباده إليه لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فيها ، ويتعظون بتذكيرها ووعظها.

الإشارة : لا ينبغى للفقير أن يعقد مع نفسه عقد الصحبة والمودة ، أو ينظر إليها بعين الشفقة والرحمة ، ما دامت مشركة بشهود السّوى ، أو مائلة بطبعها إلى الهوى ، ولأن تكون عندك نفس مؤمنة بعلم التوحيد ، خير من نفس مشركة برؤية الغير ، ولو أعجبتك فى الطاعة ، وظهور الاستقامة ، فقد تظهر الطاعة والخدمة ، وتبطن مالها فيها من الحظوظ والمتعة ، فليتهمها ما دامت مشركة ، فإذا آمنت ووحدت اللّه تعالى ، فلم تر معه سواه ، فلا بأس بعقد النكاح معها ، فإنها لا تأمره إلا بما يقوى شهودها وتوحيدها. وكذلك لا ينبغى أن يعقد نكاح نفسه ، ويدفعها لمن يشهد السّوى شيخا أو أخا ، ولو أعجبك طاعته واجتهاده ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، أولئك أهل النفوس – يدعون إلى نار الشهوات والحظوظ العاجلة أو الآجلة ، واللّه يدعو إلى التطهير من شهود الأغيار ، والدخول فى حضرة الأسرار ، وهذا لا يكون إلا للعارفين الأبرار

الذين تطهروا من الأكدار ، وتخلصوا من شهود الأغيار ، كذلك يبين اللّه آياته للناس – الدالة على وحدانيته – لعلهم يتعظون فينزجرون عن متابعة الهوى ، أو رؤية وجود السوي. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(٢٥١/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٢

ولما بيّن الحق تعالى ما يحرم فى النكاح أصالة ، بيّن ما يحرم فيه عروضا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

قلت : المحيض : مصدر ، كالمقيل والمعيش والمجيء ، وهو الحيض.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ يا محمد عَنِ قرب النساء بالجماع فى زمن الْمَحِيضِ ، قُلْ لهم : هُوَ أَذىً ، أي : مضرّ ، أو منتن مستقذر ، لا يرضى ذو همة أن يقربه ، فَاعْتَزِلُوا مجامعة النِّساءَ فِي زمن الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ بالجماع فى المحل حَتَّى يَطْهُرْنَ من الدم ، بانقطاعه ، ويغتسلن بالماء ، فَإِذا تَطَهَّرْنَ بالماء فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ وهو الفرج ، الذي أمركم باجتنابه فى الحيض إذ هو محل زراعة النطفة. فمن غلبته نفسه حتى وطئ فى الحيض ، أو النفاس ، فليبادر إلى التوبة ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ كلما أذنبوا تابوا.

ولا تجب كفارة على الواطئ ، على المشهور. وقال ابن عباس والأوزاعى : (من وطئ قبل الغسل تصدق بنصف دينار ، ومن وطئ فى حال سيلان الدم تصدق بدينار). رواه أبو داود حديثا. ومن صبر وتنزّه عن ذلك فإن اللّه يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ من الذنوب والعيوب كلها ، وإنما أعاد العامل لأن محبته للمتنزهين أكثر.

قال البيضاوي : روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحائض ولا يؤاكلونها ، كفعل اليهود والمجوس ، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح ، فى نفر من الصحابة ، عن ذلك ، فنزلت. ولعله سبحانه – إنما ذكر «يسألونك» من غير واو ، ثلاثا ، ثم بها ثلاثا لأن السؤالات الأول كانت فى أوقات متفرقة ، والثلاثة الأخيرة كانت فى وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. هـ.

ثم بيّن الحق تعالى كيفية إتيان النساء بعد الطهر ، فقال : نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، أي : مواضع حرثكم ،

شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف ، بالبذر ، والأرحام أرض لها ، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أي : محل حرثكم ، وهو الفرج ، أَنَّى شِئْتُمْ أي : من أي جهة شئتم.

(٢٥٢/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٣

روى أن اليهود كانوا يقولون : من جامع امرأته من خلفها فى قبلها جاء الولد أحول ، فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فنزلت. وقيل : إنّ قريشا كانوا يأتون النساء من قدّام ، مستلقية ، والأنصار كانوا يأتوهن من خلف ، باركة ، فتزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار ، فأراد أن يفعل عادته ، فامتنعت ، وأرادت عادتها ، فاختصما إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنزلت الآية بالتخيير للرجل ، مع الإتيان فى المحل. وأما الإتيان فى الدّبر فحرام ، ملعون فاعله ، وقال فى القوت : فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ أي : فى أي وقت شئتم ، ومن أي مكان شئتم ، مع اتحاد المحل. هـ.

ثم حذّر الحق تعالى من متابعة شهوة النساء ، والغفلة عن اللّه ، فقال : وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ما تجدون ثوابه مدخرا عنده ، وهو ذكر اللّه فى مظان الغفلة ، قيل : التسمية قبل الوطء وقيل : طلب الولد ، والتحقيق : أنه الحضور مع الحق عند هيجان الشهوة ، قال بعض العارفين : إنى لا أغيب عن اللّه ولو فى حالة الجماع. هـ. وهذا شأن أهل الجمع ، لا يفترقون عن الحضرة ساعة. وهذه التقوى التي أمر اللّه بها بقوله : وَاتَّقُوا اللَّهَ أي : لا تغيبكم عنه شهوة النساء ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ فترون وبال الغفلة وجزاء اليقظة ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالقرب من رب العالمين.

الإشارة : إذا سئلت – أيها العارف – عن النفس فى حال جنابتها بالغفلة ، وحال تلبسها بنجاسة حب الدنيا ، فقل :

هى أذى ، أي : قذر ونجس ، من قرب منها لطّخته بنجاستها ، فلا يحل القرب منه ، أو الصحبة معها ، حتى تطهر من جنابة الغفلة باليقظة ، ومن نجاسة حب الدنيا بالزهد ، ورفع الهمة عنها ، فإذا تطهرت فأتها ، وردها إلى حضرة مولاها ، كما أمرك اللّه ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وقد تابت ورجعت إلى مولاها ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، وقد تطهرت من جنابة الغفلة ، وتنزهت عن نجاسة الدنيا برفع الهمة ، فصارت لك أرضا لزراعة حقوق العبودية ، ومنبتا لبذر شهود عظمة الربوبية ، فأتوا حرثكم – أيها العارفون – أنى شئتم ، أي : ازرعوا فى أرض نفوسكم من أوصاف العبودية ما شئتم ، وفى أي وقت شئتم.

فبقدر ما تزرعون من العبودية تحصدون من الحرية. وبقدر ما تزرع فيها من الذل تحصده من العز ، وبقدر ما تزرع فيها من الفقر تحصده من الغنى ، وبقدر ما تزرع فيها من التواضع تحصده من الشرف والرفعة.

والحاصل : بقدر ما تزرع فيها من السفليات تحصد ضده من العلويات. قال تعالى : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ. فإذا تركتها هملا ، أنبتت لك الشوك والحنظل. وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ من أوصاف العبودية ما تجدونه أمامكم من مشاهدة الربوبية ، واتقوا اللّه فلا تشهدوا معه سواه ، واعلموا أنكم ملاقوه حين تغيبون عن وجودكم وتفقدونه ، وبشر المؤمنين الموقنين بشهود رب العالمين.

(٢٥٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٤

ولما تكلم الحق جل جلاله على بعض أحكام النكاح ، أراد أن يتكلم على الإيلاء ، وهو الحلف على عدم مس المرأة وجماعها ، وقدّم على ذلك النهى عن كثرة الحلف لأنه هو السبب فى الوقوع فى الإيلاء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٥]

وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

قل : العرضة : فعلة ، بمعنى مفعولة : أي : معرضا منصوبا ، لأيمانكم تحلفون به كثيرا ، فيصير اسم الجلالة مبتذلا بينكم. و(أن تبروا) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ أي : اسم الجلالة ، معرضا لِأَيْمانِكُمْ ، فتتبذلونه بكثرة الحلف ، فتمتنعون من فعل الخير بسبب الحلف ، كراهة أَنْ تَبَرُّوا أي : تفعلوا فعل البر ، وهو الإحسان ، وكراهة أن تَتَّقُوا أن تجعلوا بينكم وبين اللّه وقاية بفعل المعروف ، وذلك أن يحلف الرجل ألا يصل رحمه ، أو لا يسلم على فلان ، أو لا يضمن أحدا ، أو لا يبيع بدين ، أو لا يسلف أحدا ، أو لا يتصدق ، فهذه الأمور كلها بر وتقوى ، نهى اللّه تعالى عن الحلف على عدم فعلها ، أو يحلف ألا يصلح بين الناس ، فيجب على الحالف على ذلك أن يحنث ، ويكفر عن يمينه. ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام – : «إنّى لأحلف على يمين فأرى خيرا منها ، فأكفر عن يمينى ، وآتى الّذى هو خير». وقال لابن سمرة : «إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الّذى هو خير ، وكفّر عن يمينك».

أو يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ معرضا لأيمانكم ، تحلفون به كثيرا ، نهيتكم عن ذلك ، إرادة أن تكونوا أبرارا متقين ، مصلحين بَيْنَ النَّاسِ فإن الحالف مجترئ على اللّه ، والمجترئ لا يكون برا متقيا ، ولا موثوقا به فى إصلاح ذات البين ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأيمانكم ، عَلِيمٌ بنياتكم.

ثم رفع الحق تعالى الحرج عن يمين اللغو الذي لا قصد فيه – فقال : لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ ، وهو ما يجرى على اللسان من غير قصد ، كقول الرجل فى مجرى كلامه : لا واللّه وبلى واللّه ، قاله ابن عباس وعائشة – رضي اللّه عنهما – ، وبه قال الشافعي.

وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس – فى أحد قوليه – : هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه. وبه قال مالك رضي اللّه عنه ، والأول أليق بقوله تعالى : وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ أي : بما عقدت عليه قلوبكم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حيث لم يؤاخذكم باللغو ، حَلِيمٌ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدّ ، تربصا للتوبة.

*(٢٥٤/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٥

الإشارة : يقول الحق جل جلاله : لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ ، ولكن اجعلوه عرضة لتعظيم قلوبكم ومشاهدة لأسراركم ، فإني ما أظهرت اسمى لتبتذلوه فى الأيمان والجدال ، وإنما أظهرت اسمى لتتلقّوه بالتعظيم والإجلال ، فمن عظّم اسمى فقد عظم ذاتى ، ومن عظم ذاتى جعلته عظيما فى أرضى وعند أهل سمواتى ، وجعلته برا تقيا ، من أهل محبتى وودادي ، وداعيا يدعو إلى معرفتى ، ويصلح بينى وبين عبادى ، فمن حلمى ورأفتى : أنى لا أؤاخذ بما يجرى على اللسان ، وإنما أؤاخذ بما يقصده الجنان.

تنبيه : كثرة الحلف مذموم يدل على الخفة والطيش ، وعدم الحلف بالكلية تعسف ، وخير الأمور أوسطها ، كان عليه الصلاة والسلام يحلف فى بعض أحيانه ، يقول : «لا ومقلّب القلوب» ، : «والّذى نفس محمّد بيده».

واللّه تعالى أعلم.

ثم أشار الحق تعالى إلى حكم الإيلاء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٧]

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

قلت : (الإيلاء) : يمين زوج مكلّف على عدم وطء زوجته ، أكثر من أربعة أشهر. وآلى : بمعنى حلف ، يتعدى بعلى ، ولكن لما ضمّن هنا معنى البعد من المرأة ، عدّى بمن ، و(تربص) : مبتدأ ، و«للذين يؤلون» : خبر.

يقول الحق جل جلاله : لِلَّذِينَ يبعدون مِنْ نِسائِهِمْ ويحلفون ألّا يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر ، غضبا وقصدا للإضرار ، تَرَبُّصُ أي : تمهل أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، لا يطالب فيهن بفيئة ولا حنث ، فَإِنْ فاؤُ أي : رجعوا

عما حلفوا عليه ، وحنثوا وكفّروا أيمانهم ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما قصدوا من الإضرار ، بالفيئة التي هى كالتوبة ، رَحِيمٌ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ أي : صمموا عليه ، ولم يرجعوا عما حلفوا عليه ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لطلاقهم ، عَلِيمٌ بقصدهم ونيتهم. ومذهب مالك والشافعي : أن القاضي يوقفه :

إما أن يرجع بالوطء إن قدر ، أو بالوعد إن عجز ، أو يطلّق عليه طلقة رجعية ، عند مالك. ومذهب أبى حنيفة : أنها تبين بمجرد مضى أربعة أشهر. وأحكام الإيلاء مقررة فى كتب الفقه.

الإشارة : لا ينبغى للعبد أن يصرف عمره كله فى معاداة نفسه ومجانبتها ، إذ المقصود هو الاشتغال بمحبة الحبيب ، لا الاشتغال بعداوة العدو ، فلمجاهدة نفسه ومجانبتها حد معلوم ووقت مخصوص ، وهو ما دامت جموحة

*(١/٢٥٥)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٦

جاهلة باللّه. فإن فاءت ورجعت إلى اللّه ، وارتاضت لحضرة اللّه ، وجبت محبتها والاصطلاح معها لأن النفس بها ربح من ربح ، ومنها خسر من خسر ، من عرف قدرها ، واحتال عليها حتى ردها إلى ربها – ربح ، ومن أهملها وجهل قدرها – خسر ، وكان شيخ شيوخنا يقول : جزاها اللّه عنا خيرا واللّه ما ربحنا إلا منها ، يعنى نفسه. وفى بعض الآثار : (من عرف نفسه عرف ربه). وإن عزموا الطلاق ، يعنى : العباد والزهاد عزموا ألا يرجعوا إلى أنفسهم أبدا ، فإن اللّه سميع عليم بقصدهم هل قصدهم طلب الحظوظ أو محبة الحبيب ، وأما العارفون فلا تبقى لهم معاداة مع أحد قط ، قد اصطلحوا مع الوجود بأسره ، فمكنهم اللّه من التصرف فى الوجود بأسره. واللّه ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدة الطلاق ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٨]

وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

قلت : القرء هو الطهر الذي يكون بعد الحيض ، عند مالك ، وجمع القلة : أقراء ، والكثرة : قروء ، واستعمله هنا باعتبار كثرة المطلقات ، و(ثلاثة) : مفعول مطلق ، أو ظرف ، و(بعولتهن) : جمع بعل ، والتاء لتأنيث الجماعة.

يقول الحق جل جلاله : وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ أي : يمكثن عن التزوج ، بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ أي :

أطهار ، وتعتدّ بالطهر الذي طلقها فيه ، فتحيض ، ثم تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فإذا رأت الحيضة الثالثة خرجت من العدة ، هذا فى غير الحامل ، وأما الحامل فعدتها وضع حملها. وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ من الولد استعجالا لإتمام العدة ، أو من الحيض استبقاءا لتمادى العدة ، وتصدّق فى ذلك كله ، فإن كانت يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يحل لها أن تكتم ما استؤمنت عليه ، وَبُعُولَتُهُنَّ أي : أزواجهن ، أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ التربص ، إن كان الطلاق رجعيا ، وإلا بانت منه ، وينبغى للزوج أن يراجعها فى العدة ، إن أراد بذلك الإصلاح والمودة ، لا الإضرار بها ، وإلا حرم عليه ارتجاعها ، إذ «لا ضرر ولا ضرار» ، كما قال – عليه الصلاة والسلام – .

الإشارة : إذا طلّقت النّفس ، ووقع البعد منها حتى طهرت ثلاثة : الطهر الأول : من الإصرار على الذنوب والمخالفات ، الطهر الثاني : من العيوب والغفلات ، الطهر الثالث : من الركون إلى العادات والوقوف مع المحسوسات ، دون المعاني وأنوار التجليات – حلّت رجعتها والاصطلاح معها ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق اللّه فى أرحامهن : من العلوم والمعارف والأنوار ، وذلك إذا استشرفت على حضرة الأسرار ، فإنها تفيض بالعلوم والحكم ،

*(٢٥٦/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٧

أو ما لا يحصى ، فينبغى أن تطلع عليها من يقتدى بشأنها. وبعولتهن أحق بردهن ، والصلح معهن ، بعد تمام تطهيرهن ، إن أرادوا بذلك إصلاحا ، وهو إدخالها فى الحضرة ، ونعيمها بالشهود والنظرة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حقوق الزوجية ، فقال :

الطَّلاقُ مَرَّتانِ ...

يقول الحق جل جلاله : وللنساء حقوق على الرجال ، كما أن للرجال حقوقا على النساء ، فحقوق النساء على الرجال : الإنفاق ، والكسوة ، والإعفاف ، وحسن المعاشرة ، وكان ابن عمر – رضي اللّه عنهما – يقول : إنى لأحبّ أن أتزيّن للمرأة كما تتزين لى ، ويقرأ هذه الآية.

وحقوق الرجل على المرأة : إصلاح الطعام والفراش ، وطاعة زوجها فى كل ما يأمرها به من المباح ، وحفظ فرجها ، وصيانة ماله الذي ائتمنت عليه – إلى غير ذلك من الحقوق ، فللنساء حقوق على الرجال مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ من غير ضرر ولا ضرار. ولا تفريط ولا إفراط ، وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ أي : فضيلة لأن الرجال قوامون على النساء ، ولهم فضل فى الميراث ، والقسمة ، وكثير من الحقوق ، فضلهم اللّه على النساء.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ لا يعجزه عقاب من خالف أمره ، لكنه يمهل ولا يهمل ، حَكِيمٌ لا يفعل إلا لمصلحة ظاهرة أو خفية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : للنفس حقوق على صاحبها ، كما له حقوق عليها ، قال – عليه الصلاة والسلام – : «إنّ لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولربك عليك حقا ، فأعط كلّ ذى حق حقّه». فالنفس مغرفة للسر ، فإذا تعبت سقط منها السر ، كذلك نفس الإنسان ، إذا تحامل عليها حتى تعللت ، ودخلها الوجع ، تعذر عليها كثير من العبادات ، لا سيما الفكرة ، فلا بد من حفظ البشرية ، وإنما ينبغى قتلها بالأمور التي لا تخلّ بصحتها ، فعليها طاعتك فيما تأمرها به ، كما عليك حفظها مما تتضرر به. وللرجال الأقوياء عليها تسلط وتصرف ، فهى مملوكة فى أيديهم ، وهم غالبون عليها ، واللّه غالب على أمره ، وهو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدد الطلاق ، فقال :

*(٢٥٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٥٨

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٢٩ الى ٢٣٠]

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

قلت : (فإمساك بمعروف) : مبتدأ ، والخبر : محذوف ، أي : أحسن أو أمثل. أو خبر ، أي : فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

يقول الحق جل جلاله : الطَّلاقُ الذي تقع الرجعة بعده – إنما هو مَرَّتانِ ، فإن طلق ثالثة فلا رجعة بعدها ، فإن طلق واحدة أو اثنتين فهو مخير ، فإما أن يمسكها ويرتجعها بحسن المعاشرة ، والقيام بحقوق الزوجية بالمعروف. وإما أن يسرّحها حتى تنقضى عدتها بِإِحْسانٍ ، من غير إضرار ، ولا تطويل عدة. وَلا يَحِلُّ لَكُمْ ، أيها الأزواج ، أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ من الصداق شَيْئاً – خلعا – إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ بأن ظن الزوج أو الزوجة فساد العشرة بينهما ، وعدم القيام بحقوق الزوجية ، فَإِنْ خِفْتُمْ أيها الحكام ، أو من ينوب عنهم ، أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ من العصمة ، فيحل للزوج أن يأخذ منها الفداء ، ولو بجميع ما تملك ، إذا كان الضرر منها أو منهما. فإن

انفرد بضررها ، حرّم عليه أخذ الفداء ، وطلّقت عليه.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أي : هذه الأحكام التي ذكرنا من عدد الطلاق وأخذ الخلع على وجهه – هى حدود اللّه التي حدها لعباده ، فمن تعداها فهو ظالم.

(فإن) طلق الزوج مرة ثالثة فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ، ويدخل بها ، من غير شرط التحليل ، فَإِنْ طَلَّقَها الثاني ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا بنكاح جديد إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حقوق الزوجية ، وحسن العشرة ، وَتِلْكَ الأحكام المذكورة هى حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها الحق تعالى لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي : يفهمون ويتدبرون الأمور.

الإشارة : إذا طلّق المريد الدنيا ، ثم رجع إليها ، ثم تاب وتوجه إلى اللّه ، ثم رجع إليها ، ثم تاب وتوجه مرة ثانية ، قبلت توبته ، فإن رجع إليها بعد الطلقة الثانية ، فلا يرجى فلاحه فى الغالب لأنه متلاعب ، قال تعالى : (الطلاق



---



مرّتان) فإمساك لها بمعروف بأن يواسى بها من يحتاج إليها ، أو تسريح لها من يده بإحسان من اللّه إليه ، حتى يدخله فى مقام الإحسان ، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبدا حتى يأخذها من يد اللّه باللّه ، بعد أن كان يأخذها بنفسه ، فكأنه أخذها بعصمة جديدة ، فإن تمكن من الفناء والبقاء ، فلا جناح عليه أن يرجع إليها غنيا باللّه عنها.

واللّه تعالى أعلم.

ثم نهى الحق تعالى عن إمساك الزوجة ، إضرارا ، كما كانت تفعل الجاهلية ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣١]

وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

قلت : (ضرارا) : مفعول له ، أو حال ، أي : مضارّين.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فقرب بلوغ أجل عدّتهنّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بالرجعة متلبسين بالمعروف والإحسان إليها ، أَوْ سَرِّحُوهُنَّ يتزوجن غيركم بِمَعْرُوفٍ لا إضرار فيه ، وَلا تُمْسِكُوهُنَّ بنية طلاقهن ضِراراً أي : لأجل الضرر بتطويل عدتهن لِتَعْتَدُوا عليهن وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

نزلت فى رجل قال لامرأته : لا آويك ، ولا أدعك تحلّين لغيرى. فقالت : كيف؟ فقال : أطلقك ، فإذا

دنا مضىّ عدّتك راجعتك ، فشكت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فنزلت الآية. وكان بعضهم يطلق ، ويعتق ، ثم يرجع ، ويقول : كنت أهزأ بذلك وألعب ، فنزل قوله تعالى : وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً أي : مهزوءا بها ، وفى الحديث : «ثلاث هزلهنّ جد : النّكاح ، والطّلاق ، والرّجعة». وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية وبعثة الرسول ، وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ فيه ما تحتاجون إليه ظاهرا وباطنا ، وَالْحِكْمَةِ أي : السنة المطهرة ، يَعِظُكُمْ بذلك ويزكيكم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما يأمركم به ، وينهاكم عنه ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ.

(٢٥٩/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٠

الإشارة : يقال للمريدين المتجردين إذا طلقتم الدنيا ، وآيستم أنفسكم من الرجوع إليها حتى تمكّن اليقين من القلب بحيث انقطع الاهتمام بالرزق من القلب ، وزالت عنه الشكوك والأوهام ، فإذا رجعت إليه الدنيا ، فإما أن يمسكها بمعروف بأن تكون فى يده لا فى قلبه ، أو يسرحها من يده ، بسبب مقام الإحسان الذي عوضه اللّه عنها ، ولا تمسكوا الدنيا ، أيها الفقراء ، قبل كمال اليقين ، فإنها ضرر لكم ، فقد أخذت الرجال لا سيما الأطفال. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث حرمها الوصول ، وتركها فى حيرة الأوهام تجول ، فاحذروا لذيذ عاجلها ، لكريه آجلها ، وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً بالرخص والتأويلات ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية إلى الطريق ، وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ : فيه بيان التحقيق وَالْحِكْمَةِ التي هى إصابة عين التوفيق ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، فلا تركنوا إلى شىء سواه ، فإن مالت قلوبكم إلى شىء من السوي ، أو نزعت إلى محبة الهوى ، فاعلموا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيبعدكم بعد الوصول. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم.

ثم نهى الحق تعالى عن منع النساء من التزوج إضرارا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٢]

وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

قلت : العضل : المنع والتضييق والتعسير ، يقال : أعضلت الدجاجة ، إذا عسر بيضها.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فانقضت عدتهن فَلا تمنعوهن ، أيها الأولياء ، من أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ الذين كانوا يملكوهن ثم طلقوا ، أو الخطّاب الأجانب ، إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ أي :

بأن كانوا أكفاء لهن ، وبذلوا من المهر ما يناسبهن ، أو كانت رشيدة. ذلِكَ الذي ذكرنا لكم – يتعظ به ، ويقف معه ، من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لأنه هو الذي ينجع فيه الوعظ وينتفع بالتذكير ، ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ أي : أرفع لقدركم ، إن تمسكتم به ، وَأَطْهَرُ لكم من الذنوب والعيوب ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه صلاحكم ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. نزلت الآية فى معقل بن يسار ، زوّج أخته ثم طلقها زوجها ، وأمهلها حتى انقضت عدّتها ، ثم جاء يخطبها ، فقال معقل : تركها حتى ملكت نفسها ، ثم جاء يخطبها ، واللّه لا أزوجها منه أبدا. والمرأة أرادت أن ترجع إليه ، فنزلت الآية ، فرجع معقل عن قسمه وزوّجها.
وفيه دليل أن المرأة لا تزوج نفسها ، خلافا لأبى حنيفة. واللّه تعالى أعلم.

(٢٦٠/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦١
الإشارة : ينبغى للشيوخ إذا تحققوا من المريدين كمال اليقين ، وظهر عليهم أمارات الرشد ، ألا يمنعوهم من تعاطى الأسباب ، وأخذ ما جاءهم من الدنيا ، بلا استشراف ولا طمع ، فقد يكون ذلك عونا لهم على الدين ، وعمارة لزاوية الذاكرين ، فذلك أزكى لهم وأطهر لقلوبهم ، (و اللّه يعلم وأنتم لا تعلمون).
ثم ذكر تعالى حكم الرضاع ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٣]
وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)
يقول الحق جل جلاله : ويجب على الوالدات أن يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ إذا كنّ فى العصمة ، ولا شرف لهن لجرى العرف بذلك ، أو مطلقات ، ولم يقبل الولد غيرهنّ ، هذا لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ ، فإن اتفقا على فطامه قبلهما ، جاز ، كما يأتى. ويجب عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ وهو الأب ، رزق أمهات أولاده ، وَكِسْوَتُهُنَّ إذ هو الذي ينسب المولود له ، وذلك بِالْمَعْرُوفِ ، لا يكلف اللّه نفسا إلا ما فى وسعها وتطيقه ، فلا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها ، بحيث ترضعه وهى مريضة ، أو انقطع لبنها. بل يجب على الأب أن يستأجر من يرضعه ، ولا يضار مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ، بحيث يكلف من الإنفاق والكسوة فوق جهده. فإن مات الأب وترك مالا – فعلى الْوارِثِ الكبير مِثْلُ ذلِكَ من الكسوة والإنفاق ، يجريها من مال الأب ، ويحسبها من حق الصبى ، فإن لم يكن للأب مال – فعلى جماعة المسلمين.

فَإِنْ أَرادا أي : الأب والمرضعة ، فِصالًا أي : فطاما للصبى قبل تمام الحولين ، عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ بينهما ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما ، إن لم يخف على الولد ضعف. وَإِنْ أَرَدْتُمْ ، أيها الأزواج ، أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ عند غير الأم ، برضاها ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فى ذلك إِذا سَلَّمْتُمْ أي : أعطيتم للمراضع ، ما آتَيْتُمْ أي : ما أردتم إيتاءه من الأجرة بِالْمَعْرُوفِ من غير مطل ولا تقتير. والشرط إنما هو

(٢٦١/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٢

على وجه الكمال والإحسان ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما كلفتم به من الحقوق ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يخفى عليه شيء من أموركم فإنه بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

الإشارة : اعلم أن تربية الولاية فى قلب المريد ، على نمط تربية الطفل الصغير ، تنبت فى قلب المريد وقت عقد الصحبة بينهما ، ثم لا تزال تنمو ، أو الشيخ يرضعه بلبن الإمداد حتى يتم أوان رضاعه ، ولذلك قالوا : الثدي الميتة لا ترضع. هـ. يشيرون إلى أن الشيخ الميت لا يربى ، فلا يزال الشيخ يربى الروح ، ويمدها حتى تدخل بلد الإحسان ، وتشتعل فكرتها. وهذا تمام الحولين فى حقها ، وهو أوان كمال الحقيقة والشريعة لمن أراد إتمامها ، فتأكل الروح حينئذ من كل شيء ، وتشرب من كل شيء ، وتستمد من الأشياء كلها ، ثم لا يزال يحاذيها بهمته حتى ترشد ، فيطلق لها التصرف ، فتصلح لتربية غيرها.

وعلى الشيخ رزق المريدين من قوت القلوب وكسوتهم ، تقيهم من إصابة الذنوب والعيوب ، إلا ما سبق به القضاء فى علم الغيوب ، فليس فى طوق أحد دفعه ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، فإذا مات الشيخ ، ووصّى بمن يرث مقامه ، فعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أراد المريد انفصالا عن الشيخ ، وتعمير بلد ، أو تذكير عباد اللّه ، عن تراض منهما وتشاور من الشيخ ، فلا جناح عليهما ، وإن أردتم ، أيها الشيوخ ، أن تسترضعوا أولادكم بإرسال من يذكّرهم ، ويمدهم ، نائبا عنكم ، فلا جناح عليكم إذا سلمتم لهم من الإمداد ما يمدهم به ، واتقوا اللّه فى شأن المريدين ، فى جبر كسرهم ، وقبول عذرهم ، واعلموا أن اللّه بما تعملون بصير.

ثم ذكر الحق تعالى عدّة الوفاة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٤ الى ٢٣٥]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ

تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

(٢٦٢/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٣

قلت : والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ : مبتدأ ، ويَتَرَبَّصْنَ : خبر ، ولا بد من الحذف ليصح الإخبار ، إما من الصدر أو من العجز ، أي : وأزواج الذين يتوفون ، أو الذين يتوفون أزواجهن يتربصن.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يموتون منكم ، أيها المؤمنون ، ويتركون أَزْواجاً ، فلا يتزوجن حتى يَتَرَبَّصْنَ أي : يمكثن بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعشرة أيام لأن الجنين يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكرا ، ولأربعة إن كان أنثى فى الغالب «١» ، وزيد عشرة ، استظهارا ، هذا فى غير الحامل ، أما الحامل ، فعدتها وضع حملها. فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أي : انقضت عدتهن ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أيها الأولياء فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ من التزين والتعرض للنكاح أو التزوج ، بِالْمَعْرُوفِ ، بحيث لا ينكره الشرع من تزين ونكاح ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فيجازيكم على ما فعلتم.

وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أيها الخطّاب فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ للمعتدات مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ كقول الرجل : إنى لراغب فى صحبتكم ، وإنى أريد أن أتزوج فى هذه الساعة. وإنك لنافقة»

، أو لا يصلح لك أن تبقى بلا زوج ، ونحو هذا ، أَوْ أَكْنَنْتُمْ أي : أضمرتم فِي أَنْفُسِكُمْ فى زمن العدة من أمر التزوج دون تصريح ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ ستذكرون النساء المعتدات ، وتتكلمون فى نكاحهن ، حرصا وتمنيا ، فعرّضوا بذلك ، وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا أي : فى الخلوة ، أو لا تواعدوهن نكاحا أو جماعا ، إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وهو التعريض بالألفاظ المتقدمة.

ولا تقطعوا عُقْدَةَ النِّكاحِ ، وتعزموا على فعله ، حَتَّى يَبْلُغَ كتاب المعتدة أَجَلَهُ ، وتنقضى العدة ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ من الرغبة والحرص ، فَاحْذَرُوهُ فإنّ الحرص على الشيء ، والرغبة فيه ، قبل أوانه ، ربما يعاقب صاحبه بحرمانه ، وما قدّر لك لا يكون لغيرك ، وما كان لغيرك لا يكون لك ، ولو فعلت ما فعلت ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما استعجلتم فإن الإنسان خلق عجولا ، حَلِيمٌ فلا يعاجلكم ولا يفضح سرائركم.

---

(١) ذكر ذلك البيضاوي ، فى أنوار التنزيل. وفيه منافاة للحديث المتفق عليه : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه ...) الحديث إلى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : (ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ...) وظاهر الحديث يفيد : أن نفخ الروح بعد هذه المدة مطلقا ، لا فرق بين ذكر وأنثى. راجع تفسير

الآلوسى.

(٢) نافقه أي : مرغوب فيها.

(٢٦٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٤

الإشارة : إذا ماتت النفس عن الهوى ، وتركت حظوظا وشهوات ، فلا ينبغى أن يردها إلى ذلك حتى تتربص مدة ، ليظهر عليها آثار الزهد من السكون إلى اللّه ، والتأنس بمشاهدة اللّه حتى تغيب عما سواه. فإذا بلغت هذا الوصف فلا جناح على المريد أن يسعفها فيما تفعل بالمعروف ، من غير سرف ولا ميل إلى هوى ، لأن فعلها حينئذ باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شىء من أمرها ، ولا جناح عليكم ، أيها المريدون ، إن تزكت نفوسكم ، وطهرت من الأغيار قلوبكم ، فيما عرضتم به من خطبة أبكار الحقائق وثيبات العلوم ، أو أكننتم فى أنفسكم من المعارف والمفهوم ، علم اللّه أنكم ستذكرون ذلك باللسان قبل أن يصل الذوق إلى الجنان ، فلا تصرحوا بعلوم الحقائق مع كل الخلائق فإن ذلك من فعل الزنادق ، إلا أن تقولوا قولا معروفا ، إشارة أو تلويحا ، فعلمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفى.

ولا تطلبوا علم الحقائق قبل بلوغ أجله ، وهو موت النفوس ، والزهد فى الفلوس ، وكمال التربية ، وتمام التصفية ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ من الشره إليها قبل أوانها ، فَاحْذَرُوهُ أن يعاقبكم بحرمانها ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجلكم بحرمان قصدكم ، إن صح مقصدكم ، واللّه تعالى أعلم ، وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حكم الطلاق قبل المسيس ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٦ الى ٢٣٧]

لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

قلت : (ما) مصدرية ظرفية ، وأَوْ تَفْرِضُوا معطوف على تَمَسُّوهُنَّ أي : لا تبعة عليكم ولا إثم إن طلقتم النساء قبل البناء ، مدة كونكم لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن مهرا ، وإِلَّا أَنْ يَعْفُونَ مبنى لاتصاله بنون النسوة ، ووزنه : يفعلن كقوله تعالى : السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وقوله وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً ، وحَقًّا مفعول مطلق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٥

يقول الحق جل جلاله : لا حرج عليكم من إثم أو صداق ، إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ مدة كونكم لَمْ تَمَسُّوهُنَّ بالجماع ، أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً من الصداق ، فطلقوهن حينئذ ، وَمَتِّعُوهُنَّ أي : أعطوهن ما يتمتعن به ويجبر كسرهن ، على قدر حال الزوج عَلَى الْمُوسِعِ أي : الغنى ، قَدَرُهُ من المتعة كأمة أو كسوة أو مال يليق بحاله ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ أي : الذي تقتر رزقه ، أي ضيق عليه ، وهو الفقير ، قَدَرُهُ ما يقدر عليه ، فمتعوهن مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ من غير سرف ولا تقتير ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ أي : حق ذلك عليهم حقا. حمل مالك الأمر على الندب ، وحمله غيره على الوجوب ، وهو الظاهر.

وإن طلقتموهن بعد المسيس فالصداق كامل ، وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ صداقا فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ يجب عليكم ، إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أي : النساء ، عن نصف الصداق ، أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ ، وهو الأب فى ابنته البكر قاله مالك ، أو الزوج بأن يدفعه كاملا ، قاله الشافعي ، وَأَنْ تَعْفُوا أيها الأولياء عن الزوج ، فلا تقبضوا منه شيئا ، أَقْرَبُ لِلتَّقْوى لأن المرأة لم يذهب لها شيء فسلعتها قائمة ، وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ والإحسان بَيْنَكُمْ ، فتسامحوا يسمح لكم ، إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فيجازى المحسن بإحسانه ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

الإشارة : من المريدين من تحصل له الغيبة عن نفسه ، والجذب عنها ، بعد أن يمسها بالمجاهدة والمكابدة ، فحينئذ يمتعها بالشهود والعيان ، وهذه طريق الجادة. ومنهم من تحصل له الغيبة عن نفسه والجذب عنها قبل أن يمسها ، ويجاهدها ، وهو نادر بالنسبة إلى الأول ، فيقال لهؤلاء الفريق : لا جناح عليكم إن طلقتم أنفسكم ، وغبتم عنها ، من قبل أن تمسوها ، وقبل أن تعرضوا عليها وظائف العبودية. ومتعوهن بالشهود والعيان على قدر وسعكم وقوة شهودكم ، على الموسع قدره من لذة الشهود ، وعلى المقتر – أي : المضيق عليه فى المعرفة – قدره من لذة الشهود ، حق ذلك حقا على المحسنين الذين حازوا مقام الإحسان ، وفازوا بالشهود والعيان.

وإن حصل لكم جذب العناية ، وطلقتم أنفسكم قبل أن تمسوها ، وقد كنتم وظفتم عليها أورادا من وظائف العبودية فنصف ما فرضتم ، وهو المهم منها لأن عبادتها صارت قلبية ، فيكفيها من العبادة القالبية المهم ، إلا أن تقوى على ذلك مع الشهود. أو يأمرها الذي بيده عقدة نكاحها ، وهو الشيخ ، فلا يضرها الاشتغال بها حيث كان بإذن ، وأن تعفوا ، أيها الشيوخ ، عن المريدين فى العبادة الحسية ، وتأمروهم بالعبادة القلبية ، أقرب للتقوى الكاملة ، وهى تقوى السّوى. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٦٦

ولما ذكر الحق تعالى شأن النساء ، حذر من الاشتغال بهن عن العبادة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٨ الى ٢٣٩]

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

يقول الحق جل جلاله : حافِظُوا أيضا على أداء الصَّلَواتِ الخمس فى أوقاتها بإتقان شروطها وأركانها وخشوعها وآدابها ، ولا تشتغلوا عنها بشهوات النساء وتشغيب أحكامهن ، ولا بغير ذلك ، وحافظوا أيضا على الصَّلاةِ الْوُسْطى وهى العصر عند الشافعي ، وهو ظاهر الحديث ، أو الصبح عند مالك لفضلها ، أو لتوسطها بين صلاتى الليل والنهار. وما من صلاة إلا وقيل فيها الوسطى. وقيل : أخفيت كساعة الجمعة وليلة القدر.

وَقُومُوا لِلَّهِ فى الصلاة قانِتِينَ أي : ساكتين ، وكان ، قبل نزول الآية ، الكلام فى الصلاة جائزا ، أو قيل : مطيعين. إذ القنوت فى القرآن كله بمعنى الطاعة. فَإِنْ خِفْتُمْ من عدو ، أو سبع ، أو سيل ، فصلّوا قياما على أرجلكم بالإيماء للسجود ، أَوْ رُكْباناً على خيولكم بالإيماء للركوع والسجود ، فَإِذا أَمِنْتُمْ فى الصلاة ، أو بعدها ، فصلوا صلاة أمن ، فَاذْكُرُوا اللَّهَ فى الصلاة ، وصلوا كَما عَلَّمَكُمْ من الكيفية ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ قبل ذلك.

الإشارة : حافظوا على الصلوات الحسية قياما بوظائف العبودية ، وعلى الصلاة القلبية قياما بشهود عظمة الربوبية وهى الصلاة الوسطى لدوامها فى كل ساعة ، قيل لبعضهم : هل للقلوب صلاة؟ قال : نعم ، إذا سجد لا يرفع رأسه أبدا. هـ. أي : إذا خضع لهيبة العظمة لم يرفع أبدا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فاسجد لهيبة الجلال عند التّدانى

ولتقرأ آية الكمال سبع المثاني

وأشار بقوله «آية الكمال» لقوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ليجمع بين الشريعة والحقيقة ، فسجود القلب حقيقة ، وسجود الجوارح شريعة ، وقوموا للّه بآداب العبودية قانتين خاشعين ، فإن خفتم ألا تصلوا إلى ربكم ، قبل انقضاء أجلكم ، فسيروا إليه رجالا أو ركبانا ، خفافا أو ثقالا ، فإذا أمنتم من القطيعة – وذلك بعد التمكين – فاذكروا اللّه شكرا لأجل ما أطلعكم عليه ، وعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون من عظمة الربوبية ، وكمال آداب العبودية.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام على النساء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٠]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّمِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

قلت : (وصية) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : عليهم وصية ، ومن نصب ، فمفعول مطلق ، أي : فليوصوا وصية ، و(غير) : حال من الأزواج ، أي : حال كونهنّ غير مخرجات.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ويتركون أَزْواجاً بعدهم ، فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية يتمتعن بها من كسوة ونفقة وسكنى ، إلى تمام الْحَوْلِ ما دام الأزواج لم يخرجن من مسكن الزوج ، فَإِنْ خَرَجْنَ بأنفسهن ، فلا نفقة ولا كسوة ولا سكنى عليكم أيها الأولياء ، ولا حرج عليكم فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ من التزين والتعرض للنكاح بعد تمام عدتهن ، على ما هو معروف فى الشرع ، والوصية منسوخة بآية الميراث ، وتربص الحول بآية أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً المتقدمة «١» المتأخرة فى النزول ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ينسخ ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، باعتبار الحكمة والمصلحة.

الإشارة : والذين يتوفون عن الحظوظ والشهوات ، ويتركون علوما وأسرارا ، ينبغى لهم أن يوصوا بحفظها وتدوينها ، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه إذا استغرق فى الكلام وفاضت عليه المواهب ، يقول : (هلّا رجل يقيد عنا هذه العلوم). هـ. ليقع التمتع بها للسائرين والطالبين ، (غير إخراج) لغير أهلها ، فإن قضى الوقت بخروجها ، من غير قصد ، فلا حرج ، إما لغلبة وجد أو هداية مريد ، (و اللّه عزيز حكيم) ، فعزته اقتضت الغيرة على سره : أن يأخذه غير أهله ، وحكمته اقتضت ظهوره فى وقته لأهله. واللّه تعالى أعلم.

ثم كرر أمر المتعة تأكيدا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٤١ الى ٢٤٢]

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

---

(١) أي : متقدمة فى التلاوة.

قلت : إنما كرره لأن الأولى فى غير المدخول بها ، إذا طلقت قبل الفرض ، وهذه فى المدخول بها ، وعبّر أولا بالمحسن : لأن المتعة قبل الدخول لا يعطيها إلا أهل الإحسان لأن المطلق لم يحصل له تمتع بالزوجة ، بخلاف الثاني ، فمطلق المدخول بها ، التقوى تحمله على الإمتاع.

وقيل : لمّا نزلت الآية الأولى ، قال رجل من المسلمين : إن أحسنت متّعت وإلّا تركت ، فنزلت الثانية تأكيدا.

وقال : حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ الشرك ، أي : على كل مؤمن ، وحكمها : الندب ، عند مالك ، على تفصيل ذكره فى المختصر ، فقال عاطفا على المندوب : والمتعة على قدر حاله ، بعد العدة للرجعة ، أو ورثتها ، ككل مطلّقة فى نكاح لازم ، لا فى فسخ كلعان وملك أحد الزوجين ، إلا من اختلعت ، أو فرض لها وطلقت قبل البناء ، ومختارة لعتقها أو لعيبه أو مخيّرة أو مملكة.

الإشارة : كل من طلق نفسه وخالف هواها تمتع بحلاوة المعاملة مع ربه ، فمن اتصل بشيخ التربية تمتع بحلاوة العبادة القلبية كالشهود والعيان ، ومن لم يتصل بالشيخ تمتع بحلاوة العبادة الحسية. فالآية الأولى فى المريدين والواصلين ، وهذه الآية فى العبّاد والزهاد ، ولذلك عبر فى الأولى بالمحسنين ، وفى الثانية بالمتقين ، واللّه تعالى أعلم.

ثم حذّر من الفرار من الموت ، توطئة للترغيب فى الجهاد ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٣]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

قلت : الاستفهام للتعجب والتشويق ، والرؤية قلبية ، والواو للحال ، و(حذر) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : ألم تنظر يا محمد ، بعين الفكر والاعتبار ، إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ عشرة ، أو ثلاثون ، أو أربعون ، أو سبعون ، حذرا من الْمَوْتِ فى زمن الطاعون.

وكانوا فى قرية يقال لها : (داوردان) فلما وقع بها الطاعون ، خرجت طائفة هاربين ، وبقيت أخرى ، فهلك أكثر من بقي ، وسلم الخارجون ، ثم رجعوا ، فقال الباقون : لو صنعنا مثلهم لبقينا ، لئن أصابنا الطاعون مرة ثانية لخرجنا ، فأصابهم من قابل ، فهربوا كلهم ، ونزلوا واديا أفيح «١» ، فناداهم ملك من أسفل الوادي ، وآخر من أعلاه ، أن :

---

(١) الأفيح والفياح : كل موضع واسع ، ومنه : روضة فيحاء. [.....]

موتوا ، فماتوا كلهم أجمعون ، ومرت عليهم مدة ثمانية أيام أو أكثر حتى انتفخوا ، وقيل : صاروا عظاما ، فمرّ عليهم نبى اللّه (حزقيل) ، فدعا اللّه تعالى ، واستشفع فيهم ، فأحياهم اللّه ، وعاشوا دهرا ، عليهم سيما الموت لا يلبسون ثوبا إلا عاد كالكفن ، واستمر فى أسباطهم. هـ.

قال الأصمعى : لما وقع الطاعون بالبصرة ، خرج رجل منها على حمار معه أهله ، وله عبد يسوق حماره ، فأنشأ العبد يقول :

لن يسبق الله على حمار ولا على ذى مشعة طيّار

قد يصبح اللّه أمام الساري «١» فرجع الرجل بعياله.

والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام فى تلك الشريعة ، كما حرم فى شرعنا ، وروى عبد الرحمن ابن عوف أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «إذا سمعتم هذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا منه».

قلت : وقد اختلف الأئمة فى حكم الفرار والقدوم : فمنهم من شهر المنع فيهما تمسكا بظاهر الحديث ، ومنهم من شهر الكراهة. والمختار فى الفرار : التحريم ، وفى القدوم : التفصيل ، فمن قوى يقينه ، وصفا توحيده ، حلّ له القدوم ، ومن ضعف يقينه ، بحيث إذا أصابه شيء نسب التأثير لغير اللّه حرم عليه القدوم.

وفى حديث عائشة – رضي اللّه عنها – قلت : يا رسول اللّه ، ما الطاعون؟ قال : «غدة كغدة البعير ، المقيم فيه كالشهيد ، والفارّ منه كالفار من الزحف». قال ابن حجر : كون المقيم فيه له أجر شهيد إنما بشرط أن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب اللّه له ، وأن يسلم إليه أمره ويرضى بقضائه ، وأن يبقى فى مكانه ولا يخرج منه بقصد الفرار ، فإذا اتصف الجالس بهذه القيود حصل له أجر الشهادة. ودخل تحته ثلاث صور ، الأولى : من اتصف بذلك فوقع له الطاعون ومات فهو شهيد. والثانية : من وقع به ولم يمت به فهو شهيد وإن مات بعد ذلك. والثالثة : من لم يقع به أصلا ومات بغيره عاجلا أو آجلا فهو شهيد ، إذا حصلت فيه القيود الثلاثة ، ومن لم يتصف بالقيود الثلاثة فليس بشهيد ، ولو مات بالطاعون. واللّه أعلم هـ.

وأما القدوم من بلد الطاعون إلى البلد السالمة منه فجائز. ولا يمنع من الدخول ، قاله الباجى وابن حجر والحطاب وغيرهم لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «لا عدوى ولا طيرة» وأما قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ذكر القرطبي البيت الثاني كاملا ، وهو :

أو يأتى الحتف على مقدار قد يصبح الله أمام الساري

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٠

«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد» ، وقوله : «لا يورد ممرض على مصحّ» ، فهو محمول على حسم المادة ، وسد الذريعة لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك ، فيظنه بسبب المخالطة ، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع ، هذا المختار فى الجمع بين الحديثين. واللّه تعالى أعلم. وإنما أطلت فى المسألة لمسّ الحاجة لأن التأليف وقع فى زمن الوباء ، حفظنا اللّه من وبالها.

وقيل : إن الذين خرجوا من ديارهم قوم من بنى إسرائيل ، أمروا بالجهاد ، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد ، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك ، فأماتهم اللّه ليعرفهم أنهم لا ينجيهم من الموت شيء ، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد ، بقوله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الآية. وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنزل بهم رحمته ، ففروا منها ، ولم يعاقبهم ، حيث أحياهم بعد موتهم ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ إذ لا يفهم النعم فى طى النقم إلا القليل ، فيشكروا اللّه فى السراء والضراء.

الإشارة : ألم تر أيها السامع إلى الذين خرجوا من ديار عوائدهم وأوطان شهواتهم ، وهم جماعة أهل التجريد ، القاصدين إلى صفاء التوحيد ، والغرق فى بحر التفريد ، حذرا من موت أرواحهم بالجهل والفرق ، فاصطفاهم اللّه لحضرته ، وجذبهم إلى مشاهدة ذاته ، فقال لهم الله : موتوا عن حظوظكم ، وغيبوا عن وجودكم ، فلما ماتوا عن حظوظهم ، وغابوا عن وجودهم ، أحياهم اللّه بالعلم والمعرفة ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث فتح لهم باب السلوك ، وهيأهم لمعرفة ملك الملوك ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ حيث تجلى لهم ، وعرّفهم به ، وهم لا يشعرون ، إلا من فتح اللّه بصيرتهم ، وقليل ما هم.

ثم حرّض الحق تعالى المؤمنين على الجهاد ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٤]

وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

يقول الحق جل جلاله : وَقاتِلُوا الكفار فِي سَبِيلِ اللَّهِ وإعلاء كلمة اللّه حتى يكون الدين كله للّه ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوالكم ودعائكم ، عَلِيمٌ بنياتكم وإخلاصكم ، فيجازى المخلصين ، ويحرم المخلطين.

الإشارة : وجاهدوا نفوسكم فى طريق الوصول إلى اللّه ، وأديموا السير إلى حضرة الله ، فحضرة القدوس محرمة على أهل النفوس. قال الششترى :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧١

ومجاهدة النفس هو تحميلها ما يثقل عليها ، وبعدها مما يخف عليها ، حتى لا يثقل عليها شيء ، ولا تشره إلى شيء ، بل يكون هواها ما يقضيه عليها مولاها. قيل لبعضهم : [ما تشتهى؟ قال : ما يقضى اللّه ]. واعلموا أيها السائرون أن اللّه سميع لأذكاركم ، عليم بإخلاصكم ومقاصدكم.

ولما كان الجهاد يحتاج إلى مؤنة التجهيز ، وليس كل الناس يقدر على ذلك ، رغّب الحق تعالى الأقوياء بالإنفاق على الفقراء ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٥]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

قلت : القرض هو القطع ، أطلق على السلف لأن المقرض يقطع قطعة من ماله ويدفعها للمستلف ، والمراد بها الصدقة لأن المتصدق يدفع الصدقة فيردها الحق تعالى له بضعف أمثالها فأشبهت القرض فى مطلق الرد.

يقول الحق جل جلاله : من هذا الذي يعامل اللّه تعالى ويقرضه قَرْضاً حَسَناً بأن يتصدق على عباده صدقة حسنة بنية خالصة ، فيكثرها اللّه تعالى له أَضْعافاً كَثِيرَةً بسبعمائة إلى ما لا نهاية له ، ولا يحمله خوف الفقر على ترك الصدقة فإن اللّه تعالى يقبض الرزق عمن يشاء ولو قل إعطاؤه ، ويبسط الرزق على من يشاء ولو كثر إعطاؤه ، بل يقبض على من قبض يده شحا وبخلا ، ويبسط على من بسط يده عطاء وبذلا ، يقول : «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» ، «أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا».

ونسبة القرض إليه تعالى ترغيب وتقريب للأفهام ، كما قال فى الحديث القدسي : «يقول اللّه تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا ربّ! كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال : أما علمت أنّ عبدى فلانا مرض فلم تعده. أما إنك لو عدته لوجدتنى عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى. قال :

يا ربّ! كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال : أما علمت أنّه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى. قال : يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟

قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما علمت أنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندى».

الإشارة : من هذا الذي يقطع قلبه عن حب الدارين ، ويرفع همته عن الكونين ، فإن اللّه (يضاعفه له

أضعافا كثيرة) بأن يملّكه الوجود بما فيه ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان

(٢٧١/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٢

معك» ، (و اللّه يقبض ويبسط) فيقبض الوجود تحت حكمك وهمتك ، إن رفعت همتك عنه ، ويبسط يدك بالتصرف فيه ، إن علقت همتك بخالقه. أو يقبض القلوب بالفقد والوحشة ، ويبسطها بالإيناس والبهجة. أو يقبض الأرواح بالوفاة ، ويبسطها بالحياة. والقبض والبسط عند أهل التصوف : حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب الليل والنهار ، فإذا غلب حال الخوف كان مقبوضا ، وإذا غلب حال الرجاء كان مبسوطا ، وهذا حال السائرين. أما الواصلون فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم ، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط ، لأنهم مالكوا الأحوال.

قال القشيري : فإذا كاشف العبد بنعت جماله بسطه ، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه. فالقبض يوجب إيحاشه ، والبسط يوجب إيناسه ، واعلم أنه يردّ العبد إلى حال بشريته ، فيقبضه حتى لا يطيق ذرّة ، ويأخذه مرّة عن نعوته ، فيجد لحمل ما يرد عليه قدرة وطاقة ، قال الشّبلى رضي اللّه عنه : (من عرف اللّه حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينه ، ومن لم يعرف اللّه – جل وعلا – لو تعلق به جناح بعوضة لضجّ).

وقال أهل المعرفة : [إذا قبض قبض حتى لا طاقة ، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة ، والكل منه وإليه ].

ومن عرف أن اللّه هو القابض الباسط ، لم يعتب أحدا من الخلق ، ولا يسكن إليه فى إقبال ولا إدبار ، ولم ييأس منه فى البلاء ، ولا يسكن إليه فى عطاء ، فلا يكون له تدبير أبدا. هـ.

ولكلّ من القبض والبسط آداب ، فآداب القبض : السكون تحت مجارى الأقدار ، وانتظار الفرج من الكريم الغفار.

وآداب البسط : كف اللسان ، وقبض العنان ، والحياء من الكريم المنان. والبسط مزلّة أقدام الرجال. قال بعضهم : (فتح علىّ باب من البسط فزللت زلّة ، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة). ولذلك قيل :

قف على البساط وإياك والانبساط واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء ، وفوق القبض والبسط : الهيبة والأنس فالخوف والرجاء للمؤمنين ، والقبض والبسط للسائرين ، والهيبة والأنس للعارفين ، ثم المحو فى وجود العين للمتمكنين ، فلا هيبة لهم ، ولا أنس ، ولا علم ، ولا حس.

وأنشدوا :

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي

وكنت بلا حال مع اللّه واقفا تصان عن التّذكار للجن والإنس «١»

---

(١) ورد هذان البيتان فى قصة مع أبى سعيد الخراز ، ذكرها القشيري فى الرسالة.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٣

ثم ذكر الحق تعالى قصة من أمر بالجهاد فجبن عنه ، ترهيبا من التشبه به ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد – فتعتبر – إِلَى قصة جماعة مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ موت مُوسى حين طلبوا الجهاد ، وقالوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ يقال له : شمويل ، وقيل : شمعون : ابْعَثْ لَنا مَلِكاً يسوس أمرنا ونرجع إليه فى رأينا إذ الحرب لا تستقيم بغير إمام نُقاتِلْ معه فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قالَ لهم ذلك النبي : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا أي : هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟ والمعنى : أتوقع جبنكم عن القتال إن فرض عليكم. والأصل : عساكم أن تجبنوا إن فرض عليكم ، فأدخل (هل) على فعل التوقع ، مستفهما عما هو المتوقع عنده ، تقريرا وتثبيتا.

قالُوا فى جوابه : وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : أىّ مانع يمنعنا من القتال وقد وجد داعيه؟ وهو تسلط العدو علينا فأخرجنا من ديارنا وأسر أبناءنا ، وكان اللّه تعالى سلط عليهم جالوت ومن معه من العمالقة ، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم «١» بين مصر وفلسطين ، وذلك لمّا عصوا وسفكوا الدماء ، فخرّب بيت المقدس ، وحرق التوراة ، وأخذ التابوت الذي كانوا ينتصرون به ، وسبى نساءهم وذراريهم «٢». روى أنه سبى من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين ، فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ ويسر لهم ملكا يسوسهم وهو طالوت ، جبنوا وتولوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وهم من عبر النهر مع طالوت ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ فيخزيهم ويفسد رأيهم. نعوذ باللّه من ذلك.

---

(١) ويسمى الآن «البحر المتوسط».

(٢) الذراري : جمع ذرية ، وهى النسل.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٤

الإشارة : ترى كثيرا من الناس يتمنون أن لو ظفروا بشيخ التربية ، ويقولون : لو وجدناه لجاهدنا أنفسنا أكثر من غيرنا ، فلما ظهر ، وعرف بالتربية ، تولى ونكص على عقبيه ، وتعلل بالإنكار وعدم الأهلية ، إلا قليلا ممن خصه اللّه بعنايته (و اللّه يختص برحمته من يشاء). (و اللّه ذو الفضل العظيم). سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

ثم عيّن لهم الملك الذي طلبوا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٧]

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ شمويل : إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ ملكا ، أي : عيّنه لكم لتقاتلوا معه ، وهو طالُوتَ وهو علم عبرانى كداود ، قالُوا تعنتا وتشغيبا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا أي من أين يستأهل التملك علينا وليس من دار الملك؟ لأن المملكة كانت فى أولاد يهوذا ، وطالوت من أولاد بنيامين ، والنبوة كانت فى أولاد لاوى. وقالوا : نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وراثة ومكنة ، لأن دار المملكة فينا. وأيضا هو فقير لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ يتقوى به على حرب عدوه ، وكان طالوت فقيرا راعيا أو سقّاء أو دباغا. قالَ لهم نبيهم – عليه السلام – : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ رغم أنفكم. قال وهب بن منبه : أوحى اللّه إلى نبيهم : إذا دخل عليك رجل فنش «١» الدهن الذي فى القرن «٢» فهو ملكهم ، فلما دخل طالوت نشّ الدهن.

وقال السدى : أرسل اللّه إليه عصا ، وقال له : إذا دخل عليك رجل على طول هذه العصا فهو ملكهم ، فكان ذلك طالوت فتبيّن أن اللّه تعالى اصطفاه للملك ، وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ فكان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة وقيل :

بالحروف وعلم السياسة. وزاده أيضا بسطة فى الْجِسْمِ ، فكان أطول بنى إسرائيل يبلغ إلى منكبه. وذلك ليكون أعظم خطرا فى القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، (و اللّه يؤتى ملكه من يشاء) لأنه ملك الملوك

---

(١) نشّ الماء ينش نشا ونشيشا ونشش : إذا صوت عند الغليان.

(٢) القرن : هو قرن الثور وغيره. وأراد به هنا : القنينة التي يكون فيها الدهن ، وكانوا يتخذونها من قرون البقر وغيرها.

(٢٧٤/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٥

يضع ملكه حيث شاء ، (و اللّه واسع) فيوسع على الفقير ويغنيه بلا سبب ، (عليم) بمن يليق بالملك بسبب وبلا سبب.

ثم ذكر آية أخرى تدل على ملكه ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٨]

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

قلت : قال الجوهري : أصل التابوت : تأبوة ، مثل ترقوة وهى فعلوة ، فلما سكّنت الواو ، انقلبت هاء التأنيث تاء ، فلغة قريش بالتاء ، ولغة الأنصار بالهاء.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ لمّا طلبوا منه الحجة على اصطفاه طالوت للملك : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ وهو صندوق من خشب الشمشار مموّه بالذهب ، طوله ثلاثة أذرع فى سعة ذراعين فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أي : فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يقدمونه أمامهم فى الحروب فلا يفرون ، وينصرون على عدوهم ، وقيل : كان فيه صور الأنبياء من آدم عليه السّلام إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وقيل : كان فيه طست من ذهب غسلت به قلوب الأنبياء – عليهم السلام – وهى السكينة – وفيه بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وهى رضاض «١» الألواح ، وعصا موسى ، وثيابه ، وعمامة هارون والآل : مقحم فيهما.

تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ قال وهب : لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بنى إسرائيل – فوضعوه فى كنيسة لهم فيها أصنام ، فكانت الأصنام تصبح منكسرة ، فحملوه إلى قرية قوم ، فأصاب أولئك القوم أوجاع ، فقالوا : ما هذا إلا لهذا التابوت ، فلنتركه إلى بنى إسرائيل ، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها وربطوها ببقرتين ، وأرسلوهما نحو بلاد بنى إسرائيل ، فبعث اللّه ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بنى إسرائيل ، وهم فى أمر طالوت فأيقنوا بالنصر.

وقيل غير ذلك.

---

(١) رضاض الشيء : كساره وفتاته.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٦

وقوله تعالى : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يحتمل أن يكون من كلام نبيهم ، أو من كلام الحق تعالى لنبينا – عليه الصلاة والسلام – .

الإشارة : من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتها ، ولذلك طالب الكفار الرسل بالمعجزات ، وطالب العوام الأولياء بالكرامات ، ويكفى فى الولي استقامة ظاهره ، وتحقيق اليقين فى باطنه.

قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان ونعت العيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة ، وترك الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل ...» إلخ كلامه رضي اللّه عنه.

وقال فى العوارف : وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معانى القدر أفضل ممن يكاشف بها ، إذا كاشفه اللّه تعالى بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر ، ومن أهلّ لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى من سحب أجزاء عالم الحكمة. فالكرامة إنما تظهر للقلوب المضطربة والنفوس المتزلزلة ، وأما من سكن قلبه باليقين واطمأنت نفسه بالعيان لم يحتج إلى دليل ولا برهان إذ الجبال الراسية لا تحتاج إلى دعامة ، واللّه تعالى أعلم.

وكل من طالب أهل الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة اسرائيلية ، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عيّن لهم من أكرمه اللّه بخصوصية الملك : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه). ورد الحق تعالى عليهم بقوله :

وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ. وما أظهر لهم كرامة التابوت إلا بعد امتناعهم من الجهاد المتعيّن عليهم رحمة بهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم كمّل قصة خروجهم إلى العدو ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٩]

فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٧

قلت : قال فى القاموس : غرف الماء يغرفه : أخذه بيده ، كاغترفه ، والغرفة للمرّة ، وبالكسر : هيئة الغرف وبالضم : اسم للمفعول ، كالغرافة ، لأنك ما لم تغرفه لا تسميه غرفة ، ثم قال : والغرفة ، بالضم : العلّيّة «١».

يقول الحق جل جلاله : ولما اتفقوا على ملك طالوت تجهز للخروج ، وقال : لا يخرج معه إلا الشباب النشيط الفارغ ليس وراءه علقة «٢» ، فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفا ، وقيل : ثلاثون ، فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا فى البيداء ، – وكان وقت الحرّ والقيظ – عطشوا ، وسألوا طالوت أن يجرى لهم نهرا ، فقال لهم بوحي ، أو بإلهام ، أو بأمر نبيهم : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ أي : مختبركم بِنَهَرٍ بسبب اقتراحكم ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ كرعا بلا واسطة فَلَيْسَ مِنِّي أي : من جيشى ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ أي : يذقه ، فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه ، فالاستثناء من الجملة الأولى.

فَشَرِبُوا مِنْهُ أي : كرعوا ، وسقطوا على وجوههم ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ثلاثمائة وأربعة عشر ، على عدد أهل بدر ، وقيل : ألفا. روى أن من اقتصر على الغرفة كفته لشربه ودوابه ، ومن لم يقتصر غلب عطشه ، واسودّت شفته ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عباس : أن القوم شربوا على قدر يقينهم : فالكفار شربوا شرب الهيم ، وشرب العاصي دون ذلك ، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفا ، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئا ، وأخذ بعضهم الغرفة ، فأما من شرب فاشتد به العطش وسقط ، وأما من ترك الماء فحسن حاله ، وكان أجلد ممن أخذ الغرفة. هـ.

وحكمة هذا الامتحان : ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون ، إذ لا يقع النصر إلّا بهم ، فلما جاوز النهر طالوت ومن بقي معه ممن لم يشرب قال بعضهم لبعض : لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ لكثرتهم وقلة عددنا ، قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أي : يتيقّنون أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ ويتوقعون ثواب الشهادة وهم الخلّص من أهل البصيرة : لا تفزعوا من كثرة عددهم كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وإرادته ومعونته ، و«كم» للتكثير ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصر والمعونة.

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كنهر طالوت ، لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده ، فمن أخذ منها قدر الضرورة كفته ، ونشط لعبادة مولاه ، ومن أخذ فوق الحاجة حبس فى سجنها ، وكان أسيرا فى يدها.

---

(١) العلية بضم العين وكسرها – هى الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها ، وجمعها (علالى)

(٢) أي : ما يتعلق به وجمعها علق. وذلك كتجارة ، وزوجة لم يدخل بها ، وغير ذلك.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٨

وقال بعضهم : طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شربه ازداد عطشه. هـ. وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من أشرب قلبه حب الدنيا التاط «١» منها بثلاث : بشغل لا ينفد عناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، وحرص لا يدرك مداه» وقال عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة لإبليس ، وأهلها حراث له. هـ. وقال على رضي اللّه عنه : الدنيا كالحية : ليّن مسها ، قاتل سمها ، فكن أحذر ما تكون منها ، أسرّ ما تكون بها فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

وقال عليه الصلاة والسلام : «من هوان الدنيا على اللّه أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها».

وقال سيدنا على – كرم اللّه وجهه – : أول الدنيا عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن. هـ. وقيل : الدنيا تقبل إقبال الطالب ، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال الملول ، وتفارق فراق العجول ، خيرها يسير ، وعمرها قصير ، ولذاتها فانية ، وتبعاتها باقية.

وقال عيسى عليه السّلام : تعملون للدنيا ، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل. هـ. وقيل : أوحى اللّه إلى الدنيا : من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه.

وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات «٢» :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم ، والأسى لك لازم
تسرّ بما يفنى ، وتفرح بالمنى كما سرّ باللذّات فى النوم حالم
وشغلك فيها سوف تكره غبّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وقال آخر «٣» :

هى الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها لمتّ ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وفات الشباب فلا خير فى العيش بعد الكبر

---

(١) التاط : أي التصق.

(٢) الأبيات لمسعر بن كدام ، كما فى حلية الأولياء ٧/ ٢٢٠

(٣) وهو أبو العتاهية.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٧٩

ثم ذكر الحق تعالى قصة جالوت وملك داود عليه السّلام ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٥٠ الى ٢٥٢]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

يقول الحق جل جلاله : ولما برز طالوت بمن معه لِجالُوتَ ، أي : ظهر فى البراز ، ودنا بعضهم من بعض ، تضرعوا إلى اللّه واستنصروه ، وقالوا : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي : اصببه علينا صبّا ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا عند اللقاء لئلا نفرّ ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ. وفى دعائهم ترتيب بليغ سألوا أولا إفراغ الصبر فى قلوبهم الذي هو ملاك الأمر ، ثم ثبات القدم فى مداحض الحرب المسبب عنه ، ثم النصر على العدو المرتب عليها غالبا.

فهزم اللّه عدوّهم وأجاب دعاءهم بإذنه وقدرته ، وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ. وقصة قتله : أن أصحاب طالوت كان فيهم بنو إيش ، وهو أبو داود عليه السّلام ستة أو سبعة ، وكان داود صغيرا يرعى غنما ، فلما حضرت الحرب قال فى نفسه : لأذهبن لرؤية هذه الحرب ، فمرّ فى طريقه ، بحجر فناداه : يا داود خذنى ، فبى تقتل جالوت ، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها ، وجعلها فى مخلاته وسار ، فلما حضر البأس خرج جالوت يطلب البراز ، وكاع «١» الناس عنه ، أي : تأخروا خوفا ، حتى قال طالوت : من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه ابنتي ، وأحكّمه فى مالى ، فجاء داود ، فقال له طالوت : اركب فرسى وخذ سلاحى ، ففعل ، وخرج فى أحسن شكله ، فلما مشى قليلا رجع ، فقال الناس : جبن الفتى ، فقال داود : إن اللّه سبحانه لم يقتله ولم يعنى عليه ، لم ينفعنى هذا الفرس ولا هذا السلاح ، ولكنى أحب أن أقاتله

---

(١) كاع فلان : جبن وضعف.

على عادتى. وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع ، فنزل ، وأخذ مخلاته فتقلدها ، وأخذ مقلاعه فخرج إلى جالوت ، وهو شاك «١» فى السلاح ، فقال جالوت : أنت يا فتى تخرج إلىّ! قال ، نعم ، قال : هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال :

نعم ، وأنت أهون ، قال : لأطعمن لحمك اليوم الطير والسباع ، ثم تدانيا فأدار داود فأخذ مقلاعه وأدخل يده إلى الحجارة ، فروى أنها التأمت ، وصارت حجرا واحدا ، فأخذه ووضعه فى المقلاع ، وسمّى اللّه ، وأداره ، ورماه ، فأصاب رأس جالوت فقتله ، وجز رأسه ، وجعله فى مخلاته ، واختلط الناس ، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة.

ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت ، فقال : حتى تقتل مائتين من هؤلاء الجراجمة «٢» الذين يؤذون الناس وتجيئنى بسلبهم ، فقتل داود منهم مائتين ، وجاء بذلك ، فدفع إليه امرأته وتخلى له عن الملك «٣». ولما تمكن داود – عليه السّلام – من الملك ، أجلى من بقي من قوم جالوت إلى المغرب ، فمن بقيتهم البرابرة من الشلوح وسائر الأرياف.

فآتى اللّه داود الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وهى النبوة ، وقيل : صنعة الدروع ومنطق الطير وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ من أنواع العلوم والمعارف والأسرار ، وقد دفع اللّه بأس الكافرين ورد كيدهم فى نحرهم ، وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أي : لو لا أن اللّه يدفع بعض الناس ببعض ، فينصر المسلمين على الكافرين ، ويكف فسادهم ، لغلبوا وأفسدوا فى الأرض. أو : لو لا أن اللّه نصب السلطان ، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم ، ويردوا القوى عن الضعيف ، لتواثب الخلق بعضهم على بعض ، وأكل القوى الضعيف فيفسد النظام. أو : لو لا أن اللّه يدفع بالشهود عن الناس فى حفظ الأموال والنفوس والدماء والأعراض ، لوقع الفساد فى الأرض.

أو : لو لا أن اللّه يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان ، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان.

وفى الخبر عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه يدفع بالمصلّي من أمّتى عمّن لا يصلى ، وبمن يزكّى عمّن لا يزكّى ، وبمن يصوم ،

---

(١) يقال : رجل شاكى السلاح : تام التسلح. [.....]

(٢) الجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة. ويقال : الجراجمة نبط الشام.

(٣) هذا القصصكله لين الأسانيد – كما قال ابن عطية. وقال الدكتور أبو شهبة : نحن فى غنية عن هذا القصص بما فى أيدينا من القرآن والسنة ، ولسنا فى حاجة إلى شىء من هذا فى فهم القرآن وتدبره. انظر الإسرائيليات والموضوعات للدكتور أبى شهبة – رحمه الله.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨١

عمّن لا يصوم ، وبمن يحجّ ، عمّن لا يحجّ ، وبمن يجاهد عمّن لا يجاهد. ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم اللّه طرفة عين».

وفى حديث آخر : «لو لا عباد للّه ركّع ، وصبية رضّع ، لصبّ عليكم العذاب صبا». وروى جابر رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه ليصلح بصلاح الرجل – ولده وولد ولده ، وأهل دويرته ، ودويرات حوله ، ولا يزالون فى حفظ اللّه مادام فيهم». هـ. فهذا من فضل اللّه على عباده يصلح طالحهم بصالحهم ، ويشفع خيارهم فى شرارهم ، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك ، وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ.

تِلْكَ يا محمد ، آياتُ اللَّهِ والإشارة إلى ما قصّ من حديث الألوف ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهزام الجبابرة أصحاب جالوت ، نَتْلُوها أي : نقصها عليكم بِالْحَقِّ أي : بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع ، فلا يشك أنه من عند الخبير العليم ، إلا من طبع اللّه على قلبه. نعوذ باللّه من ذلك.

الإشارة : «من علامة النجح فى النهايات الرجوع إلى اللّه فى البدايات» ، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النفس والهوى والشيطان وسائر القطاع ، واستنصر باللّه وتبرأ من حوله وقوته ، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه ، وكان سببا فى نجح نهايته ، فيملكه باللّه الوجود بأسره ، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الداراني : (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يؤدّى إليها عالم علما). وفى الخبر : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم». وكان حينئذ رحمة للعباد ، يدفع اللّه بوجوده العذاب عمن يستحقه من عباده.

وفى الحديث القدسي : «يقول اللّه عز وجل : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي جعلت همته ولذّته فى ذكرى ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم». حقّقنا اللّه بمحبتهم وجعلنا منهم .. آمين.

ولمّا ذكر فى هذه السورة جملة من الأنبياء والرسل ، وشهد لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم أنه من المرسلين ذكر تفضيل بعضهم على بعض فى الجملة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (٢٥٣)

قلت : (تلك) : مبتدأ ، و(الرسل) : نعت ، أو بدل منه ، أو بيان ، و(فضلنا) ، خبر ، أو (الرسل) خبر ، و(فضلنا) : خبر ثان ، والإشارة إلى الجماعة المذكور قصصها فى السورة.

يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الرُّسُلُ الذين قصصناهم عليك ، وذكرت لك أنك منهم ، فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ بخصائص ومناقب لم توجد فى غيره. لكن هذا التفضيل إنما يكون فى الجملة من غير تعيين المفضول ، لأنه تنقيص فى حقه وهو ممنوع. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «لا تخيّروا بين الأنبياء» ، «ولا تفضلونى على يونس بن متى» فإن معناه النهى عن تعيين المفضول ، لأنه غيبة وتنقيص ، وقد صرح صلّى اللّه عليه وسلم بفضله على جميع الأنبياء بقوله : «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر». لكن لا يعيّن أحدا من الأنبياء بالمفضولية لئلا يؤدى إلى نقصه ، فلا تعارض بين الحديثين.

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وهو موسى عليه السّلام فى جبل الطور ، وسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم حين كان قاب قوسين أو أدنى ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وهو نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم فإنه خصّ بالدعوة العامة ، والحجج المتكاثرة ، والمعجزات المستمرة ، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر ، والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه ، كأنه العلم المشهور المتعين لهذا الوصف المستغنى عن التعيين. وقيل : إبراهيم ، خصه بالخلة التي هى أعلى المراتب.

قلت : بل المحبة أعلى منها «١» ، وقيل : إدريس لقوله : وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ، وقيل : أولو العزم من الرسل ، قاله البيضاوي.

وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ أي : الآيات الواضحات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، (و أيدناه بروح القدس) ، أي : جبريل عليه السّلام كان معه أينما سار ، وخصّه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى فى تحقيره وتعظيمه ، فردّهم إلى الصواب باعتقاد نبوته دون ربوبيته.

---

(١) سواء كانت المحبة أعلى أم الخلة – فكلتاهما حاصلة لنبينا وسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وانظر في مسألة : أيهما أعلى : المحبة أم الخلة؟

الشّفا للقاضى عياض ١/ ٢١٣.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٣

الإشارة : كما فضّل اللّه الرسل بعضهم على بعض ، كذلك فضل الأولياء بعضهم على بعض ، وإنما يقع التفضيل بكمال اليقين ، والتغلغل فى علم التوحيد الخاص ، ذوقا وكشفا ، والترقي فى المعارف والأسرار. وذلك بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال ، والتفرغ التام ، والزهد الكامل فى النفس والفلس والجنس ، فمنهم من تحصل له المشاهدة وتصحبها المكالمة ، ومنهم من تحصل له المشاهدة دون المكالمة ، ومنهم من تحصل له الكرامات الواضحة ، ومنهم من لا يرى شيئا من ذلك استغناء عنها بكرامة المعرفة. وما قيل فى الرسل من عدم تعيين المفضول ، مثله يقال فى حق الأولياء ، وإلا وقع فى الغيبة الشنيعة فإن لحوم الأولياء سموم ، فليعتقد الكمال فى الجميع ، ولا يصرح بتعيين المفضول كما تقدم. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى أحوال الرسل ، وتفاوتهم فى العناية ، ذكر أحوال أممهم وتفاوتهم فى الهداية ، فقال :

وَلَوْ شاءَ ... قلت : إذا وقع فعل المشيئة بعد (لو) فالغالب حذف مفعوله ، كقوله : وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ، أي : لو شئنا رفعه لرفعناه بها ، وكقوله : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ ... ، أي : لو شاء هدايتهم ما اقتتلوا ، وغير ذلك.

يقول الحق جل جلاله : ولما بعثت الرسل ، وفضّلت بعضهم على بعض ، اختلفت أممهم من بعدهم فاقتتلوا ، وكل ذلك بإرادتى ومشيئتى ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ هداية أممهم مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ المعجزات الواضحات فى تحقيق رسالتهم وصحة نبوتهم ، وَلكِنِ اخْتَلَفُوا بغيا وحسدا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بمخالفتهم ، فكان من الأشقياء ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ جمعهم على الهدى مَا اقْتَتَلُوا ، لكن حكمته اقتضت وجود الاختلاف ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم والحليم ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

وفى الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد اللّه خيرها وشرها ، وأن أفعال العباد كلها بقدرته تعالى ، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. وهذا يردّ قول المعتزلة القائلين بخلق العبد أفعاله ، فما أبعدهم عن اللّه. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة : اختلاف الناس على الأولياء سنة ماضية وحكمة أزلية ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، فمن رأيته من الأولياء اتفق الناس على تعظيمه فى حياته فهو ناقص أو جاهل باللّه إذ

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٤

الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، وهذا هو الغالب ، والنادر لا حكم له ، فلو كان الاتفاق محمودا لكان على الأنبياء أولى ، فلما لم يقع للأنبياء والرسل ، لم يقع للأولياء إذ هم على قدمهم ، وقائمون بالوراثة الكاملة عنهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على الصدقة فى سبيل اللّه لأنها برهان الإيمان وعنوان الهداية ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ واجبا أو تطوعا فى وجوه الخير ، وخصوصا فى الجهاد الذي نحن بصدد الحض عليه ، وقدموا لأنفسكم ما تجدونه بعد موتكم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ الحساب ، واقتضاء الثواب ، يوم ليس فيه بَيْعٌ ولا شراء ، فيكتسب ما يقع به الفداء ، وليس فيه خُلَّةٌ تنفع إلا خلة الأتقياء ، وَلا شَفاعَةٌ ترجى إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا فأنفقوا مما خولناكم فى سبيل اللّه ، وجاهدوا الكافرين أعداء اللّه ، فإن الكافرين هُمُ الظَّالِمُونَ حيث وضعوا عبادتهم فى غير محلها ، ونسبوا الربوبية لغير مستحقيها ، إذ لا يستحقها إلا الحي القيوم ، الذي أشار إليه الحق جل جلاله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٥]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

قلت : (اللّه) : مبتدا ، وجملة (لا إله إلا هو) : خبره ، والضمير المنفصل بدل من المستتر فى الخبر ، و(الحي) : إما خبر ثان ، أو لمبتدأ مضمر ، أو بدل من (اللّه) ، و(قيوم) فيعول ، مبالغة من القيام ، ومعناه : القائم بنفسه المستغنى عن غيره.



البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٥

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره ، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم الْحَيُّ أي : الدائم بلا أول ، الباقي بلا زوال الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ، الْقَيُّومُ أي :

دائم القيام بتدبير خلقه فى إيصال المنافع ودفع المضار ، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء ، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ السنة :

ما يتقدم النوم من الفتور ، والنوم : حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة ، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسا.

وتقديم السنّة عليه ، على ترتيب الوجود ، كقوله تعالى : وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً ، وجمع بينهما لأنه لو اقتصر على نفى السنّة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد ، ولو اقتصر على نفى النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية ، وتأكيد كونه حيا قيوما ، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف «١» الحياة ، قاصرا فى الحفظ والتدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفى الجمل التي بعده لأنها كلها مقررة له ، أي : للحى للقيوم.

وقد ورد أنه اسم اللّه الأعظم ، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة – رضي اللّه عنها : «ما منعك أن تسمعى ما أوصيك به تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حى يا قيّوم ، برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كلّه ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين». رواه النسائي. وأخرج مسلم عن أبى موسى رضي اللّه عنه قال : «قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بخمس كلمات قال : إنّ اللّه عزّ وجلّ لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل اللّيل قبل عمل النّهار وعمل النّهار قبل عمل اللّيل ، حجابه النّور – وفى رواية. النّار – لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ هذا تقرير لقيوميته تعالى ، واحتجاج على تفرده فى الألوهية.

والمراد بما فيهما : ما هو أعمّ من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما ، المتمكنة فيهما ، من العقلاء وغيرهم ، فهو أبلغ من (له السموات والأرض وما فيهن) ، يعنى : أن اللّه يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع ، وعبر ب – (ما) تغليبا للغالب.

---

(١) أف الطعام أوفا وآفة : فسد ، والبلاد : أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٦

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ هذا بيان لكبرياء شأنه ، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة ، فضلا عن أن يعاوقه عنادا أو مناصبة. والاستفهام إنكارى ، أي : لا أحد يشفع عنده لمن أراد تعالى عقوبته ، إلا بإذنه ، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم ، فأخبر تعالى أنه لا شفاعة عنده إلا بإذنه ، يريد بذلك شفاعة النبي صلّى اللّه عليه وسلم وبعض الأنبياء

والأولياء والملائكة.

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ أي : ما قبلهم وما بعدهم ، أو بالعكس ، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضي وقيل : يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ من الدنيا وَما خَلْفَهُمْ من الآخرة ، وقيل : عكسه ، لأنهم يقدمون ويخلّفون الدنيا وراءهم ، وقيل : يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر ، وما خلفهم وما هم فاعلوه ، أو عكسه.

والمراد أنه سبحانه أحاط بالأشياء كلها ، فلا يخفى عليه شيء وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ أي : لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ، وعطفه على ما قبله لأن مجموعه يدل على تفرده تعالى بالعلم الذاتي التام ، الدال على وحدانيته تعالى فى ذاته وصفاته.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ يقال : فلان يسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به. ويقال :

وسع الشيء الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل فى جانبه ، وهذا المعنى هو اللائق هنا. وأصل الكرسي فى اللغة : من تركّب الشيء بعضه على بعض ، ومنه الكراسة ، لتركب أوراقها بعضها على بعض ، وفى العرف : اسم لما يقعد عليه ، سمّى به لتركب خشباته. واختلف فيه فقيل : العرش ، وقيل : غيره.

والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش ، فوق السموات السبع دون العرش. يقال : إن السموات والأرض فى جنب الكرسي كحلقة فى فلاة. والكرسي فى جانب العرش كحلقة فى فلاة. وعن ابن عباس : (أن السموات فى الكرسي كدراهم سبعة فى ترس) وقيل : كرسيه : علمه.

قال البيضاوي : هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد ، كقوله وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ولا كرسى فى الحقيقة ولا قاعد «١». وقيل : كرسيه مجاز عن

---

(١) هذا الذي اختاره جم من الخلف ، فرارا من توهم التجسيم ، والحق : أن الكرسي ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. ومذهب سادتنا من السلف الصالح هو : جعل ذلك من الأمور التي لا يحيط المرء بها علما ، مع تفويض العلم فيها إلى الله تعالى ، مع اعتقاد التنزيه والتقديس له تعالى شأنه. وهذا هو الأسلم

.

علمه أو ملكه ، مأخوذ من كرسى العلم والملك ، وقيل : جسم بين يدى العرش محيط بالسماوات السبع لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسي إلا كحلقة فى فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج. هـ. قلت : وقد اعترض السيوطي فى حاشيته عليه «١». فاللّه تعالى أعلم.

وَلا يَؤُدُهُ أي : لا يثقله ولا يشقّ عليه حِفْظُهُما أي : حفظ السموات والأرض. وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مستتبع لحفظه ، وَهُوَ الْعَلِيُّ أي : المتعالي عن الأشباه والأنداد ، الْعَظِيمُ أي : عظيم الشأن ، جليل القدر ، الذي يستحقر كلّ شيء دون عظمته.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية ، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد فى الألوهية ، متصف بالحياة الذاتية ، واجب الوجود لذاته ، موجد لغيره إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرّأ عن التغير والفتور ، لا يناسب الأشباح ، ولا يعتريه ما يعترى الأرواح ، مالك الملك والملكوت ، مبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد ، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له. عالم بالأشياء كلها : جليّها وخفيّها ، كلّيّها وجزئيّها.

واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه ، لا يشقّ عليه شاق ، ولا يشغله شأن عن شأن ، متعال عن تناول الأوهام ، عظيم لا تحيط به الأفهام ، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم :

«أعظم آية فى القرآن آية الكرسىّ». وقال عليه الصلاة والسلام : «من قرأ آية الكرسىّ دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلا الموت – وفى رواية – كان الذي يتولىّ قبض روحه ذو الجلال والإكرام – ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمن على نفسه وجاره وجار جاره ، والأبيات حوله».

وقال عليه الصلاة والسلام : «ما قرئت هذه الآية فى بيت إلا هجرته الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخله ساحر ولا ساحرة أربعين يوما ، يا علىّ علّمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها». قاله البيضاوي وأبو السعود ، وتكلم السيوطي فى بعض هذه الأحاديث. والفضائل يعمل فيها بالضعيف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الخصوصية – (أنفقوا مما رزقناكم) من سعة العلوم ومخازن الفهوم ، من قبل أن يأتى يوم اللقاء ، يوم تسقط فيه المعاملات وتغيب تلك الإشارات ، لا ينفع فيه إلا الدخول من باب الكرم ،

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ، والمسماة نواهد الأبكار وشوارد الأفكار.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٨

فيلقى اللّه باللّه دون شيء سواه ، والجاحدون لهذا هم الظالمون لأنفسهم ، حيث اعتمدوا على أعمالهم فلقوا اللّه بالصنم الأعظم. والحيّ القيوم الكبير المتعال غنى عن الانتفاع بالأعمال. وباللّه التوفيق.

ومن عرف أنه الحي الذي لا يموت توكل عليه. قال تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ. والتعلق به : استمداد حياة الروح بالعلم والمحبة الكاملة. ومن عرف أنه الحي القيوم وثق به ، ونسى ذكر كل شيء بذكره ، ولم يشاهد غيره بمشاهدة قيوميته. والتعلق به استمداد معرفة قيوميته حتى يستريح من نكد التدبير ، والتخلق به بأن تكون قائما على ما كلّفت به من أهل وولد ونفس ومال ، وكلّ من تعلق بك من النساء والرجال.

ولمّا وصف الحيّ تعالى نفسه بأوصاف الكمال من الكبرياء والعظمة والجلال ، وكانت شواهد ذلك ظاهرة فى خلقه حتى تبيّن الحق من الباطل ، بيّن ذلك بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٦]

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

قلت : (الرشد) : مصدر رشد ، بالكسر والضم ، رشدا ورشادا ، و(الغى) : مصدر غوى ، إذا ضلّ فى معتقده ، و(الطاغوت) : فعلوت من الطغيان ، وأصله : طغيوت ، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا.

وهو كل ما عبد من دون اللّه راضيا بذلك ، و(العروة) : ما تستمسك به اليد عند خوف الزل كالحبل ونحوه ، ووثوقها : متانتها ، وانفصامها أن تنفك عن موضعها ، وأصل الفصم فى اللغة : أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يبين ، فإذا بان فهو القصم – بالقاف – وهو هنا استعارة للدّين الصحيح.

يقول الحق جلّ جلاله فى شأن رجل من الأنصار ، تنصّر ولداه قبل البعثة فلما جاء الإسلام قدما إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا ، فلزمهما أبو هما وقال : واللّه لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه : لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ ، فهو خبر بمعنى النهى ، أي : لا تكرهوا أحدا على الدخول فى الدين.

وهو خاص بأهل الكتاب.

قال البيضاوي : إذ الإكراه فى الحقيقة هو : إلزام الغير فعلا لا يرى فيه خيرا ، ولكن قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ أي تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى

السعادة الأبدية ، والكفر غيّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. هـ.

(٢٨٨/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٨٩

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ أي : يبعد عنها ويجحد ربوبيتها وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ أي : يصدق بوحدانيته ، ويقر برسله ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى أي : فقد تمسك بالدين المتين ، لا انقطاع له أبدا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ بالأقوال ، عَلِيمٌ بالنيات ، فإنّ الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان ، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال فى الحكم : «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». وقال أحمد بن حضرويه : الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعي قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق أسير واضحة لمن سبقت له العناية ، باقية إلى يوم القيامة ، وكل ما سوى اللّه طاغوت ، فمن اعرض عن السّوى ، وعلق قلبه بمحبة المولى ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، التي لا انفصام لها على طول المدى. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق تعالى حال أهل العناية من أهل الشقاوة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٧]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥٧)

قلت : الولي : هو المحب الذي يتولى أمور محبوبه ، أو الناصر الذي ينصر محبوبه ، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه. وجملة (يخرجهم) : حال من الضمير المستتر فى الخبر ، أو من الموصول أو منهما ، أو خبر ثان.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا أي : محبهم ومتولى أمورهم ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ ظلمات الكفر والجهل ، ومتابعة الهوى وقبول الوسواس ، والشبه المشكلة فى التوحيد – إلى نور الإيمان واليقين ، وصحة التوحيد ، ومتابعة الداعي إلى اللّه ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ أي : أحباؤهم الطَّاغُوتُ أي : الشياطين ، أو المضلّات من الهوى والشيطان وغيرهما ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ الذي منحوه بالفطرة الأصلية ، أو يصدونهم من الدخول فى الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل ، والتقليد الرديء واتباع الهوى ، أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ بسبب نيّاتهم البقاء على الكفر إلى الممات ، ولم يذكر

فى جانب المؤمنين دخول الجنة لتكون عبادتهم عبودية ، لا خوفا ولا طمعا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : (اللّه ولى الذين آمنوا) حيث تولاهم بسابق العناية ، وكلأهم بعين الرعاية ، يخرجهم أولا من طلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ثم من ظلمات الحس ورؤية الأكوان إلى نور المعاني بحصول الشهود والعيان ، فافن



---


عن الإحساس تر عبرا. «الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحق فيه». أو تقول : الكون كله ظلمة لأهل الحجاب ، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور ، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه ، «فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه ، أو قبله ، أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». والذين كفروا – وهم الذين سبق لهم الشقاء ، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء – أولياؤهم الطاغوت ، وهم القواطع : من الهوى والشيطان والدنيا والناس ، (يخرجونهم من النور الى الظلمات) أي : يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة ، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة ، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية ، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسأل اللّه الحفظ والعافية فى الدنيا والآخرة.
ثم بيّن الحق تعالى حال من سبق له الشقاء ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٨]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)
قلت : (أن آتاه) : على حذف لام العلة ، و(إذ قال) : ظرف أ– (حاجّ) ، أو بدل من (آتاه اللّه).
يقول الحق جل جلاله متعجبا من جهالة النمرود ، والمراد تعجيب السامع : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، إِلَى جهالة الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ أي : خاصمه فِي رَبِّهِ لأجل أَنْ أعطاه اللَّهُ الْمُلْكَ ، أي : حمله على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسّر إبراهيم الأصنام ، سجنه أياما ، وأخرجه من السجن ، وقال له : من ربك الذي تعبد؟ قالَ له إِبْراهِيمَ عليه السّلام : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، أي : يخلق الأرواح فى الأجسام ، ويخرجها عند انقضاء آجالها ، (قال) نمرود : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، فدعا برجلين فقتل أحدهما ، وعفا عن الآخر ، فلما رأى ابراهيم عليه السّلام غلطه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى ، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها ، فقال له : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها أنت مِنَ الْمَغْرِبِ لأنك تدّعى

الربوبية ، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شيء ، ولا يعجزها شيء ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أي : غلب وصار مبهوتا ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى قبول الهداية ، أو إلى طريق النجاة ، أو إلى محجة الاحتجاج.

(٢٩٠/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩١

الإشارة : قال بعض الحكماء : للنفس سر ، ظهر على فرعون والنمرود ، حتى صرحا بدعوى الربوبية.

قلت :

وهذا السر هو ثابت للروح فى أصل نشأتها لأنها جاءت من عالم العز والكبرياء. انظر قوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وقال أيضا : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي أي : سر من أسراره ، فلما ركبت فى هذا القالب الذي هو قالب العبودية – طلبت الرجوع إلى أصلها. فجعل لها الحق جل جلاله بابا تدخل منه فترجع إلى أصلها وهو الذل والخضوع والانكسار والافتقار ، فمن دخل من هذا الباب ، واتصل بمن يعرّفه ربه ، رجعت روحه إلى ذلك الأصل ، وأدركت ذلك السر ، فمنها من تتسع لذلك السر وتطيقه ، ومنها من تضيق عن حمله وتبوح به ، فتقتلها الشريعة ، كالحلاج وأمثاله ، ومن طلب الرجوع إلى ذلك الأصل من غير بابه ، ورام إدراكه بالعز والتكبر ، طرد وأبعد ، وهو الذي صدر من النمرود وفرعون وغيرهما ممن ادعى الربوبية جهلا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أدركته العناية ، وفى قصته برهان على إحياء الموتى الذي احتج به إبراهيم – عليه السّلام – فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قلت : (أو) : عاطفة ، و(كالذى) : معطوف على الموصول المجرور بإلى ، أي : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم فى ربه ، وإلى مثل الذي مر على قرية. وإنما أدخل حرف التشبيه لأن المنكر للإحياء كثير ، والجاهل بكيفيته أكثر ، بخلاف مدعى الربوبية فإنه قليل. وقيل : الكاف مزيدة ، والتقدير : ألم تر إلى الذي حاج وإلى الذي مرّ ، (أنّى) :

ظرف ليحيى ، بمعنى : متى ، أو حال بمعنى كيف ، و(يتسنه) بمعنى يتغير ، وأصله : يتسنن ، فأبدلت

النون الثالثة حرف علة. قال فى الكافية :
وثالث الأمثال أبدلنه يا نحو (تظنّى خالد تظنّيا)

(٢٩١/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٢
فصار تسنّى ثم حذفت للجازم ، وأتى بهاء السّكت ، وقفا ووصلا ، كالعوض من المحذوف ، وقيل : من السنّه ، وهو التغير ، فالهاء أصلية ، و(لنجعلك) : معطوف على محذوف ، أي : لتعتبر ولنجعلك آية للناس.
يقول الحق جل جلاله : ألم تر يا محمد أيضا إلى مثل الذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ، وهو عزيز ، حبر بنى إسرائيل. – وقيل : غيره – مرّ على بيت المقدس حين خربها بختنصر وَهِيَ خاوِيَةٌ ساقطة حيطانها عَلى عُرُوشِها أي : سقفها ، وذلك بعد مائة سنة حتى سقطت العروش ، ثم سقطت الحيطان عليها ، فلما رآها خالية ، وعظام الموتى فيها بالية ، قالَ فى نفسه : أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها أي : متى يقع هذا. اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الإحياء ، واستعظاما لقدرة المحيي ، إن كان القائل عزيرا ، أو استبعادا إن كان كافرا ، فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ أي : ألبثه ميتا مائة عام ، ثُمَّ بَعَثَهُ بالإحياء ، فقال له على لسان الملك ، أو بلا واسطة : كَمْ لَبِثْتَ ميتا؟ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، وذلك أنه مات ضحى وبعث بعد مائة عام قبل غروب الشمس ، فقال قبل النظر إلى الشمس (يوما) ، ثم التفت فرأى بقية منها ، فقال : أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ على الإضراب ، قال له الحق جل جلاله : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ.
وذلك أن عزيرا ذهب ليخترف «١» لأهله فجعل على حماره سلة عنب وجرّة عصير. فلما مرّ بتلك القرية ربط حماره ، وجعل يتعجب من خرابها وخلائها بعد عمارتها ، فقال فى نفسه ما قال ، فلطف اللّه به ، وأراه كيفية الأحياء عيانا ، فأماته مائة عام ، حتى بليت عظام حماره وبقي العصير والعنب كأنه حين جنى وعصر فقال له جل جلاله : فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وهو العنب ، وَشَرابِكَ وهو العصير ، لَمْ يَتَسَنَّهْ ، أي : لم يتغير بمرور الزمان وطول المدة ، وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ كيف تفرقت أوصاله ، وبليت عظامه ، فعلنا ذلك بك لتشاهد قدرتنا ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ بعدك ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ أي : عظام حمارك ، كَيْفَ نُنْشِزُها ، أي : نحييها ، من نشر اللّه الموتى : أحياها. أو : كَيْفَ نُنْشِزُها بالزاي – أي : نرفع بعضها ، ونركبه عليه ، ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً.
فنظر إلى العظام ، فقام كلّ عظم إلى موضعه ، ثم كسى لحما وجلدا ، وجعل ينهق ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ما كان استغربه وأشكل عليه قالَ أَعْلَمُ علم اليقين أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أو فلما تبين له الحق ، وهو قدرته تعالى على كل شىء ، قال لنفسه : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(١) خرف الرجل يخرف : أخذ من طرف الفواكه ، والمعنى : ذهب ليجتنى الثمر والفواكه.

(٢٩٢/١)

---



روى أنه أتى قومه على حماره ، وقال أنا عزير ، فكذبوه ، فقرأ التوراة من حفظه ، ولم يحفظها أحد قبله ، فعرفوه بذلك ، وقالوا : هو ابن اللّه – تعالى عن قولهم – وقيل : لما رجع إلى منزله – وكان شابا – وجد أولاده شيوخا ، فإذا حدّثهم بحديث قالوا : حديث مائة سنة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى هذه الآية والتي بعدها ، الإشارة إلى الأمر بتربية اليقين والترقي فيه من علم اليقين إلى عين اليقين ، فإن الروح ما دامت محجوبة بالوقوف مع الأسباب والعوائد ، وبرؤية الحس والوقوف مع الوسائط ، لم تخل من طوارق الشكوك والخواطر ، فإذا انقطعت إلى ربها ، وخرقت عوائد نفسها ، كشف لها الحق تعالى عن أستار غيبه ، وأطلعها على مكنونات سره ، وكشف لها عن أسرار الملكوت ، وأراها سنا الجبروت ، فنظرت إلى قدرة الحي الذي لا يموت ، وتمتعت بشهود الذات وأنوار الصفات ، فى هذه الحياة وبعد الممات ، فحينئذ ينقطع عنها الشكوك والأوهام ، وتتطهر من طوارق الخواطر ، وتزول عنها الأمراض والأسقام.

قال فى الحكم : «كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فانظر إلى عزيز ... ما أراه الحق قدرته عيانا حتى خرق له عوائده فأماته ثم أحياه ، فكذلك أنت أيها المريد لا تطمع أن تخرق لك العوائد ، تشاهد قدرة الحق أو ذاته عيانا ، حتى تموت عن حظوظك وهواك ، ثم تحيا روحك وسرك ، فحينئذ تشاهد أسرار ربك ، ويكشف الأستار عن عين قلبك. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر الحق تعالى قصة خليله عليه السّلام فى طلبه رؤية عين القدرة فى إحياء الموتى ، ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٠]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قلت : رأى : البصرية ، إنما تتعدى إلى مفعول واحد ، فإذا أدخلت عليها الهمزة تعدت إلى مفعولين. وعلقها هنا عن الثاني الاستفهام ، (و صرهن) أي : أملهنّ واضممهن إليك. وفيه لغتان : صار يصير

ويصور ، ولذلك قرئ بكسر الصاد وضمها ، و(سعيا) : حال ، أي : ساعيات.
يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد ، أو أيها السامع ، حين قالَ إِبْراهِيمُ عليه السّلام : يا رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى أي : أبصرنى كيفية إحياء الموتى ، حتى أرى ذلك عيانا ، أراد عليه السّلام أن ينتقل من علم

(٢٩٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٤
اليقين إلى عين اليقين ، وقيل : لما قال للنمرود : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قال له : هل عاينت ذلك؟ فلم يقدر أن يقول : نعم. وانتقل إلى حجة أخرى ، ثم سأل ربه أن يريه ذلك ليطمئن قلبه على الجواب ، إن سئل مرة أخرى ، فقال له الحق جل جلاله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ بأنى قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ وإنما قال له ذلك ، مع علمه بتحقيق إيمانه ليجيبه بما أجاب فيعلم السامعون غرضه ، قالَ إبراهيم عليه السّلام : بَلى آمنت أنك على كل شيء قدير ، وَلكِنْ سألتك لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي إذ ليس الخبر كالعيان ، وليس علم اليقين كعين اليقين ، أراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحى والبرهان.
قال له الحق جل جلاله : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ طاووسا وديكا وغرابا وحمامة ، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمام ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ أي : اضممهن إليك لتتأملها وتعرف أشكالها ، لئلا يلتبس عليك بعد الإحياء أشكالها ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً أي : ثم جزّئهن ، وفرق أجزاءهن على الجبال التي تحضرك. قيل : كانت أربعة وقيل : سبعة ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ وقل لهن : تعالين بإذن اللّه ، يَأْتِينَكَ سَعْياً أي : ساعيات مسرعات ، روى أنه أمر أن يذبحها وينتف ريشها ، ويقطعها ويخلط بعضها ببعض ، ويوزعها على الجبال ، ويمسك رءوسها عنده ، ثم يناديها ، ففعل ذلك ، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر ويلتئم بصاحبه حتى صارت جثثا ، ثم أقبل إليه فأعطى كل طير رأسه فطار فى الهواء. فسبحان من لا يعجزه شيء ، ولا يغيب عن علمه شيء ، ثم نبه إلى التفكر فى عجائب قدرته وحكمته فقال : وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء ، حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة فيما يفعل ويذر.
الإشارة : من أراد أن تحيا روحه الحياة الأبدية ، وينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين ، فلا بد أن تموت نفسه أربع موتات :
الأولى : تموت عن حب الشهوات والزخارف الدنيوية ، التي هى صفة الطاووس.
الثانية : عن الصولة والقوى النفسانية ، التي هى صفة الديك.
الثالثة : عن خسة النفس والدناءة وبعد الأمل ، التي هى صفة الغراب.
الرابعة : عن الترفع والمسارعة إلى الهوى المتصف بها الحمام.

فإذا ذبح نفسه عن هذه الخصال حييت روحه ، وتهذبت نفسه ، فصارت طوع يده ، كلما دعاها إلى طاعة أتت إليها مسرعة ساعية.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلى بقوله فى حزبه الكبير : (و اجعل لنا ظهيرا من عقولنا ومهيمنا من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا).

(٢٩٤/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٥

ولما كانت حياة الروح متوقفة على أمرين : بذل النفوس ، ودفع الفلوس وقدم الإشارة إلى الأول بقوله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أشار إلى الثاني بقوله :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦١ الى ٢٦٢]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

قلت : (مثل الذين) : مبتدأ ، و(كمثل) : خبر ، ولا بد من حذف مضاف ، إما من المبتدأ أو الخبر ، أي : مثل نفقة الذين ينفقون كمثل حبة ، أو مثل الذين ينفقون كمثل باذر حبة ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله فى التحريض على النفقة فى سبيل اللّه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : يتصدقون بها فى سبيل اللّه ، كالجهاد ونحوه ، كَمَثَلِ زارع حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ له سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، فالمجموع سبعمائة. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة». وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز ، والمنبت هو اللّه ، وهذا مثال لا يقتضى الوقوع ، وقد يقع فى الذرة والدخن «١» فى الأرض الطيبة ، بحيث تخرج الحبة ساقا يتشعب إلى سبع شعب ، فى كل شعبة سنبلة ، وَاللَّهُ يُضاعِفُ تلك المضاعفة لِمَنْ يَشاءُ بفضله ، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ، وبحسبه تتفاوت الأعمال فى مقادير الثواب ، وَاللَّهُ واسِعٌ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الثواب ، عَلِيمٌ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

ثم ذكر شرطين آخرين فى قبول النفقة ، فقال : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً. المن : أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه بحيث يقول : أنا فعلت معه كذا ، وكذا إظهارا لميزته عليه. والأذى : أن يتطاول عليه بذلك. ويقول : لو لا أنا لم يكن منك شيء ، مثلا. فمن فعل هذا فقد ذهبت صدقته هباءا منثورا ، ومن سلم من ذلك ، وأنفق ماله ابتغاء وجه الله ف – لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وقال زيد بن أسلم رضي اللّه عنه : إذا أعطيت أحدا شيئا وظننت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه. هـ.

---

(١) الدخن : نبات عشبي من النجيليات ، حبه صغير أملس ، كحب السمسم ، ينبت بريا ومزروعا.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٦

قيل : إن الآية نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف – رضى الله عنهما أما عثمان فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها. وقال عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة ، فصبها فى حجر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فرأيت النبىّ صلّى اللّه عليه وسلم يدخل يده فيها ، ويقلّبها ويقول : «ما ضرّ ابن عفّان ما عمل بعد اليوم».

زاد فى رواية أبى سعيد : فرأيت النبي صلّى اللّه عليه وسلم رافعا يدعو لعثمان ، ويقول : «يا رب عثمان بن عفان ، رضيت عنه فارض عنه». وأما عبد الرحمن : فإنه أتى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بأربعة آلاف درهم ، صدقة ، وأمسك أربعة آلاف لعياله ، فقال له النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».

وإنما لم يدخل الفاء فى قوله : لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، مع أن الموصول قد تضمن معنى الشرط ، إيهاما بأنهم أهل لذلك ، وإن لم يفعلوا ، فكيف بهم إذا فعلوا. قاله البيضاوي.

الإشارة : التقرب إلى الله تعالى يكون بالعمل البدني وبالعملي المالى ، وبالعمل القلبي ، أما العمل البدني ، ويدخل فيه العمل اللساني ، فقد ورد فيه التضعيف بعشر وبعشرين وبثلاثين وبخمسين وبمائة ، وبأكثر من ذلك أو أقل ، وكذلك العمل المالى : قد ورد تضعيفه إلى سبع مائة ، ويتفاوت ذلك بحسب النيات والمقاصد ، وأما العمل القلبي : فليس له أجر محصور ، قال تعالى : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فالصبر ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، والتسليم ، والمعرفة ، وحسن الخلق ، والفكرة ، وسائر الأخلاق الحميدة ، إنما جزاؤها : الرضا ، والإقبال والتقريب ، وحسن الوصال. قال تعالى : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أي :

أكبر من الجزاء الحسى الذي هو القصور والحور.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فإنما هو كناية عن الكثرة والمبالغة ، كقوله تعالى : إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ. ومثله قول الشاعر «١» :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

أي : سنة. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن الحق تعالى أن حسن الخلق ولين الجانب أفضل من الصدقة المشوبة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٣]

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

قلت : (قول) : مبتدأ ، و(خير) : خبر ، والمسوّغ الصفة.

---

(١) وهو الششترى.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٧

يقول الحق جل جلاله : قَوْلٌ جميل يقوله الإنسان للسائل فى حال رده ، حيث لم يجد ما يعطيه ، خَيْرٌ وأفضل عند اللّه من الصدقة التي يتبعها المن والأذى ، ومثال القول المعروف : اللّه يرزقنا وإياك رزقا حسنا. واللّه يغنينا وإياك من فضله العظيم ، وشبه ذلك من غير تعبيس ولا كراهية. وَمَغْفِرَةٌ للسائل والعفو عن جفوته وإلحاحه ، خَيْرٌ أيضا مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا منّ ، أو أَذىً للسائل ، علم الحق جل جلاله أن الفقير إذا ردّ بغير نوال شقّ عليه ، فربما أطلق لسانه وأظهر الشكوى فأمر المسئول بالعفو والتواضع. ولو شاء الحق تعالى لأغنى الجميع ، لكنه أعطى الأغنياء ليظهر شكرهم ، وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم ، وَاللَّهُ تعالى غَنِيٌّ عن إنفاق يصحبه من أو أذى ، حَلِيمٌ عن معاجلة من يمنّ أو يؤذى بالعقوبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يفهم من الآية أن حسن الخلق ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وكف الأذى ، وحمل الجفاء ، وشهود الصفاء ، من أفضل الأعمال وأزكى الأحوال وأحسن الخلال ، وفى الحديث : «إنّ حسن الخلق يعدل الصيام والقيام».

وفى قوله : وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ : تربية للسائل والمسئول ، فتربية السائل : أن يستغنى بالغنيّ الكبير عن سؤال العبد الفقير ، ويكتفى بعلم الحال عن المقال ، وتربية المسئول : أن يحلم عن جفوة السائل فيتلطف فى الخطاب ، ويحسن الرد والجواب. قال فى شرح الأسماء : والتخلق بهذا الاسم – يعنى الحليم – بالصفح عن الجنايات ، والسمح فيما يقابلونه به من الإساءات ، بل يجازيهم بالإحسان ، تحقيقا للحلم والغفران. هـ.

ثم حذر الحق تعالى من المن والأذى فى الصدقة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٢٦٤)

قلت : (كالذى) : الكاف فى محل نصب على المصدر ، أي : إبطالا كإبطال الذي ينفق ماله رئاء الناس. أو حال ، أي : مشبّهين بالذي ينفق رئاء. و(رئاء) مفعول له ، والصفوان : الحجر الأملس ، والصلد : البارز الذي لا تراب عليه ، وجمع الضمير فى قوله : (لا يقدرون) باعتبار معنى (الذي) لأن المراد به الجنس.

*(٢٩٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٨

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا أجر صدقتكم بِالْمَنِّ بها على المتصدّق عليه ، وَالْأَذى الذي يصدر منكم له ، بأن تذكروا ذلك للناس ، فتكون صدقتكم باطلة ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فإن أجره يوم القيامة يكون هباء منثورا ، فَمَثَلُهُ فى انتفاعه بصدقته ، وتستره بها فى دار الدنيا ، وافتضاحه يوم القيامة ، كحجر أملس عَلَيْهِ تُرابٌ يستره ، فيظن الرائي أنه أرض طيبة تصلح للزراعة ، فَأَصابَهُ وابِلٌ أي : مطر غرير فَتَرَكَهُ صَلْداً حجرا يابسا خاليا من التراب ، كذلك المراءون بأعمالهم ، ينتفعون بها فى الدنيا بثناء الناس عليهم وستر حالهم ، فإذا قدموا يوم القيامة وجدوها باطلة ، لا يَقْدِرُونَ عَلى الانتفاع ب شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ إلى مراشدهم ومصالح دينهم. وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفة الكافر ، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب ، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب ، والمراقبة على قدر المعرفة. والمعرفة على قدر المشاهدة. والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة ، وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا. وفى الحكم : «حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال. وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال» والحاصل أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلو أعماله من شوب الخلل ، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة فى عطاء ولا منع ، ولا حركة ولا سكون ، ولم ير لغيره وجودا حتى يرجو منه نفعا ولا خيرا. وفى بعض الإشارات : يا من يرائى أمر من من ترائى بيد من تعصيه. هـ. وفى تمثيله بالحجر إشارة إلى قساوة قلبه ويبوسة طبعه ، فلا يرجى منه خير قط. والعياذ باللّه.

ثم ذكر الحق تعالى ضد هؤلاء ، وهم المخلصون ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٥]

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

قلت : الربوة – مثلثة الراء – : المكان المرتفع ، والوابل : المطر الغزير ، والطل : المطر الخفيف ، وفى ذلك يقول الراجز :

والطلّ ما خفّ من الأمطار والوابل الغزير ذو انهمار

(٢٩٨/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٢٩٩

و(ابتغاء مرضات اللّه) و(تثبيتا) : حالان من الواو فى : (ينفقون) ، أو مفعولان له. والتثبيت بمعنى التثبت ، أي :

التحقق ، كقوله تعالى : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا أي : تبتلا.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ فى سبيل اللّه ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وتحققا مِنْ أَنْفُسِهِمْ بثواب اللّه ، أو تحقيقا من أنفسهم بالوصول إلى رضوان اللّه إن بذلوا أموالهم فى طلب رضى اللّه ، مثل نفقتهم فى النمو والارتفاع كَمَثَلِ جَنَّةٍ أي : بستان بِرَبْوَةٍ بمكان مرتفع ، فإن شجره يكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا ، أَصابَها وابِلٌ أي : مطر غزير فَآتَتْ أُكُلَها أي : ثمارها ضِعْفَيْنِ أي : مثلى ما كانت تثمر فى عادتها ، أي : حملت فى سنة ما يحمل غيرها فى سنتين ، بسبب هذا المطر الذي نزل بها ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ أي : فيصيبها طل ، أي : مطر قليل يكفيها لطيب تربتها وارتفاع مكانها ، فأقلّ شىء يكفيها.

والمراد : أن نفقات هؤلاء ، لإخلاصهم وكمال يقينهم ، كثيرة زاكية عند اللّه ، وإن كانت قليلة فى الحس فهى كثيرة فى المعنى. وفى الحديث : «من تصدّق ولو بلقمة وقعت فى كفّ الرحمن فيربّيها كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله «١» ، حتى تكون مثل الجبل». وفى قوله : وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ : تحذير من الرياء ، وترغيب فى الإخلاص. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال ، وتصفية الأحوال على قدر التحقق بمقامات الإنزال ، أي :

على قدر التحقق بالإنزال فى مقامات اليقين ، فكل من تحقق بالنزول فى مقامات اليقين ، ورسخت قدمه فيها ، كانت أعماله كلها عظيمة ، مضاعفة أضعافا كثيرة ، فتسبيحة واحدة من العارف ، أو تهليلة

واحدة ، تعدل الوجود بأسره ، ولا يزنها ميزان ، وكذلك سائر أعمال العارف : كلها عظيمة مضاعفة لأنها باللّه ومن اللّه وإلى اللّه ، وما كان باللّه ومن اللّه لا يطرقه نقص ولا يشوبه خلل ، ولأجل هذا صارت أوقاتهم كلها ليلة القدر ، وأماكنهم كلها عرفات ، وأنفاسهم كلها زكيات ، وصحبتهم كلها نفحات ، ومخالتطهم كلها بركات. نفعنا اللّه بذكرهم وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم حذّر الحق تعالى من طوارق الخلل بعد تمام العمل ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٦]

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

---

(١) الفلو : هو المهر الصغير ، والفصيل : ولد الناقة بعد أن يفصل عن أمه.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠٠

قلت : الإعصار : عمود من ريح فيه عجاجة ، يدور ويرتفع.

يقول الحق جل جلاله : أيتمنى أحدكم أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ أي : بستان مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، هما الغالبان فيه لكثرة منافعهما ، تَجْرِي مِنْ تحت تلك الأشجار الْأَنْهارُ إذ من كمال البستان أن يشتمل على الماء البارد والظل الممدود ، ولَهُ فِيها أي : فى تلك الجنة مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ زائدة على النخيل والأعناب ، ثم أَصابَهُ الْكِبَرُ فضعف عن القيام بتلك الجنة ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ لا يستطيعون القيام بأنفسهم لصغرهم ، فأصاب تلك الجنة إِعْصارٌ أي : ريح شديد فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ تلك الجنة ، فلا تسأل عن حسرة صاحب هذا البستان ، لخوفه من ضياع نفسه وعياله. وهذا مثال لمن يكثر من أعمال البر ، كالصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وغير ذلك ، ثم يعجب به ، ويفتخر ويمنّ بصدقته أو يؤذى ، فتحبط تلك الأعمال وتذهب ، فيتحسر عليها يوم القيامة ، وهو أحوج ما يكون إليها. أو يعمل بالطاعة فى أيام عمره ، فإذا قرب الموت عمل بالمعاصي حتى ختم له بها فحبطت تلك الأعمال ، والعياذ باللّه كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فيها فتعتبرون ، وتخلصون فى أعمالكم ، وتخافون من سوء عاقبتكم. أعاذنا اللّه من ذلك.

الإشارة : فى الآية تخويف للمريد أن يرجع إلى عوائده ، ويلتفت إلى عوالم حسه ، فيشتغل بالدنيا بعد أن استشرف على جنة المعارف ، تجرى على قلبه أنهار العلوم ، فينقض العهد مع شيخه ، أو يسيىء

الأدب معه ، ولم يتب حتى تيبس أشجار معارفه ، وتلعب به ريح الهوى ، فيحترق قلبه بنار الشهوات.
قال البيضاوي : وأشبههم به من جال سره فى عالم الملكوت ، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت ، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور ، والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثورا. هـ.
ثم رغّب الحق تعالى فى الصدقة من الكسب الطيب ، فرضا ونفلا ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٧]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)
قلت : (تيمموا) : أصله : تتيمموا ، أي تقصدوا ، وجملة (تنفقون) : حال مقدرة – من فاعل (تيمموا) ، و(منه) :
يصح أن يتعلق ب – (تنفقون) أو ب – (الخبيث) ، أي : ولا تقصدوا الخبيث حال كونكم تنفقونه ، أو لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه ، و(لستم بآخذيه) : حال أيضا من فاعل (تنفقون).



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠١
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ من الأموال فى التجارة وغيرها ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «يا معشر التجار ، أنتم فجار إلا من اتقى وبرّ وصدق وقال بالمال «١» هكذا وهكذا».
وقوله مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ أي : من حلاله ، أو من خياره ، أما فى الزكاة فعلى الوجوب ، إذ لا يصح دفع الرديء فيها ، وأما فى التطوع فعلى سبيل الكمال ، وأنفقوا أيضا من طيبات مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ من أنواع الحبوب والثمار والفواكه ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا طائر ، إلّا كانت له صدقة إلى يوم القيامة».
ولا تقصدوا الْخَبِيثَ أي : الرديء من أموالكم ، فتنفقون منه وأنتم لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ فى ديونكم إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا بصركم فيه ، وتقبضونه حياء أو كرها أو مسامحة.
نزلت فى قوم كانوا يتصدقون بخبيث التمر وشراره ، فنهوا عنه ، وأدبهم بقوله : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عن إنفاقكم ، وإنما أمركم به منفعة لكم ، حَمِيدٌ بقبوله وإثابته ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، مبالغة ، أي : يحمد فعلكم ويشكره لكم ، إن أحسنتم فيه ، وفى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إن اللّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن اللّه طيّب لا يقبل إلا طيبا ، لا يكسب عبد مالا من حرام فيتصدّق منه فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان

زاده إلى النار ، وإن اللّه لا يمحو السيّء بالسيىء ولكن يمحو السيء بالحسن ، وإن الخبيث لا يمحوه الخبيث».

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص ، أنفقوا العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، من طيبات ما كسبتم من تصفية أسراركم وتزكية أرواحكم ، وأنفقوا أيضا علوم الشريعة وأنوار الطريقة ، مما أخرجنا لكم من أرض نفوسكم التي تزكت بالأعمال الصافية والأحوال المرضية.

ولا تيمموا العمل الخبيث أو الحال الخبيث ، تريدون أن تنفقوا منه شيئا من تلك العلوم ، فإن ذلك لا يزيد النفس إلا جهلا وبعدا ، فكما أن الحبة لا تنبت إلا فى الأرض الطيبة ، كذلك النفس لا تدفن إلا فى الحالة المرضية ، فلا تؤخذ العلوم اللدنية من النفس حتى تدفن فى أرض الخمول ، وأرض الخمول هى الأحوال المرضية ، الموافقة للقواعد الشرعية ، وإليه الإشارة بقوله : وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ أي : لستم بآخذى العلم اللدني من الحال الخبيث ، إلا أن تغيبوا فيه عن حسّكم ، ومن غلبه الحال لم يبق عليه مقال. وعليها تتخرج قصة لص الحمّام «٢» ، فلا يقتدى به لغلبة الحال عليه ، واعلموا أن اللّه غنى حميد ، لا يتقرب إليه إلا بما هو حميد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : صرف المال فى وجوه الخير ، قال ابن الأثير : العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان. فتقول : قال بيده ، أي : أخذه. وقال برجله ، أي : مشى. وكل ذلك على المجاز.

(٢) وهو رجل عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثياب غيره ، وخرج ، فوقف فى الطريق حتى عرفه الناس ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا الثياب وهجروه. قلت : ما فعل هذا الرجل مبالغة وشطط لا يقره الشرع. وكما قال المفسر : لا يقتدى به لغلبة الحال عليه. والقصة ذكرها الغزالي فى الإحياء ٣/ ٣٠٥ ، وابن عباد فى شرح الحكم ١/ ٨٠.



---



ثم حذّر من الشّحّ ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

قلت : يقال : وعدته خيرا ووعدته شرا ، هذا إن ذكر الخير أو الشر ، وأما إذا لم يذكر فيقال فى الخير : وعدته ، وفى الشر : أو عدته ، قال الشاعر :

وإنّى وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى «١»

و(الفحشاء) هنا : البخل والشح.

يقول الحق جل جلاله : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ أي : يخوفكم الْفَقْرَ بسبب الإنفاق ، ويقول فى وسوسته : إن أعطيت مالك بقيت فقيرا تتكفف الناس ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ أي : ويأمركم بالبخل والشح ، والعرب تسمى البخيل فاحشا ، وفى الحديث : «البخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار. والسخي قريب من اللّه. قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار. ولجاهل سخىّ أحبّ إلى اللّه من عابد بخيل».

وفى حديث آخر : «إنّ اللّه يأخذ بيد السخىّ كلما عثر». وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ فى الإنفاق مَغْفِرَةً مِنْهُ لذنوبكم ، وسترا لعيوبكم ، وَفَضْلًا أي : خلفا أفضل مما أنفقتم فى الدنيا والآخرة ، وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والعطاء ، عَلِيمٌ بما أنفقتم ، ولما ذا أنفقتم ، وفيما أخلصتم ، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

الإشارة : إذا توجه المريد إلى اللّه تعالى ، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى اللّه تعالى ، تعرض له الشيطان ، اختبارا منه تعالى وابتلاء ، إذ الحضرة محروسة بالقواطع ليظهر الصادق فى الطلب من الكاذب ، فيخوفه من الفقر ، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد ، وهى أفحش المعاصي عند الخواص ، إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. واللّه يعدكم – أيها المتوجهون إليه – مغفرة لذنوبكم ، وسترا لعيوبكم ، فيغطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته ، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود ، لا بما منكم إليه من المجاهدة والمكابدة ، وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ، (و اللّه واسع) الجود والإحسان ، (عليم) بمن يستحق الفضل والامتنان.

---

(١) البيت لعامر بن طفيل.



---



ومن نتائج الزهد والانقطاع : ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٦٩)

قال البيضاوي : الحكمة : تحقيق العلم وإتقان العمل. هـ. وقيل : هى سرعة الجواب وإصابة الصواب ، وقيل :

كل فضل جزل من قول أو فعل.

يقول الحق جل جلاله ، يُؤْتِي الحق تعالى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ من عباده ، وهى التفقه فى الدين والتبصر فى الأمور. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من يرد اللّه به خيرا يفقّهه فى الدين ، ويلهمه رشده» ، وقيل : الحكمة : الإصابة فى الرأى. وقيل : الفهم فى كتاب اللّه. وقيل : الفهم عن اللّه. وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ أي : أعطيها ، فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً لأنه حاز خير الدارين ، ولا شك أن من حقّق العلم باللّه وبأحكامه ، وأتقن العمل بما أمره اللّه به ، فقد صفا قلبه ، وتطهر سره ، فصار من أولى الألباب ولذلك قال عقبه : وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ.

الإشارة : الحكمة هى : شهود الذات مرتدية بأنوار الصفات ، وهى حقيقة المعرفة ، ومن عرف اللّه هابه ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «رأس الحكمة مخافة اللّه». وقيل : هى تجريد السر لورود الإلهام ، وقيل : هى النور المفرق بين الوسواس والإلهام ، وقيل : شهود الحق تعالى فى جميع الأحوال. والتحقيق : أن الحكمة هى إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتى على غاية الكمال ، ويجرى ذلك فى العلم والعمل والحال والمعرفة.

وقال القشيري : الحكمة : أن يحكم عليك خاطر الحق لا داعى الباطل ، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال : الحكمة : صواب الأمر ، ويقال : هى ألا تغلب عليك رعونات البشرية ، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره. ويقال : الحكمة : موافقة أمر اللّه ، والسفه : مخالفة أمره ، ويقال : الحكمة شهود الحق ، والسفه : شهود الغير.

قاله المحشى.

واعلم أن الصوفية ، فى اصطلاحهم ، يعبّرون عن أسرار الذات بالقدرة ، وعن أنوار الصفات – وهى ظهور آثارها – بالحكمة. فالوجود كله قائم بين الحكمة والقدرة ، فالقدرة تبرز الأشياء ، والحكمة تسترها. فربط الأشياء واقترانها بأسبابها تسمى عندهم الحكمة ، وإنفاذ الأمر وإظهاره يسمى القدرة ، فمن مع الحكمة حجب عن



---



شهود القدرة ، وكان محجوبا عن اللّه. ومن نفذ إلى شهود القدرة ولم يرتبط مع الأسباب والعوائد كان عارفا محبوبا. فالعارف الكامل هو الذي جمع بين شهود القدرة وإقرار الحكمة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، ووفّى كلّ ذى قسط قسطه ، لكن يكون ذلك ذوقا وكشفا ، لا علما وتقليدا. وباللّه تعالى التوفيق

:

ثم رغّب فى الإخلاص ، وحذّر من شوب الحظوظ فى النفقة ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٠ الى ٢٧١]

وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قلت : النذر : هو إلزام المكلف نفسه ما لم يجب ، كقوله : للّه علىّ أن أتصدق بكذا ، أو أصلى كذا ، أو أن أصوم كذا ، أو إن شفى اللّه مريضى فعلىّ كذا ، فمن نطق بشىء من ذلك لزمه ، ومن علق بشىء وحصل ذلك لزمه ما نطق به. و(نعما) أصلها : نعم ما هى ، فأدغمت الميم فى الميم ، وفى (نعم) : ثلاث لغات : «نعم» بفتح النون وكسر العين وهى الأصل ، وبسكونها ، وبكسر النون وسكون العين ، فمن قرأ بكسر النون والعين ، فعلى لغة كسر العين ، وأتبع النون للعين ، ومن اختلس ، أشار إلى لغة السكون ، ومن قرأ بفتح النون وكسر العين ، فعلى الأصل وأدغم المثلين ، ومن قرأ بفتح النون وسكون العين فعلى لغة (نعم) بالفتح والسكون ، ثم أدغم ، ولم يعتبر التقاء الساكنين لعروضه ، أو لكون الثاني مشدّدا سهل ذلك. واللّه أعلم.

ومن قرأ : (و نكفّر) ، بالجزم ، فعطف على محل الجزاء ، ومن قرأ بالرفع ، فعلى الاستئناف ، أي : ونحن نكفر ، أو : فهو يكفر ، على القراءتين.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ قليلة أو كثيرة ، سرا أو علانية ، فى حق أو باطل ، أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ بشرط أو بغير شرط ، فى طاعة أو معصية ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، فيجازيكم عليه ، فمن أنفق فى طاعة أو نذر قربة كان من المحسنين ، ومن أنفق فى معصية أو نذر معصية كان من الظالمين. وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ ينصرونهم من عذاب اللّه.

إِنْ تظهروا الصَّدَقاتِ ، مخلصين فيها ، فَنِعِمَّا هِيَ أي : فنعم شيئا إبداؤها ، ولا سيما للمقتدى به ، فهو أفضل فى حقه ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ خفية فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لأنه أقرب للإخلاص ، وهذا



---



فى التطوع ، تفضل علانيتها بسبعين ضعفا. وأما الفريضة ففيها تفصيل ، فمن خاف على نفسه شوب الرياء أخفى أو نوّب ، ومن أمن أظهر. فقد ورد أن علانية الفريضة تفضل سرّها بخمسة وعشرين ضعفا ، فإن فعلتم ما أمرتم به فى الوجهين ، فقد أحسنتم ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ أي : نستر عنكم بعض

ذنوبكم ، وقد ورد فى صدقة السر أن صاحبها يظله اللّه يوم لا ظل إلا ظله وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه من أسرّ أو جهر ، ومن أخلص أو خلط ، ففيه ترغيب وترهيب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : معاملة العبد مع مولاه : إما أن تكون لطلب الأجور ، وإما لرفع الستور ، فالأول يعطى أجره من وراء الباب ، والثاني يدخل مع الأحباب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه (و ما للظالمين من أنصار) ، وفى بعض الآثار : طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير.

ثم الناس فى معاملة الحق على أقسام ثلاثة : قسم يليق بهم الإخفاء والإسرار ، وهم طالبو الإخلاص من المريدين السائرين. وقسم يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقسم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء ، بل مع ما يبرز فى الوقت ، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : (من أحبّ الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد اللّه فسواء عليه أظهره أم أخفاه).

والهداية كلها بيد اللّه ، ليس لغيره منها شيء ، كما أبان ذلك الحق جل جلاله بقوله :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

يقول الحق جل جلاله لنبيه عليه الصلاة والسلام : لَيْسَ عَلَيْكَ يا محمد هُداهُمْ أي : لا يجب عليك أن تخلق الهداية فى قلوبهم ، وليس من شأنك ذلك ، إنما أنت نذير تدلّ على الخير ، كالنفقة وغيرها ، وتنهى عن الشر كالمنّ والأذى ، وإنفاق الخبيث ، وغير ذلك من المساوئ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بفضله وإحسانه ، فالأمور كلها بيد اللّه خيرها وشرها ، ولكن من جهة الأدب ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ما قيل فى الرسول – عليه الصلاة والسلام – يقال فى ورثته من أهل التذكير ، فليس بيدهم الهداية والتوفيق ، وإنما شأنهم الإرشاد وبيان الطريق ، فليس من شأن الدعاة إلى اللّه الحرص على هداية الخلق. وإنما من



---



شأنهم بيان الحق. إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الترغيب فى الصدقة والإخلاص فيها ، فقال :

وَما تُنْفِقُوا ...

قلت : هذه ثلاث جمل كلها تدل على الترغيب فى إنفاق الطيب وإخلاص النية.

يقول الحق جل جلاله : وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قليل أو كثير ، فهو فَلِأَنْفُسِكُمْ لا ينتفع به غيركم ، فإن كان طيبا فلأنفسكم ، وإن كان خبيثا فأجره لكم ، وإن مننتم به أو آذيتم فقد ظلمتم أنفسكم ، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم.

وأيضا إنكم تدّعون أنكم ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فكيف تقصدون الخبيث ، وتجعلونه لوجه اللّه؟ وكيف تمنّون أو تؤذون بها وهى لوجه اللّه؟ هذا تكذيب للدعوى ، وكل ما تنفقون من خير قليل أو كثير يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه يوم القيامة بسبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ويخلفه لكم فى الدنيا ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ شيئا من أعمالكم إن أخلصتم أو أحسنتم. وستأتى إشارتها مع ما بعدها.

ثم بيّن المصرف ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٣]

لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

قلت : (للفقراء) : متعلق بمحذوف ، أي : يعطى ذلك للفقراء ، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ، والإلحاف : هو الإلحاح فى السؤال ، وهو أن يلازم المسئول حتى يعطيه ، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

يقول الحق جل جلاله : تجعلون ما تنفقونه لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا أي : حبسوا أنفسهم فى سَبِيلِ اللَّهِ وهو الجهاد ، لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ أي : ذهابا فى الأرض للتجارة أو للأسباب ، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب ، وهم أهل الصّفّة ، كانوا نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين ، يسكنون صفة المسجد ، يستغرقون أوقاتهم فى العلم والذكر والعبادة ، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم.

*(٣٠٦/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠٧

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «وقف النبي صلى اللّه عليه وسلم يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم ، فقال : «أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقي من أمتى على النعت الذي أنتم عليه ، راضيا بما فيه فإنه ، من رفقائى».

وقيل : المراد الفقراء مطلقا ، حصرهم الفقر عن الضرب فى الأرض للتجارة ، يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ بهم أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، أي : من أجل تعففهم عن السؤال ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ من الضعف ورثاثة الحال.

الخطاب للرسول ، أو لكل أحد لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً ، أي : لا يسألون ، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا ، وقيل : نفى للأمرين معا ، أي : ليس لهم سؤال ، فيقع فيه إلحاف ، كقول الشاعر :

على لا حب لا يهتدى بمناره «١» وليس ثمّ لا حب ولا منار ، وإنما المراد نفيهما ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من سأل ، وله أربعون درهما ، فقد سأل إلحافا».

وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازى على القليل والكثير ، وهذا ترغيب فى الإنفاق ، وخصوصا على هؤلاء.

الإشارة : ما أفلح من أفلح ، وخسر من خسر ، إلا من نفسه وفلسه ، فمن جاد بهما ، أو بأحدهما ، فقد فاز وأفلح وظفر بما قصد ، والجود بالنفس أعظم ، وهو يستلزم الجود بالفلس ، والجود بالفلس ، إن دام ، يوصل إلى الجود بالنفس ، والمراد بالجود بالنفس : إسلامها للشيخ يفعل بها ما يشاء ، وتكون الإشارة فيها كافية عن التصريح ، ومن بخل بهما أو بأحدهما ، فقد خسر وخاب فى طريق الخصوص ، ومصرف ذلك هو الشيخ ، أو الفقراء المنقطعون إلى اللّه الذين حصروا أنفسهم فى سبيل اللّه ، وهو الجهاد الأكبر.

قال فى القوت : وكان بعض الفضلاء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأن هؤلاء همهم اللّه عز وجل ، فإذا ظهر منهم فاقة تشتّت قلب أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى اللّه أحب إلىّ من أن أعطى ألفا من غيرهم ممن همه الدنيا. فذكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد ، فقال : هذا كلام ولى من أولياء اللّه. ثم قال : ما سمعت كلاما أحسن من هذا. وبلغني أن هذا الرجل اقتر حاله فى أمر الدنيا

---

(١) هذا صدر بيت عجزه : (إذا سافه العود النباطىّ جرجرا) وهو من قصيدة لامرئ القيس. واللاحب : الطريق الواسع. [.....]



---



حتى هم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد بمال كان صرف إليه ، وقال له : اجعل هذا فى بضاعتك ، ولا تترك الحانوتفإنّ التجارة لا تضرّ مثلك. ويقال : إن هذا لم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه. هـ.

وكان عبد اللّه بن المبارك يصرف مصروفه لأهل العلم ، ويقول : إنى لا أعرف بعد النبوة أفضل من العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بالحاجة والعيلة لم يتفرغ للعلم ، ولا يقبل على تعليم الناس ، فرأيت

أن أكفيهم أمر الدنيا لأفرغهم للعلم ، فهو أفضل. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم رغّب فى النفقة مطلقا ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٤]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

قلت : الموصول مبتدأ ، و(فلهم أجرهم) : خبر ، والفاء للسببية ، ولأن فى الموصول معنى الشرط ، وقيل : الخبر محذوف ، أي : ومنهم الذين ينفقون إلخ ، و(فلهم) : استئناف بيانى.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً ، ويعمرون أوقاتهم بفعل الخيرات ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إذا قدموا عليه ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على فوات محبوب ، بل وجدوا اللّه فأغناهم عن كل شىء.

قيل : نزلت فى أبى بكر رضي اللّه عنه تصدّق بأربعين ألف دينار ، عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر ، وعشرة بالعلانية ، أو فى علي – كرم اللّه وجهه – لم يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلا ، ودرهم نهارا ، ودرهم سرا ، ودرهم علانية. وهى عامة لمن فعل فعلهما.

الإشارة : أجر بذل الأموال هو إعطاء الثواب من وراء الباب ، والأمن من العذاب وسوء المآب ، وأجر بذل النفوس هو دخول حضرة القدوس ، والأنس بالأحباب داخل الحجاب ، فمن بذل نفسه للّه على الدوام ، أمنه من الحجبة فى دار السلام ، فلا خوف يلحقهم فى الدارين ، ولا يعتريهم حزن فى الكونين. وباللّه التوفيق.

ولما رغّب فى الصدقة ، وكانت فى الغالب لا يتوصل إليها إلا بتعاطى أسباب المال ، وهو البيع والشراء حذر من الربا لئلا يتساهل الناس فى المعاملة به ، حرصا على الصدقة ، فقال :



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٠٩

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٥ الى ٢٧٩]

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

قلت : (الربا) فى الأصل : هو الزيادة ، ربا المال يربو : زاد. وكتبت بالواو مراعاة للأصل ، وهو المصدر ، قال الفراء : إنما كتبوه بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، ولغتهم الربو ، فعلموهم صورة الحروف ، وكذلك قرأها أبو السمال العدوى ، وقرأ الأخوان بالإمالة لمكان الكسرة ، والباقون بالتفخيم.

والربا فى اصطلاح الشرع على قسمين : ربا الفضل وربا النّساء ، فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين فى المبادلة من الجنس الواحد ، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج ، وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين بعضهما ببعض بالتأخير ، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا أي : يأخذونه ، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال ، لا يَقُومُونَ من قبورهم يوم البعث إِلَّا كَما يَقُومُ المجنون الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ أجل الْمَسِّ الذي يمسه يقوم ويسقط ، روى أن بطونهم تكون أمامهم كالبيت الضخم ، يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع ، وعن أبى هريرة رضي اللّه عنه أنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «لما أسرى بي إلى السماء رأيت رجالا بطونهم كالبيوت ، فيها حيّات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : أكلة الرّبا».

ذلِكَ العذاب بسبب أنهم استحلّوا الربا ، وقالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا فنظموا الربا والبيع فى سلك واحد ، وفيه عكس التشبيه. والأصل : إنما الربا مثل البيع ، قصدوا المبالغة ، كأنهم جعلوا الربا أصلا وقاسوا عليه البيع.

وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يقول الغريم : زدنى فى الأجل أزدك فى المال ، فيفعلان ، ويقولان : سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند محل الدين ، هو مراضاة. فكذبهم الحق تعالى بقوله : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا لأن القياس مع وجود النص فاسد ، والفرق ظاهر فإن من باع درهما



---



بدرهمين ضيع درهما من غير فائدة ، بخلاف من اشترى سلعة بدرهم ، وباعها بدر همين ، فلعل مساس الحاجة ، والرغبة فيها ، توقع رواجها فيجبر الغبن.

فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ كالنهى عن الربا ، فَانْتَهى وترك الربا فَلَهُ ما سَلَفَ قبل التحريم ولا يردّه ، وَأَمْرُهُ

إِلَى اللَّهِ لا إلى أحد منكم ، فلا يتعرض له ، وَمَنْ عادَ إلى تحليل الربا بعد بلوغه النهى فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لأنهم كفروا وسفهوا أمر اللّه. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا أي : يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ أي : يضاعف ثوابها ويبارك فى المال الذي أخرجت منه ، فقد روى عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «ما نقص مال من صدقة» ، «وأنه يربى الصدقة حتى تكون مثل الجبل». قال يحيى بن معاذ : (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبّة من الصدقة).

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أي : مصرّ على تحليل المحرمات ، أَثِيمٍ أي : منهمك فى ارتكاب المنهيات ، أي : لا يرتضى حاله ، ولا يحبه كما يحب التوابين.

ثم ذكر مقابله فقال : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا باللّه ، وصدّقوا بما جاء من عنده ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ أي : أتقنوها وَآتَوُا الزَّكاةَ أي : أدوها على التمام ، فلهم أجرهم عند ربهم إذا قدموا عليه ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من آت ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما فات ، إذ لم يفتهم شيء حيث وجدوا اللّه.

ثم أكد فى أمر الربا ، فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا أي : اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا ، فلا تقبضوها منهم ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨). فإن دليل الإيمان : امتثال ما أمرتم به ، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند الحلّ بالمال والربا ، فنزلت الآية.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وتتركوا ما نهيتم عنه ، فَأْذَنُوا أي : فاعلموا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ومن قرأ : فآذنوا بالمد ، فمعناه : أعلموا بها غيركم ، روى أنها لما نزلت ، قالت ثقيف : لا يدان «١» لنا بحرب اللّه ورسوله.

وَإِنْ تُبْتُمْ من تعاطى الربا واعتقاد حله فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ الغريم بأخذ الزيادة ، وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) بنقص رأس مالكم. مفهومه إن لم يتب فليس له شيء ، لأنه مرتد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) يقال : مالى بهذا الأمر يد ويدان أي : لا طاقة لى به ، لأن المدافعة تكون باليد ، فكأن يده معدومه لعجزه عن دفعه.



---



الإشارة : مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة ، فمن صفّا طعمته صفت معاملته ، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه ، ومن خلط فى لقمته تكدرت معاملته ، ومن تكدرت معاملته تكدر قلبه ، ولذلك قال بعضهم : (من أكل الحلال أطاع اللّه ، أحبّ أم كره ، ومن أكل الحرام : عصى اللّه ،

أحبّ أم كره) وكذلك الواردات الإلهية ، لا ترد إلا على من صفا مطعمه ومشربه ، ولذلك قال بعضهم : (من لا يعرف ما يدخل بطنه لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية).

وقال سيدى على الخواص رضي اللّه عنه : (اعلم أن المدد الذي لم يزل فياضا على قلب كل إنسان ويتلون بحسب القلب ، والقلب يتلون بحسبه هو بحسب صلاح الطعمة وفسادها). هـ. فالذين يأكلون الحرام كالربا وشبهه ، لا يقومون إلى معاملتهم للحق إلا كما يقوم المجنون الذي يلعب به الشيطان ، ولا يدرى ما يقول ولا ما يقال له ، فقد حرم لذيذ المناجاة وحلاوة خلوص المعاملات ، فإن احتج لنفسه واستعمل القياس لم يرج فلاحه فى طريق الخواص ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، وطلب العفاف فقد عفا اللّه عما سلف. ومن عاد إلى ما خرج عنه من متابعة هواه ، فنار القطيعة مثواه ومأواه.

ومن شأن الحق جل جلاله مع عباده : أن من طلب الزيادة فى حس ظاهره محق اللّه نور باطنه ، ومن حسم مادة زيادة الحس فى ظاهره قوى اللّه مدد الأنوار فى باطنه ، (يمحق اللّه الربا ويربى الصدقات) ، أي : يقوّى مدد ثواب الصدقات. (و اللّه لا يحب كلّ كفّار أثيم) ، وإنما يحب كل مطيع منيب ، وهو من آمن إيمان أهل التحقيق ، وسلك مسلك أهل التوفيق. فلا جرم أنه ينخرط فى سلك أهل العناية ، ويسلك به مسلك أهل الولاية ، (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه) حق تقاته ، واتركوا ما بقي فى باطنكم من بقايا الحس وأسبابه ، إن كنتم طالبين إيمان أهل الشهود ، والوصول إلى الملك المعبود. فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم فى مقام البعد من حيث لا تظنون ، معاندون وأنتم لا تشعرون. وإن رجعتم إلى ربكم فلكم رؤوس أموالكم ، وهو نور التوحيد ، لا تنقصون منه ولا تزيدون عليه ، إلا إن أفردتم الوجهة إليه ، وطلبتم الوصول منه إليه ، فإن اللّه لا يخيّب من أمّل جوده ، ولا يردّ من وقف ببابه ، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر حال المعسر ، فقال :

**[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨٠ الى ٢٨١]**

وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٢

قلت : (كان) : تامة بمعنى حضر ، وقرأ أبىّ وابن مسعود : (ذا عسرة) فتكون ناقصة ، و(نظرة) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فعليكم نظرة ، أو فالواجب نظرة. وهو مصدر بمعنى الإنظار ، وهو الإمهال ، و(ميسرة) : فيه لغتان :

الفتح والضم ، وهى مفعلة من اليسر ، فالضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغة تميم وقيس ونجد.
يقول الحق جل جلاله : وإن حضر الغريم وهو معسر ، فعليكم إنظاره ، أي : إمهاله إلى زمان يسره ولا يحل لكم أن تضيّقوا عليه ، وتطالبوه بما ليس عنده إن أقام البيّنة على عسره وَأَنْ تَصَدَّقُوا عليه برؤوس أموالكم ولا تطالبوه بها خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما فى ذلك من الخير الجزيل والذكر الجميل.
روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «من أنظر معسرا ، أو وضع عنه ، أظلّه اللّه فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه» وقال – عليه الصلاة والسلام – : «من أحبّ أن تستجاب دعوته ، وتكشف كربته ، فلييسّر على المعسر».
وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة بمثل ما أنظره به». وقد ورد فى فضل الدّين قوله – عليه الصلاة والسلام : «إن اللّه مع المدين حتى يقضى دينه ، ما لم يكن فيما يكره اللّه». فكان عبد اللّه «١» يقول : «إنى أكره أن أبيت ليلة إلا واللّه تعالى معى ، فيأمر غلامه أن يأخذ بدين».
وقد ورد الترغيب أيضا فى الإسراع بقضاء الدين دون مطل ، قال صلّى اللّه عليه وسلم «من مشى إلى غريمه بحقه ، صلّت عليه دوابّ الأرض ونون الماء ، وكتبت له بكل خطوة شجرة فى الجنة ، وذنب يغفر له فإن لم يفعل ومطل فهو معتد». وقال أيضا : «مطل الغنىّ ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليىء فليتبع».
ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، وهو يوم القيامة ، فتأهبوا للمصير إليه بالصدقة وسائر الأعمال الصالحة ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما أسلفت ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب أو تضعيف عقاب. قال ابن عباس : (هذه آخر آية نزل بها جبريل ، فقال : ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة ، وعاش بعدها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحدا وعشرين يوما). وقيل : أحدا وثمانين ، وقيل غير ذلك. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وإن كان ذو عسرة من نور اليقين والمعرفة ، فلينظر إلى أهل الغنى باللّه ، وليصحبهم ويتعلّق بهم ، وهم العارفون ، فإنهم يغنونه بالنظر. وفى بعض الأخبار : إن اللّه رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا. هـ. وللّه رجال إذا نظروا أغنوا ، وفى هذا المعنى يقول صاحب العينية :

فشمّر ، ولذ بالأولياء فإنّهم لهم من كتاب اللّه تلك الوقائع
هم الذّخر للملهوف ، والكنز للرّجا ومنهم ينال الصبّ ما هو طامع

---

(١) هو راوى الحديث سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضي اللّه عنه.

وقال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : واللّه ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته. وقال فيه شيخه : نعم الرجل أبو العباس ، يأتيه البدوىّ يبول على ساقه ، فلا يمسى إلا وقد أوصله إلى ربه. وقال شيخ شيوخنا سيدى العربي بن عبد اللّه : لو أتانى يهودى أو نصرانى ، لم يمس إلا وقد أوصلته إلى اللّه. هـ. وفى كل زمان رجال يغنون بالنظر ، وقد أدركتهم ، وصحبتهم والحمد للّه. والإشارة بقوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إلى أهل الغنى باللّه ، يتصدقون على الفقراء بالنظرة والهمة ، حتى يحصل لهم الغنى باللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بتحصين الأموال بتقييد الديون والإشهاد عليها ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ أي : داين بعضكم بعضا فى بيع أو سلف ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أي : معلوم بالأيام أو الأشهر ، لا بالحصاد أو قدوم الحاج ، إلا فى السّلم ، فَاكْتُبُوهُ لأنه أوثق وأدفع للنزاع. والجمهور : أن الأمر للاستحباب ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ لا يزيد ولا ينقص ، ولا بد أن يكون عدلا حتى يجيىء مكتوبه موثوقا به ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ أي : ولا يمتنع كاتب من الكتابة كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ أي : فليكتب كما علمه اللّه من كتابة الوثائق ، أو : لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه اللّه بتعليمها. وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أي : وليكن المملى من عليه الحق لأنه المقر للشهود ، يقال : أملل وأملى ، إذا ذكر ما عنده أو ما عليه ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ أي : المملى أو الكاتب ، وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً أي : ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئا فى الإملاء أو فى الكتابة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٤

فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً : ناقص العقل مبذرا ، أَوْ ضَعِيفاً شيخا مخبلا ، أو صبيا صغيرا ، أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ، لخرس أو جهل باللغة ، فَلْيُمْلِلْ عنه وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، من وصىّ أو وكيل ، وَاسْتَشْهِدُوا على معاملتكم شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ المسلمين ، فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ ، بأن تعذر إحضارهما ، فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ فأكثر ، تقوم مقام رجلين مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ لعلمكم بعدالتهم ، وإنما شرط تعدد النساء لأجل أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى أي : إن ضلت إحداهما الشهادة ، ونسيتها ، ذكرتها الأخرى لأنها ناقصة عقل ودين.

ثم حذّر الشهود من الامتناع عن تحمل الشهادة أو أدائها ، فقال :

وَلا يَأْبَ ...

قلت : السّأم هو : الملل ، و(لا يضارّ) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل ، وأصله : يضارر بالكسر ، أو للمفعول ، فيكون الأصح بالفتح.

يقول الحق جل جلاله : ولا يمتنع الشُّهَداءِ من تحمل الشهادة إذا دعوا إليها ، حيث تعيّنت عليهم ، وسموا شهداء باعتبار المآل ، وإنما تتعين إذا لم يوجد غيرهم. أو : من أدائها حيث لا ضرر ، وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ أي : ولا تملوا من كتابة الحق إذا تكرر صَغِيراً كان أَوْ كَبِيراً ، فقيدوا ذلك إِلى أَجَلِهِ ، ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أي : ذلك الكتاب والتقييد للحقوق ، أكثر قسطا عند اللّه لأنه أدفع للنزاع وأحفظ للحقوق ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ أي : أثبت لها وأعون على أدائها ، وَأَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا أي : وأقرب لعدم الريب والشك فى جنس الدين وقدره وأجله ، لأنه إذا كتب جنسه وقدره وأجله لم يبق لأحد شك فى ذلك ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً لا أجل فيها ، تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ أي : تتعاملون فيها نقدا ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها لقلة النزاع فيها ، وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ مطلقا بدين أو نقد لأنه أحوط ، خوفا من الإنكار ، والأوامر فى هذه الآية للاستحباب عند الأكثر.

*(٣١٤/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٥

وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ بالتحريف والتغيير فى الكتابة والشهادة ، على البناء للفاعل ، أو : ولا يضارا بأن يعجلا عن مهم ، أو يكلفا الأداء من شقة بعيدة ، أو يمنع من أجرته ، وَإِنْ تَفْعَلُوا ذلك الضرار وما نهيتهم عنه فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ أي : خروج بكم عن حد الاستقامة ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفة أمره ونهيه ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ العلوم اللدنية وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فلا يخفى عليه من اتقى اللّه ممن عصاه. وكرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث ، لاستقلالها ، فإن الأولى حثّ على التقوى والثانية وعد بتعليم العلم ،

والثالثة تعظيم لشأنه ، ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية. قاله البيضاوي.
وأدخل الواو فى جواب الأمر ليقتضى أن تعليمه سبحانه لأهل التقوى ليس هو مسببا عن التقوى ، بل هو بمحض الفضل والكرم ، والتقوى إنما هى طريق موصل لذلك الكرم ، لا سبب فيه «جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». واللّه تعالى أعلم .
ثم ذكر الحق تعالى حكم الرهان ، فقال :
[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٣]
وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)
قلت : (فرهان) : خبر ، أو مبتدأ ، أي : فالمستوثق به رهان ، أو فعليه رهان.
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى جناح سَفَرٍ أي : مسافرين ، وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً يكتب شهادة البيع أو الدين ، فالمستوثق به عوضا من الإشهاد : فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ. وليس السفر شرطا فى صحة الارتهان ، لأنه عليه الصلاة والسلام «رهن درعه عند يهودى بالمدينة فى شعير» لكن لمّا كان السفر مظنّة إعواز الكتاب ، ذكره الحق تعالى حكما للغالب. والجمهور على اعتبار القبض فيه ، فإن لم يقبض حتى حصل المانع ، فلا يختص به فى دينه ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً واستغنى بأمانته عن الارتهان ، لوثوقه بأمانته فداينه بلا رهن ، فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ أي : دينه ، وسماه أمانة لائتمانه عليه بلا ارتهان ولا إشهاد ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ فى أداء دينه وعدم إنكاره.
وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ أيها الشهود ، أو أهل الدين ، أي : شهادتهم على أنفسهم ، وَمَنْ يَكْتُمْها منكم بأن يمتنع من أداء ما تحمل من الشهادة ، أو من أداء ما عليه من الدين ، فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ حيث كتم ما علمه به ، لأن الكتمان من عمل القلوب فتعلق الإثم به ، ونظيره : «العين زانية وزناها النظر» ، أو أسنده إلى القلب ، مبالغة لأنه رئيس الأعضاء ، فإذا أثم قلبه فقد أثم كله ، وكأنه قد تمكن الإثم منه فأخذ أشرف أجزائه ، وفاق سائر ذنوبه ، ثم هدد



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٦
الكاتمين فقال : وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا يخفى عليه ما تبدون وما تكتمون ، روى عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «من كتم شهادة إذا دعى – كان كمن شهد بالزّور».
الإشارة : كما أمر اللّه تعالى بتقييد الديون الدنيوية ، والاعتناء بشأنها ، أمر بتقييد العلوم اللدنية والواردات القدسية والاغتباط بأمرها ، بل هى أولى لدوام ثمراتها وخلود نتائجها ، فإن الحكمة ترد على

القلب من عالم القدس عظيمة كالجبل ، فإن أهملتها ولم تبادر إلى تقييدها ، رجعت كالجمل ، فإن أخرتها رجعت كالطير ، ثم كالبيضة ، ثم تمتحى من القلب ، وفى هذا المعنى قيل :

العلم صيد والكتابة قيده قيّد صيودك بالحبال الموثقه

ومن الجهالة أن تصيد حمامة وتتركها بين الأوانس مطلقه

فإن لم يحسن الكتابة ، فليمللله على من يحسنها ، ولا يبخس منه شيئا ، بل يمليه على ما ورد فى قلبه ، فإن كان ضعيف العبارة ، فليملل عنه من يحسنها بالعدل ، من غير زيادة ولا نقصان فى المعنى ، وليشهد عليها رجال أهل الفن وهم العارفون ، فإن لم يكونوا ، فمن حضر من الفقراء المتمكنين لئلا يكون فى تلك الحكمة شيء من الخلل لنقصان صاحبها ، أو : وليشهد على ذلك الوارد عدلين ، وهما الكتاب والسنة ، فإن كان موافقا لهما ، قبل ، وإلا ردّ.

قال الجنيد رضي اللّه عنه : إن النكتة لتقع فى قلبى فلا أقبلها إلا بشهادة عدلين : الكتاب والسنة. هـ.

وإن كنتم مستعجلين ، ولم تجدوا كاتبا ، فارتهنوها فى قلوب بعضكم بعضا ، حتى تقيد. ومن كتم الواردات عن شيخه أو إخوانه ، فقد أثم قلبه لأنه نوع من الخيانة فى طريق التربية. واللّه تعالى أعلم.

ثم هدّد الحق تعالى عباده ، على مخالفة ما أمرهم به ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٤]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

قلت : من قرأ (فيغفر) بالجزم ، فعلى العطف على الجواب ، ومن قرأ بالرفع فعلى الاستئناف ، أي : فهو يغفر.

يقول الحق جل جلاله : لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم كيف شاء يرحم من يشاء بفضله ، ويعذب من يشاء بعدله ، وَإِنْ تُبْدُوا أي : تظهروا ما فِي أَنْفُسِكُمْ من السوء والعزم عليه ، أَوْ تُخْفُوهُ فى قلوبكم ، يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ يوم القيامة فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ مغفرته ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبّر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخذة ، فلم يقل : يؤاخذكم به اللّه لأن المحاسبة أعم ، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخذة بها ، لقوله – عليه الصلاة والسلام : «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل تعرف

كذا؟ فيقول : يا رب ، أعرف ، فيوقفه على ذنبه ذنبا ، ذنبا فيقول اللّه تعالى : أنا الذي سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم». فللّه الفضل والمنة ، وله الحمد والشكر.

الإشارة : (و إن تبدوا ما فى أنفسكم) من الخواطر الردية والطوارق الشيطانية ، أو تخفوه فى قلوبكم ، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبكم ، (يحاسبكم به اللّه فيغفر لمن يشاء) فيمحو ظلمته من قلبه بإلهام التوبة والمبادرة إلى اليقظة ، (و يعذب من يشاء) بتركه مع ظلمة تلك الأغيار ، وخوضه فى بحار تلك الأكدار ، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها بظلمة الأغيار ، فرّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار ، فإن أردت أن تكون عين العين ، فامح من قلبك نقطة الغين ، وهى نقطة السّوى ، وللّه در القائل :

إن تلاشى الكون عن عين كشفى شاهد السرّ غيبه فى بيانى
فاطرح الكون عن عيانك وامح نقطة الغين إن أردت ترانى

واعلم أن الخواطر أربعة : ملكى وربانى ونفسانى وشيطانى ، فالملكى والرباني لا يأمران إلا بالخير ، والنفساني والشيطاني لا يأمران إلا بالشر ، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسيسة إلى الشر ، والفرق بين النفساني والشيطاني :

أن الخاطر النفساني ثابت لا يزول بتعوذ ولا غيره ، إلا بسابق العناية ، بخلاف الشيطاني : فإنه يزول بذكر اللّه ، ويرجع مع الغفلة عن اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا نزل قوله تعالى : وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ ... الآية. شق ذلك على الصحابة – رضى اللّه عنهم – فجاء الصدّيق والفاروق وعبد الرحمن ومعاذ ، وناس من الأنصار ، فجثوا على الرّكب ، وقالوا : يا رسول اللّه ، ما نزلت علينا آية أشدّ من هذه الآية وإنا إن أخذنا بما نحدّث به أنفسنا هلكنا! فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «هكذا نزلت». فقالوا : كلفّنا من العمل ما لا نطيق ، فقال – عليه الصلاة والسلام : «فلعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ، قولوا : سمعنا وأطعنا» ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، وذلّت بها ألسنتهم ، فأنزل اللّه التخفيف ، وحكى ما وقع لهم من الإيمان والإذعان ، فقال :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٨٦)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٨

قلت : من قرأ : (لا نفرق) بالنون ، فعلى حذف القول ، أي : قالوا : لا نفرق ، ومن قرأ بالياء فيرجع إلى الكل ، أي : لا يفرق كل واحد منهم بين أحد من رسله ، و(بين) : من الظروف النسبية ، لا تقع إلا بين شيئين أو أشياء ، تقول : جلست بين زيد وعمرو ، وبين رجلين ، أو رجال ، ولا تقول بين زيد فقط ، وإنما أضيف هنا إلى أحد لأنه فى معنى الجماعة ، أي : لا نفرق بين آحاد منهم كقوله عليه الصلاة والسلام : «ما أحلّت الغنائم لأحد ، سود الرؤوس ، غيركم». و(غفرانك) : مفعول مطلق ، أي : اغفر لنا غفرانك. أو : نطلب غفرانك ، فيكون مفعولا به.

يقول الحق جل جلاله : آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إيمان تحقيق وشهود ، وَالْمُؤْمِنُونَ كل على قدر إيقان ، كُلٌّ واحد منهم آمَنَ بِاللَّهِ على ما يليق به من شهود وعيان ، أو دليل وبرهان ، وآمن بملائكته وأنهم عباد مكرمون لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ، وَكُتُبِهِ وأنها كلام اللّه ، مشتملة على أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص وأخبار ، ما عرف منها كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وجب الإيمان به بعينه ، ومالم يعرف وجب الإيمان به فى الجملة ، وَرُسُلِهِ وأنهم بشر متصفون بالكمالات ، منزهون عن النقائص ، كما يليق بحالهم ، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ أو : (لا يفرق) كل منهم بين أحد من رسله بأن يصدقوا بالبعض ، دون البعض كما فرقت اليهود والنصارى ، وَقالُوا أي المؤمنين سَمِعْنا وَأَطَعْنا أي :

سمعنا قولك وأطعنا أمرك ، نطلب غُفْرانَكَ يا ربنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ بالبعث والنشور ، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.

فلمّا تحقق إيمانهم ، وتيقن إذعانهم ، خفّف اللّه عنهم بقوله : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : إلا ما فى طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أما المحال العادي «١» فجائز التكليف به ، وأما المحال العقلي «٢» فيمتنع ، إذ لا يتصور وقوعه ، وإذا كلف اللّه عباده بما يطيقونه ، فكل نفس لَها ما كَسَبَتْ من الخير فتوفى أجره على التمام ، وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ من الشر ، فترى جزاءه ، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

وعبر فى جانب الخير بالكسب ، وفى جانب الشر بالاكتساب ، تعليما للأدب فى نسبة الخير إلى اللّه ، والشر إلى العبد. فتأمله.

ثم قالوا فى تمام دعائهم : رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ، أي : لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلة مبالاة ، وفى الحديث : «إنّ اللّه رفع عن أمتى الخطأ والنّسيان وما حدثت به نفسها».

(١) المحال العادي : كرفع إنسان جبلا.

(٢) المحال العقلي : كالجمع بين الضدين.



البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣١٩

ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلا ، فإن الذنوب كالسموم ، فكما أن تناول السم يؤدى إلى الهلاك ، وإن كان خطأ – فتعاطى الذنوب لا يبعد أن يفضى إلى العقاب ، وإن لم يكن عزيمة ، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلا. ويجوز أن يدعو به الإنسان ، استدامة واعتدادا بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله – عليه الصلاة والسلام – : «رفع عن أمّتى الخطأ والنّسيان» ، أي : فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به ، فدل على عدم امتناعه. قاله البيضاوي.

ثم قالوا : رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً أي : عهدا ثقيلا يأصر ظهورنا ، أي : يثقله ، فتعذبنا بتركه وعدم حمله ، كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا مثل اليهود فى تكليفهم بقتل الأنفس فى التوبة ، وقطع موضع النجاسة ، وغير ذلك من التكاليف الشاقة ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ من التكاليف التي لا تسعها طاقتنا ، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة ، وإلا لما سئل التخلص منه ، وَاعْفُ عَنَّا أي : امح ذنوبنا ، وَاغْفِرْ لَنا أي : استر عيوبنا ، وَارْحَمْنا أي : تعطف علينا. اعْفُ عَنَّا الصغائر ، وَاغْفِرْ لَنا الكبائر ، وَارْحَمْنا عند الشدائد والحسرات ، أَنْتَ مَوْلانا أي : سيدنا وناصرنا ، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

قال البيضاوي : (روى أنه عليه الصلاة والسلام – لمّا دعا بهذه الدعوات قيل له : فعلت). وعنه عليه الصلاة والسلام : «أنزل آيتان من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة ، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه». وهو يردّ قول من استكره أن يقال سورة البقرة ، وقال : ينبغى أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة ، كما قال – عليه الصلاة والسلام – : «السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإنّ تعلّمها بركة ، وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة. قيل : وما البطلة؟ قال : السحرة» «١».

الإشارة : يفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور ، أو عسرت عليه حاجة ، أو نزلت به شدة أو بلية ، فليرجع إلى اللّه ، ولينطرح بين يدى مولاه ، وليعتقد أن الأمور كلها بيده فإن اللّه تعالى لا يخليه من معونته ورفده ، فيخفف عنه ما نزل به ، أو يقويه على حمله ، فإن الصحابة – رضي اللّه

عنهم – لما شق عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم ، فأنزل عليهم التخفيف ، وأسقط عنهم فى ذلك التكليف ، وكل من رجع فى أموره كلها إلى اللّه قضيت حوائجه كلها باللّه. «من علامات النّجح فى النهايات الرجوع إلى اللّه فى البدايات».

---

(١) قال الشهاب الخفاجي فى حاشيته على البيضاوي ، موفقا بن القائلين بكراهة أن يقال : سورة البقرة ، وقول الجمهور بجوازه : إنما المنع من ذلك كان فى صدر الإسلام ، لما استهزأ سفهاء المشركين بسورة العنكبوت ونحوها ، فمنع ذلك دفعا للملحدين. ثم لما استقر الدين ، وقطع اللّه دابر القوم الظالمين ، شاع ذلك وساغ.



---



وقوله تعالى : رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ ، قيل : هو الحب للّه ، فلا يسأل العبد من مولاه من حبه إلا ما يطيقه ، وتأمل قضية الرجل الذي سأل سيدنا موسى عليه السّلام أن يرزقه اللّه حبه ، فلما سأل ربه موسى عليه السّلام هام ذلك الرجل ، وشق ثيابه ، وتمزقت أوصاله حتى مات. فناجى موسى رضى اللّه عنه ربه فى شأنه ، فقال :

يا موسى ، ألف رجل كلهم سألونى ما سأل ذلك الرجل ، فقسمت جزءا من محبتى بينهم ، فنابه ذلك الجزء. أو كما قال سبحانه.

وقال بعض الصالحين : حضرت مجلس ذى النون ، فى فسطاط مصر ، فحزرت «١» فى مجلسه سبعين ألفا ، فتلكم ذلك اليوم فى محبته تعالى فمات أحد عشر رجلا فى المجلس ، فصاح رجل من المريدين فقال : يا أبا الفيض ، ذكرت محبة اللّه تعالى فاذكر محبة المخلوقين ، فتأوه ذو النون تأوها شديدا ، ومد يده إلى قميصه ، وشقه اثنتين ، وقال : آه! غلقت رهونهم ، واستعبرت عيونهم ، وحالفوا السّهاد ، وفارقوا الرّقاد ، فليلهم طويل ، ونومهم قليل ، أحزانهم لا تنفذ. وهموهم لا تفقد ، أمورهم عسيرة ، ودموعهم غزيرة ، باكية عيونهم ، قريحة جفونهم ، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قلت : هذه حالة العباد والزهاد ، أولى الجد والاجتهاد ، غلب عليهم الخوف المزعج ، أو الشوق المقلق ، وأما العارفون الواصلون فقد زال عنهم هذا التعب ، وأفضوا إلى الراحة بعد النصب ، قد وصلوا إلى مشاهدة الحبيب ، ومناجاة القريب ، فعبادتهم قلبية ، وأعمالهم باطنية ، بين فكرة ونظرة ، مع العكوف فى الحضرة ، قد سكن شوقهم وزال قلقهم ، قد شربوا ورووا ، وسكروا وصحوا ، فلا تحركهم الأحوال ، ولا تهيجهم الأقوال ، بل هم كالجبال الرواسي ، نفعنا اللّه بذكرهم ، وجعلنا من

حزبهم. آمين.

قوله تعالى : (و اعف عنا) ، قال الورتجبي : أي : (و اعف عنا) قلة المعرفة بك ، (و اغفر لنا) التقصير فى عبادتك ، (و ارحمنا) بمواصلتك ومشاهدتك. هـ. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وسلام على المرسلين ، والحمد للّه رب العالمين.

---

(١) حزر الشيء حزرا : قدره بالتخمين فهو حازر.



---



## سورة آل عمران

مدنية. وآياتها : مائتان ، وقيل : مائة وسبع وثمانون. وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة ، ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى فى أولها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ ... إلخ ، فكأنه تتميم لقوله ، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ، وتفسير له.

ومضمنها : توجيه العتاب لثلاث طوائف : للنصارى لغلوهم فى عيسى عليه السّلام ، ولامتناعهم من الدخول فى الإسلام ، وبسببهم نزلت السورة ، أعنى نصارى نجران ، ولليهود لتفريطهم فى اتباع النبي – عليه الصلاة والسلام – وللمسلمين لما وقع لهم من الفشل يوم أحد ، ولذلك افتتح السورة بذكر الكتب الثلاثة ، إذ لو قاموا بحقوقها ما توجه لهم عتاب ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)

قلت : فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب لفقدان موجبه ومقتضيه ، فيوقف عليها بالسكون ، كقولهم :

واحد ، اثنان. وإنما فتح الميم هنا فى القراءة المشهورة لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوي. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم ملكه).

قلت : ولعلّ كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجّه العتاب إليهم ، فالآلاء لمن أسلم من النصارى ، واللطف لمن أسلم من اليهود ، والملك لمن أسلم من الصحابة – رضوان اللّه عليهم – ، فقد ملكهم اللّه مشارق الأرض ومغاربها. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الملك المعظّم ، والرسول المفخم ، بلّغ قومك أن اللّه واحد فى ملكه ، ليس معه إله ، ولا يحب أن يعبد معه سواه إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحي القيوم ، الذي تعجز عن إدراكه العقول ومدارك الفهوم ، قائم بأمر عباده ، متصرف فيهم ، على وفق مراده ، فأعذر إليهم على ألسنة المرسلين ، وأنزل عليهم الكتب بيانا للمسترشدين ، فنزّل عَلَيْكَ الْكِتابَ منجّما فى عشرين سنة ، متلبسا بِالْحَقِّ ، حتى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، أو متلبسا بالحجج التي تدفع كل باطل ، أو بالعدل حتى ينتفى به جور كل مائل ، مُصَدِّقاً لما تقدم قبله من الكتب الإلهية إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار ، فكان شاهدا عليها بالصحة والإبرار.

*(٣٢١/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٢ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ

[سورة آل عمران (٣) : آية ٤]

مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٤)

من قبله هاديا لمن كلف باتباعها من الأنام ، أو للجميع ، إذا كان شرع من قبلنا شرعا لنا – معشر أهل الإسلام – ، ثم ختم الوحى بإنزال الْفُرْقانَ ، وكلف بالإيمان به الإنس والجان ، فرّق به بين الحق والباطل ، واندفع به ظلمة كل كافر وجاهل وقدّم ذكره على الكتب لعظم شرفه ، وختم به آخرا لتأخر نزوله.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لمّا أراد الحق جل جلاله أن يشير إلى وحدة الذات وظهور أنوار الصفات ، قدّم قبل ذلك رموزا وإشارات ، لا يفهمها إلا من غاص فى قاموس بحر الذات ، وغرق فى تيار الصفات ، فيستخرج بفكرته من يواقيت العلوم وغوامض الفهوم ، ما تحار فيه الأذهان ، وتكلّ عنه عبارة اللسان ، فحينئذ يفهم دقائق الرموز وأسرار الإشارات ، ويطلع على أسرار الذات وأنوار الصفات ، ويفهم أسرار الكتب السماوية ، وما احتوت عليه من العلوم اللدنية ، والمواهب الربانية ، ويشرق فى قلبه أنوار الفرقان ، حتى يرتقى إلى تحقيق أهل الشهود والعيان. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم هدد من كفر بالفرقان ، بعد وضوح سواطع البرهان ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...

قلت : الانتقام والنقمة : عقوبة المجرم. وفعله : نقم بكسر القاف وفتحها.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على نبيه أو على سائر أنبيائه ، أو الآيات

الدالة على وحدانيته ، لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ يوم يظهر نفوذ الوعد والوعيد ، فينتقم اللّه فيه من المجرمين ، ويتعطف على عباده المؤمنين ، فإن اللَّهُ عَزِيزٌ لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، ذُو انْتِقامٍ كبير ولطف كثير. لطف اللّه بنا وبجميع المسلمين. آمين.

الإشارة : ظهور أولياء اللّه لطف من آيات اللّه ، فمن كفر بهم حرم بركتهم ، وبقي فى عذاب الحجاب وسوء الحساب ، تظهر عليه النقمة والمحنة ، حين يرفع اللّه المقربين فى أعلى عليين ، ويكون الغافلون مع عوام المسلمين ، (ذلك يوم التغابن). واللّه تعالى أعلم.

ولمّا وصف الحق جلّ جلاله نفسه بالوحدانية والحياة والقيومية المقتضية للغنى المطلق ، وصف نفسه أيضا بالعلم المحيط والقدرة النافذة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥ الى ٦]

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٣

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ من أمر خلقه ، إيمانا أو كفرانا ، طاعة أو عصيانا ، أحاط علمه بما فى السموات العلى وما فى الأرضين السفلى ، كليا كان أو جزئيا ، حسيا أو معنويا ، يعلم عدد الحصى والرمال ، ومكاييل المياه ومثاقيل الجبال ، ويعلم حوادث الضمائر ، وهواجس الخواطر ، بعلم قديم أزلى ، وله قدرة نافذة ، وحكمة بالغة ، فبقدرته صوّر النّطف فى الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام ، وأتقنها بحكمته ، وأبرزها إلى ما يسّر لها من رزقه ، سبحانه من مدبر عليم ، عزيز حكيم ، لا يعجزه شىء ، ولا يخرج عن دائرة علمه شىء ، لا موجود سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة : من تحقق أن اللّه واحد فى ملكه ، لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا أفعاله ، وأنه أحاط به علما وسمعا وبصرا ، وأن أمره بين الكاف والنون ، (إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) – كيف يشكو ما نزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعول هما ، وسيده من خيره لا ينساه؟ من دبرك فى ظلمة الأحشاء ، وصوّرك فى الأرحام كيف يشاء ، وآتاك كل ما تسأل وتشاء ، كيف ينساك من بره وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفى ذلك يقول لسان الحقيقة :

تذكّر جميلى فيك إذ كنت نطفة ولا تنس تصويرى لشخصك فى الحشا

وكن واثقا بي فى أمورك كلّها سأكفيك منها ما يخاف ويختشى
وسلّم لى الأمر واعلم بأننى أصرّف أحكامى وأفعل ما أشا
ثم وصف كتابه الفرقان بأنه مشتمل على ما هو محكم واضح البيان ، وعلى ما هو متشابه لا يعلمه إلا اللّه ، والراسخون من أهل العرفان ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧ الى ٩]
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٧) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٩)

*(٣٢٣/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٤
قلت : (منه) : خبر مقدم ، و(آيات) : مبتدأ ، فيوقف على (الكتاب) ، وقيل : (منه) : نعت لكتاب ، وهو بعيد.
قال ابن السبكى : المحكم : المتضح المعنى ، والمتشابه : ما استأثر اللّه بعلمه ، وقد يطلع عليه بعض أصفيائه.
و(هن أم الكتاب) : جملة ، وحق الخبر المطابقة فيقول : أمهات ، وإنما أفرده على تأويل كل واحدة ، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. والزيغ : الميل عن الحق. و(الراسخون فى العلم) : معطوف على (اللّه) ، أو مبتدأ إن فسر المتشابه بما استأثر اللّه بعلمه ، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة ، أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد. قاله البيضاوي. و(إذ هديتنا) : ظرف مجرور بالإضافة مسبوك بالمصدر ، أي : بعد هدايتك إيانا.
يقول الحق جل جلاله : إن الذي انفرد بالوحدانية والقيومية ، ولا يخفى عليه شيء فى العالم العلوي والسفلى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ المبين ، فمنه ما هو آياتٌ مُحْكَماتٌ واضحات المعنى ، لا اشتباه فيها ولا إجمال ، هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أي : أصله ، يرد إليها غيرها ، وَمنه آيات أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ أي : محتملات ، لا يتضح مقصودها لإجمال أو مخالفة ظاهر إلا بالفحص وجودة الفكر ، ليظهر فضل العلماء النقاد ، ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها ، فينال بها ، وبإتعاب القرائح فى استخراج معانيها ، والتوفيق بينها وبين المحكمات ، أعلى

الدرجات وأرفع المقامات.

قال فى نوادر الأصول : لمّا تكلم على المتشابه قسّمه على قسمين منه ما طوى علمه إلّا على الخواص كعلم فواتح السور ، ومنه ما لم يصل إليه أحد من الرسل فمن دونهم ، وهو سر القدر لا يستقيم لهم مع العبودية ، ولو كشف لفسدت العبودية ، فطواه عن الرسل والملائكة لأنهم فى العبودية ، فإذا زالت العبودية احتملوها أي : أسرار القدر. هـ. ولمثل هذا يشير قول سهل : للألوهية سر – لو انكشف لبطلت النبوة ، وللنبوة سر – لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام. هـ.

قلت : فتحصّل أن الكتاب العزيز مشتمل على المحكم والمتشابه. وأما قوله تعالى : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ فمعناه : أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ ، وقوله تعالى : كِتاباً مُتَشابِهاً معناه : أنه يشبه بعضه بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ.

ثم إن الناس فى شأن المتشابه على قسمين : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ : أي : شك ، أو ميل عن الحق ، كالمبتدعة وأشباههم ، فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ، فيتعلقون بظاهره ، أو بتأويل باطل ، ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ أي : طلبا لفتنة الناس عن دينهم : بالتشكيك والتلبيس ، ومناقضة المحكم بالمتشابه ، وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ على ما يشتهون ليوافق بدعتهم.

*(٣٢٤/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٥

روى عن عائشة – رضي اللّه عنها – : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم – قرأ هذه الآية فقال : «إذا رأيتم الذين يسألون عن المتشابه منه ، ويجادلون فيه ، فهم الذين عنا اللّه تعالى ، فاحذروهم ، ولا تجالسوهم».

(و ما يعلم تأويله) على الحقيقة (إلا اللّه) تعالى ، وقد يطلع عليه بعض خواص أوليائه ، وهم (الراسخون) أي : الثابتون فى العلم ، وهم العارفون باللّه أهل الفناء والبقاء ، وهم أهل التوحيد الخاص ... فقد أطلعهم تعالى على أسرار غيبه ، فلم يبق عندهم متشابه فى الكتاب ولا فى السنة ، حال كونهم (يقولون آمنا به) ، وصدقنا أنه من كلامه ، (كلّ من عند ربنا) المحكم والمتشابه ، وقد فهمنا مراده فى القسمين ، وهم أولو الألباب ، ولذلك مدحهم فقال :

(و ما يذكّر إلا أولوا الألباب) أي : القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغبش الحس.

سئل عليه الصلاة والسلام : من الراسخون فى العلم؟ فقال : «من برّ يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعفّ بطنه وفرجه ، فذلك الراسخ فى العلم». وقال نافع بن يزيد : الراسخون فى العلم : المتواضعون لله ، المتذللون فى طلب مرضات اللّه ، لا يتعظمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من

دونهم. هـ. وقيل : الراسخ فى العلم : من وجد فيه أربعة أشياء : التقوى بينه وبين اللّه ، والتواضع بينه وبين الخلق ، والزهد بينه وبين الدنيا ، والمجاهدة بينه وبين نفسه. هـ. قلت : ويجمع هذه الأوصاف العارف باللّه ، فهو الراسخ فى العلم كما تقدم.

ويقولون أيضا فى تضرعهم إلى اللّه : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى ، بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا إلى طريق الوصول إلى حضرتك ، وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً تجمع قلوبنا بك ، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تهب للمؤمل فوق ما يؤمل. رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ الجزاء الذي لا رَيْبَ فِيهِ ، فاجمعنا مع المقربين إنك لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ، فأنجز لنا ما وعدتنا فى ذلك اليوم. وخلف الوعد فى حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال ، وأما الوعيد بالشر ، فإن كان فى معيّن فلا يخلفه ، وإن كان فى الجملة فيخلفه بالعفو. واللّه تعالى أعلم.

وقال فى النوادر أيضا : لمّا ردّ الراسخون فى العلم علم المتشابه إلى عالمه ، حيث قالوا : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ، خافوا شره النفوس لطلبها فإنّ العلم لذيذ ، وفتنة تلك اللذة لها عتاب ، ففزعوا إلى ربهم فقالوا : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، علموا أن الرحمة تطفئ تلك الفتنة. ولما كان يوم القيامة ينكشف فيه سر القدر حنوا إليه فقالوا : رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ ... الآية. سكنوا نفوسهم لمجيء ذلك اليوم الذي تبطن فيه الحكمة ، وتظهر فيه القدرة. هـ. بالمعنى.

الإشارة : إذا صفت القلوب ، وسكنت فى حضرة علام الغيوب ، تنزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية ، والمواهب القدسية ، فمنها ما تكون محكمات المبنى ، واضحات المعنى ، ومنها ما تكون مجملة فى حال ورودها ،



---



وبعد الوعى يكون البيان ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

.

وقد تكون خارجة عن مدارك العقول. فأما أهل الزيغ والانتقاد فيتبعون المتشابه من تلك الواردات ، ابتغاء فتنة العامة ، وصرفهم عن طريق الخاصة ، وابتغاء تأويله ، ليقيم عليه حجة الشريعة ، (و ما يعلم تأويله إلا اللّه) ، أو من تحقق فناؤه فى اللّه ، وهم الراسخون فى معرفة اللّه ، يقولون : (آمنا به كل من عند ربنا) إذ القلوب المطهرة من الهوى لا تنطق عن الهوى ، وهم أرباب القلوب يقولون : (ربنا لا تزغ قلوبنا) عن حضرة قدسك (بعد إذ هديتنا) إلى الوصول إليها ، (و هب لنا من لدنك رحمة) تعصمنا من النظر إلى سواك ، (إنك أنت الوهاب) ربنا إنك جامع الناس. وهم السائرون إليك ليوم لا ريب فى

الوصول إليه ، وهو يوم اللقاء ، (إنك لا تخلف الميعاد) فاجمع بيننا وبينك ، وحل بيننا وبين من يقطعنا عنك (إنك على كل شيء قدير).

ثم هدد أهل الزيغ والفساد ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠ الى ١١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (١١)

قلت : (الوقود) بالفتح : الحطب ، وبالضم : المصدر ، (كدأب آل فرعون) خبر ، أي : دأبهم كدأب آل فرعون.

والدأب : مصدر دأب ، إذا دام ، ثم نقل إلى الشأن والعادة ، و(كذبوا) : حال بإضمار «قد» ، أو مستأنف ، تفسير حالهم ، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزلته ، على نبينا محمد – عليه الصلاة السلام – ، إذا عاينوا العذاب لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، أي : بدلا من رحمته أو طاعته ، أو بدلا من عذابه ، شَيْئاً ، وأولئك هم حطب جهنم ، فشأنهم كشأن آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، قد كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أي : أهلكهم ، وشدد العقوبة عليهم ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن أعرض عنه وركن إلى غيره.

الإشارة : كل من جحد أهل الخصوصية ، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية ، حتى حصل له الطرد والبعاد ، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد ، لن تغنى عنه – بدلا مما فاته – أموال ولا أولاد ، واتصلت به الأحزان والأنكاد كما قال الشاعر :

من فاته منك وصل حظّه الندم ومن تكن همّه تسمو به الهمم



---



وقال آخر :

من فاته طلب الوصول ونيله منه ، فقل : ما الذي هو يطلب!

حسب المحبّ فناؤه عما سوى محبوبه إن حاضر ومغيّب

وقال آخر :

لكلّ شيء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض

وفى الحكم : «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد

خسر من بغى عنك متحولا». فكل من وقف مع شيء من السّوى ، وفاته التوجه إلى معرفة المولى ، فهو فى نار القطيعة والهوى ، مع النفوس الفرعونية ، وأهل الهمم الدنية. نسأل اللّه تعالى العافية.

ثم بدأ بعتاب اليهود ، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمتشابه ، توطئة للكلام معهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٢) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (١٣)

قلت : لمّا رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من غزوة بدر غالبا منصورا بالغنائم والأسارى ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع ، وقال لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا اللّه وأسلموا ، فإنكم تعلمون أنى رسول اللّه حقا ، واحذروا أن ينزل اللّه بكم من نقمته ما أنزل على قريش يوم بدر ، فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنّك لا أنك لقيت أغمارا لا علم لهم بالحرب ، لئن قاتلتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس. فأنزل اللّه فيهم هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لِلَّذِينَ كَفَرُوا من بنى إسرائيل ، أو مطلقا : سَتُغْلَبُونَ إن قاتلتم المسلمين ، وَتُحْشَرُونَ بعد الموت والهزيمة إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ ما مهدتم لأنفسكم من العذاب ، وقد صدق وعده بقتل قريظة ، وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم. فقد غلبوا أينما ثقفوا ، وحشروا إلى جهنم ، إلا من أسلم منهم.

ثم ندبهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم : قَدْ كانَ لَكُمْ يا معشر اليهود ، آيَةٌ أي :

عبرة ظاهرة ، ودلالة على صدق ما أقول لكم : إنكم ستغلبون ، فِي فِئَتَيْنِ أي : جماعتين الْتَقَتا يوم بدر ، وهم



---



المسلمون ، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر ، والمشركون كانوا زهاء ألف ، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وهم المؤمنون ، وَأُخْرى كافِرَةٌ ، وهم المشركون ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ أي : ترون ، يا معشر اليهود ، الكفار مثلى عدد المسلمين رأى تحقيق ، ومع ذلك أيدهم اللّه بالنصر والمدد حتى نصرهم على عدوهم ، وكذلك يفعل بهم معكم.

والرؤية ، على هذا ، علمية. ومن قرأ (بالياء) يكون الضمير راجعا للكفار ، أي : يرى الكفار المسلمين مثليهم ، وذلك بعد أن قللهم اللّه فى أعينهم حتى اجترءوا عليهم ، وتوجهوا إليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، مددا من اللّه للمؤمنين.

أو : يرى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين ، وكانوا ثلاثة أمثالهم ، ليثبتوا لهم ، ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم اللّه بقوله : إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ... الآية. وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ أي : يقوى بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ نصره ، كما أيد أهل بدر ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ المفتوحة. وذلك حين نصر اللّه قوما لا عدد لهم ولا عدة ، على قوم لهم عدد وعدة ، فلم تغن عنهم من اللّه شيئا.

الإشارة : إذا توجه القلب إلى مولاه تعرض له جندان ، أحدهما : جند الأنوار ، وهو جند القلب ، والثاني : جند الأغيار ، وهو جند النفس ، فيلتحم بينهما القتال ، فجند الأنوار يريد أن يرتقى بالروح إلى وطنها وهو حضرة الأسرار ، وجند الأغيار يريد أن يهبط بالنفس إلى أرض الحظوظ والشهوات ، فيحبسها فى سجن الأكوان ، فإذا أراد اللّه تعالى سعادة عبد ، قوى له جند الأنوار ، وضعّف عنه جند الأغيار ، فينهزم عنه جند الأغيار ، ويستولى على قلبه جند الأنوار ، فلا تزال الأنوار تتوارد عليه حتى تشرق عليه أنوار المواجهة ، فيدخل حضرة الأسرار ، وهى حضرة الشهود ، ويتحصن فى جوار الملك الودود ، وتناديه ألسنة الهواتف : أيها العارف ، قل للذين كفروا ، وهم جند الأغيار : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. وإذا أراد اللّه خذلان عبده ، بعدله ، قطع عنه مدد الأنوار ، وقوى لديه جند الأغيار ، فتستولى ظلمة النفس على نور القلب ، فتحبسه فى سجن الأكوان ، وتسجنه فى ظلمة هيكل الإنسان ، (و اللّه يويد بنصره من يشاء). ففى التقاء جندى الأنوار والأغيار عبرة لأولى الأبصار.

ثم بيّن الحق تعالى مدد جند الأغيار ، والذي منع الأبصار من الاعتبار ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

*(٣٢٨/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٢٩

قلت : (زين) : بحذف الفاعل ، وهو اللّه ، حقيقة إذ لا فاعل سواه ، أو الشيطان ، شريعة إذ هو منديل لمسح أوساخ الأقذار. والقنطار : المال الكثير ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : ملء مسك الثور. وروى عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «القنطار : ألف دينار» ، وفى رواية : «ألفا دينار» ،

وفى عرفنا اليوم : ألف مثقال.

والمقنطرة : المنضدة بعضها فوق بعض ، وسمى الذهب ذهبا لذهابه وفنائه ، أو لذهابه بالقلوب عن حضرة الغيوب ، وسميت الفضة فضة لأنها تنفض أي : تنفرق ، أو تفرق القلوب لمن اشتغل بها.

والمسوّمة : المعلمة أو الراعية أو المطهمة الحسان.

يقول الحق جل جلاله : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ والركون إلى المألوفات ، حتى صرفهم ذلك عن النظر والاعتبار ، أو الشهود والاستبصار ، وذلك لمن وقف مع متعتها ، وغرته شهوة لذتها ، وأما من ذكرته نعيم الجنان ، وأعانته على طاعة الملك الديان ، فلم يقف مع متعتها ، ولا التفت إلى عاجل شهوتها ، بل نزل إليها بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، فلا يشمله تحذير الآية لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث ...» الحديث.

وقال بعض الأولياء : [كل شهوة تحجب القلب عن اللّه ، إلا شهوة الجماع ] يعنى الحلال ، وقال الورتجبي :

ابتلاهم حتى يظهر الصادق بترك هذه الشهوات ، من الكاذب بالشروع فى طلبها ، قيل : من اشتغل بهذه الأشياء قطعته عن طريق الحق ، ومن استصغرها وأعرض عنها ، عوض عليها السلامة منها ، وفتح له الطريق إلى الحقائق. هـ.

ثم بدأ برأس الشهوات فقال : مِنَ النِّساءِ وذلك لمن شغف بهن فصرف عن ذكر اللّه ، أو تناولهن على وجه الحرام. وفى الخبر عنه – عليه الصلاة والسلام – : «ما تركت فى الناس بعدي فتنة أضرّ على الرّجال من النّساء».

وفى خبر آخر : «النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس». ومن ثمّ جعلن فى القرآن عين الشهوات ، قال تعالى :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ.

وقال بعض العارفين : ما أي الشيطان من إنسان قط إلا أتاه من قبل النساء. وقال على رضى اللّه عنه : أيها الناس ، لا تطيعوا للنساء أمرا ، ولا تدعوهنّ يدبرن أمر عيش ، فإنهن إن تركن وما يردن أفسدن الملك ، وعصين المالك ، وجدناهن لا دين لهن فى خلواتهن ، ولا ورع لهن عند شهواتهن ، اللذة بهن يسيرة ، والحيرة بهن كثيرة ، فأما صوالحهن ففاجرات ، وأما طوالحهن فعاهرات – أي : زانيات – ، وأما المعصومات فهن المعدومات ، يتظلمن وهن

الظالمات ، ويتمنعن وهن الراغبات ، ويحلفن وهن الكاذبات ، فاستعيذوا باللّه من شرارهن ، وكونوا على وجل من خيارهن ، والسلام. هـ. «١»

وَالْبَنِينَ : قال – عليه الصلاة والسلام – : «إنهم لثمرة القلوب ، وقرّة الأعين ، وإنهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة». وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ : أي : المجموعة المنضدة ، مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ أي : المعلمة : وهى البلق ، أو غيرها ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم». وعن أنس قال : (لم يكن شيء أحب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بعد النساء ، من الخيل). وعن أبى وهب الجشمي قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ارتبطوا الخيل ، وامسحوا بنواصيها ، وقلّدوها ، ولا تقلدوها الأوتار ، وعليكم بكل كميت «٢» أغر محجّل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجّل». وعن خباب رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان ، فأما فرس الرحمن فما اتخذ لله فى سبيل اللّه ، وقوتل عليه أعداء اللّه ، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه – أي : ركب عليه فى طريق حوائجه ، وأما فرس الشيطان فما روهن عليه ، وقومر عليه». وفى البخاري ما يشهد لهذا.

ومما زين للناس أيضا : حب الْأَنْعامِ ، وهى الإبل والبقر والغنم ، إن شغلته عن ذكر اللّه ، ومنع منها حق اللّه ، وَالْحَرْثِ أي : الزراعة والغراسة ، ذلِكَ الذي ذكرت مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا الفانية الزائلة ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، أي : المرجع فى دار البقاء التي لا يفنى نعيمها ، ولا تنقطع حياتها إلى أبد الأبد.

الإشارة : كل ما يقطع القلب عن الشهود ، أو يفتّره عن السير إلى الملك المعبود ، فهو شهوة ، كائنا ما كان ، أغيارا أو أنوارا ، أو علوما أو أحوالا ، أو غير ذلك ، فالنساء الأغيار ، والبنون الأنوار ، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة ، والفضة علوم الشريعة ، والخيل المسومة هى الأحوال ، والأنعام الأذكار ، والحرث استعمال الفكرة.

فكل من وقف مع حلاوة شيء من هذا ، ولم يفض إلى راحة الشهود والعيان ، فهى فى حقه شهوة. وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعا من الشهوات ، زهّد فيها فقال : ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قال أبو هاشم الزاهد رضي اللّه عنه : وسم اللّه الدنيا بالوحشة ليكون أنس المريد بربه دونها ، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها ، وأهل المعرفة باللّه من الدنيا مستوحشون ، وإلى اللّه مشتاقون. هـ.

---

(١) هذا الكلام مشكوك فى نسبته لسيدنا «على» كرم الله وجهه. ومن يستطلع تاريخ السلف الصالح يقف على أمثلة كثيرة وعديدة لنساء صالحات تفوقن على كثير من الرجال فى الصلاح.

(٢) الكميت : مالونه بين السواد والحمرة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣١

وقد تعوذ النبي صلّى اللّه عليه وسلم من شر فتنتها ، غناها وفقرها. وأكثر القرآن مشتمل على ذمها ، وتحذير الخلق منها ، بل ما من داع يدعو إلى اللّه تعالى إلا وقد حذر منها ، ورغّب فى الآخرة ، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع ، وكيف لا – وهى عدوة اللّه لقطعها طريق الوصلة إليه ، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدوة لأوليائه لأنها تزينت بزينتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها ، وعدوة لأعدائه لأنها استدرجتهم بمكرها ، واقتنصتهم بشبكتها ، فوثقوا بها ، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. كفانا اللّه شرها بمنّه وكرمه.

ثم نبه الحق تعالى على ما هو المقصود الأهم لمن له عقل وافر ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥ الى ١٧]

قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (١٧)

قلت : (للذين) : خبر ، و(جنات) : مبتدأ ، وهو استئناف لبيان الخيرية ، والرضوان فيه لغتان : الضم والكسر ، كالعدوان والطغيان ، و(الذين يقولون) : بدل من (الذين اتقوا) ، أو خبر عن مضمر ، أو منصوب على المدح ، أو بدل من العباد ، و(الصابرين) وما بعده : نعت الموصول.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : أأخبركم بِخَيْرٍ من الذي ذكرت لكم من الشهوات الفانية واللذات الزائلة ، وهو ما أعد اللّه للمتقين عند لقاء ربهم ، وهو جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تحت قصورها الأنهار من الماء واللبن والعسل والخمر ، خالِدِينَ فِيها ، لا كنعيم الدنيا الفاني ، ولهم فيها أَزْواجٌ من الحور العين ، مطهرات من الحيض والنفاس وسائر المستقذرات ، وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ الذي هو (أكبر) النعم.

فانظر : كيف ذكر الحق – جل جلاله – أدنى النعيم وأوسطه وأعلاه؟ فأدناه : متاع الدنيا الذي زين للناس ، وأوسطه : نعيم الجنان ، وأعلاه : رضى الرحمن. وفى الحديث الصحيح عنه صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه تعالى لأهل الجنّة :

يا أهل الجنّة ، فيقول أهل الجنّة : لبّيك ربّنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا ربنا ، وأىّ شىء أفضل من ذلك؟ قال : أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا».

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٢

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، فيثيب المحسن ، ويعاقب المسيء ، أو : (بصير) بأحوال المتقين.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ. وفى ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف فى استحقاق المغفرة والاستعداد لها.

ثم وصف المتقين بقوله : الصَّابِرِينَ على أداء الأمر واجتناب النهى ، وفى البأساء والضراء وحين البأس ، وَالصَّادِقِينَ فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فاستوى سرهم وعلانيتهم ، وَالْقانِتِينَ أي : المطيعين ، وَالْمُنْفِقِينَ أموالهم فى سبيل اللّه ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة لأن العبادة حينئذ أشق ، والنفس أصفى ، والروح أجمع ، ولا سيما للمتهجدين.

قيل : إنهم كانوا يصلون إلى السحر ، ثم يستغفرون ويدعون ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : (إن اللّه تعالى يقول : إنى لأهمّ بأهل الأرض عذابا ، فإذا نظرت إلى عمّار بيوتى ، وإلى المتهجدين ، وإلى المتحابين فىّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار ، صرفت عنهم العذاب).

وقال سفيان : إن لله ريحا يقال لها الصيحة ، تهبّ وقت السحر ، تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار.

قال : وبلغنا أنه إذا كان أول الليل ، نادى مناد : ألا ليقم القانتون ، فيقومون يصلون إلى السحر ، فإذا كان وقت السحر ، ينادى مناد : أين المستغفرون بالأسحار؟ فيستغفر أولئك ، ويقوم آخرون ، ويصلون ، فيلحقون بهم ، فإذا طلع الفجر ، نادى مناد : ألا ليقم الغافلون ، فيقومون من فرشهم كالموتى إذا نشروا من قبورهم.

الإشارة : للذين اتقوا شهود السّوى عند ربهم جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، وأصناف الحكم ، مطهرة من العلل ، منزهة من الخلل ، تهب عليهم نسيم الرضوان ، تحمل الرّوح والريحان ، مخلدون فى نعيم الشهود والعيان ، واللّه بصير بعباده المخلصين ، المنزّهين من العيوب ، المبرّئين من درن الذنوب ، الصابرين على دوام المجاهدة ، والصادقين فى طلب المشاهدة ، والقانتين لأحكام العبودية ، والمنفقين أنفسهم ومهجهم فى طلب مشاهدة أنوار الربوبية ، والمستغفرين من شهود الأغيار ، وخصوصا إذا هب نسيم الأسحار ، فإن كثيرا من العباد والزهاد شغلتهم حلاوة نسيم الأسحار عن مطالعة أسرار الجبار ، وهى أسرار التوحيد التي أشار إليها بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨]

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٣

قلت : (قائما) : حال من (اللّه) ، وإنما جاز من بعض المعطوفات لعدم اللبس ، كقوله : وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ... ، ولا يجوز : جاء زيد وعمرو راكبا لعدم القرينة ، أو من (هو) ، والعامل الجملة لأنه حال مؤكدة ، أي : تفرد قائما ، أو حقه قائما ، (بالقسط) أي : العدل ، و(إن الدين) : جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أي : لا دين مرضى عند اللّه سوى الإقرار بالشهادة والدخول فيما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ومن قرأ بالفتح فهو بدل من (أنه) ، بدل الكل ، إن فسر الإسلام بالإيمان ، وبدل الاشتمال إن فسر بالشريعة.

يقول الحق جل جلاله : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها ، وإنزال الآيات الناطقة بها ، أو بتدبيره العجيب وصنعته المتقنة وأموره المحكمة ، وفى ذلك يقول القائل :

يا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟!

وللّه فى كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد

وفى كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد «١»

وقيل لبعض العرب : ما الدليل على أن للعالم صانعا؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوى بهذه اللطافة ، ومركز سفلى بهذه الكثافة ، أما يدلان على الصانع الخبير؟! وَشهدت الْمَلائِكَةُ أيضا بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها ، وَأُولُوا الْعِلْمِ وهم : الأنبياء والعلماء باللّه ، بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك فى البيان والكشف بشهادة الشاهد. وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم ، حيث قرن شهادتهم بشهادته لأن العلم صفة اللّه العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام ، والسابقون إلى دار السلام ، وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة.

وعن جابر قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ساعة من عالم يتّكىء على فراشه ، ينظر فى علمه ، خير من عبادة العابد سبعين عاما». وعن معاذ قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، ومدارسته تسبيح ، والبحث فيه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وتذكّره فى أهله قربة». ثم قال فى آخر الحديث فى فضل أهل العلم : «وترغب الملائكة فى خلّتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وفى صلاتها تستغفر لهم ، وكلّ رطب ويابس يستغفر لهم. حتى حيتان البحر وهوامّه ، وسباع الأرضين وأنعامها ، والسماء ونجومها ، ألا وإن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك ، والفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ،

يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء».

---

(١) الأبيات لأبى العتاهية ، انظر ديوانه ١٢٢. وذكرها الأصبهانى فى محاضرات الأدباء ٣/ ٣٩٨ منسوبة للبيد.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٤

حال كون الحق تعالى قائِماً بِالْقِسْطِ أي : مدبّرا لأمر خلقه بالعدل ، فيما حكم وأبرم ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، كرر الشهادة للتأكيد ، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد ، والحكم به ، بعد إقامته الدليل. عليه وقال جعفر الصادق :

(الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم). أي : قولوا : لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، أو ليرتب عليه قوله : الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فيعلم أنه الموصوف بهما ، وقدّم «العزيز» ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ أي : إن الدين المرضى عند اللّه هو الانقياد لأمر التوحيد والإذعان لمن جاء به. وروى عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من قرأ هذه الآية عند منامه خلق اللّه تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون اللّه له إلى يوم القيامة» «١». وهى أعظم شهادة فى كتاب اللّه ، «من قرأها إلى (الحكيم) وقال : وأنا أشهد بما شهد اللّه به ، وأستودع اللّه هذه الشهادة ، وهى لى عند اللّه وديعة ، يقول الحق تعالى : إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحقّ من وفّى بالعهد ، أدخلوا عبدى الجنة» «٢».

الإشارة : صدر الآية يشير إلى الفرق ، وعجزها يشير إلى الجمع ، كما هى عادته تعالى فى كتابه العزيز ، يشرع أولا ، ويحقّق ثانيا ، فأثبت الحق – جل جلاله – شهادة الملائكة وأولى العلم مع شهادته لإثبات سر الشريعة ، ثم محاها بقوله : (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) بحكم الحقيقة. فإثبات الرسوم شريعة ، ومحوها حقيقة ، فتوحيد أهل الرسوم والأشكال دلالة من وراء الحجاب ، وتوحيد أهل المحو والاضمحلال شهادة من داخل الحجاب ، وتوحيد أهل الرسوم دلالة وبرهان ، وتوحيد أهل المحو شهادة وعيان ، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

إثبات الرسوم إسلام وإيمان ، ومحوها شهود وإحسان ، وكل توحيد لم تظهر ثمرته على الجوارح من

الإذعان والانقياد لأحكام العبودية فهو مخدج «٣» ، لقوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ أي ، الانقياد والإذعان ، ظاهرا وباطنا ، لأحكام القهرية والتكليفية ، فمن لا انقياد له لا دين له كاملا.

ثم ذكر من سبق له الخذلان بعد سطوع الدليل والبرهان ، فقال :

وَمَا اخْتَلَفَ ...

---

(١) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٨ وعزاه لأبى نعيم ، من حديث أنس. وفيه مجاشع بن عمرو ، قال ابن معين : أحد الكذابين.

(٢) أخرجه الطبراني فى الكبير والبيهقي فى الشعب ، قال فى العلل المتناهية ١/ ١١٠ : هذا حديث لا يصح ، تفرد به عمر بن المختار ، وعمر يحدث بالأباطيل.

(٣) الخداج : هو النقصان. وأصله : من خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه ، لغير تمام الأيام ، وإن كان تام الخلق ، أو ألقته ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة ، فهى مخدج والولد مخدج.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٥

قلت : (بغيا) : مفعول له ، علة للاختلاف.

يقول الحق جل جلاله : وَمَا اخْتَلَفَ اليهود والنصارى فى حقيقة الإسلام والتدين به ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أي : من بعد ما تمكنوا من العلم بصحته ، وأن الدين عند اللّه هو الإسلام ، فجحدوه ظلما وحسدا.

أو ما اختلف أرباب الكتب المتقدمة فى دين الإسلام فأثبته قوم ، وقال قوم : إنه مخصوص بالعرب ، ونفاه آخرون مطلقا ، إلا من بعد ما ثبت لهم العلم بصحته وعموم الدعوة له. أو فى التوحيد فثلث النصارى ، وقالت اليهود :

عزيز ابن اللّه ، بعد ما صح لهم العلم بالتوحيد فغيروا. وقال الربيع : إن موسى عليه السّلام لما حضره الموت ، دعا سبعين حبرا من قومه ، فاستودعهم التوراة ، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت بينهم الفرقة ، وهم :

الذين أوتوا الكتاب من أبناء السبعين ، فأراقوا الدماء ووقع بينهم الشر والاختلاف.

وذلك من بعد ما جاءهم العلم ، يعنى بيان ما فى التوراة ، (بغيّا بينهم) أي : طلبا للملك والرئاسة والتحاسد ، فسلط عليهم الجبابرة ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على رسوله ، أو الدالة على وحدانيته ، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لا يشغله شأن عن شأن ، وفيه تهديد لأهل الاختلاف.

الإشارة : الاختلاف على الصوفية ، والإنكار عليهم ، إن كان بغيا وحسدا وخوفا على زوال رئاسة المنكر ، فهذا معرض لمقت اللّه ، فقد آذن بحرب اللّه ، وباله سوء الخاتمة ، والعياذ باللّه ، وفى ذلك يقول القائل :

هممهم تقضى بحكم الوقت منكرهم معرّض للمقت

وإن كان غيرة على الشريعة ، وسدّا لباب الذريعة ، فهذا معذور أو مأجور إن صح قصده ، وهو منخرط فى سلك الضعفاء ، قال تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، ولا ينكر على الفقير إلا المحرّم المجمع على تحريمه ، وليس فيه تأويل ، كالزنى بالمعينة ، واللواط ، وشبهه ، والمؤمن يلتمس المعاذر ، والمنافق يلتمس العيوب ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق تعالى الدواء فى أذى المنكر ، وهو الإعراض عنه ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٠]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٢٠)

قلت : (و من اتبعن) ، عطف على فاعل (أسلمت) الضمير «١».

---

(١) أي : التاء في أسلمت.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٦

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ حَاجُّوكَ فى الدين ، وخاصموك فيه ، بعد ما أقيمت الحجج على صحته ، فَقُلْ لهم : أما أنا فقد أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ، وانقدت بكليتى إليه ، وتمسكت بدينه القويم ، الذي قامت الحجج على حقيته ، وكذلك من تبعني من المؤمنين. وخص الوجه بالانقياد لأنه أشرف الأعضاء ومحل ظهور المحاسن ، فإذا انقاد الوجه فقد انقاد الكل.

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود والنصارى ، وَالْأُمِّيِّينَ الذين لا كتاب لهم من المشركين : أَأَسْلَمْتُمْ كما أسلمت ، لما وضحت لكم من الحجة؟ أم أنتم على كفركم بغيا وحسدا؟ والاستفهام معناه الأمر ، كقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : أسلموا ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وأنقذوا أنفسهم من الهلاك ، وَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، ولا يضرك عنادهم ، فقد بلغت ما أمرت به. وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ لا يخفى عليه من أسلم ممن تولى.

روى أنه – عليه الصلاة والسلام – قرأ عليهم هذه الآية ، فقال لليهود : «أتشهدون أن عزيرا عبد اللّه ورسوله وكلمته؟» فقالوا : معاذ اللّه ، وقال للنصاوى : «أتشهدون أن عيسى عبد اللّه ورسوله؟» فقالوا : معاذ اللّه أن يكون عيسى عبدا. فنزل قوله تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الآية.

الإشارة : لا يليق بالفقير ، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار ، إلا السكوت والإقرار ، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار ، إذ لا يرى فاعلا إلا اللّه ، فلا يركن إلى شيء سواه. وفى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليهم لئلا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء ، حتى لا تكون ساكنا إلى شى ء». وقال بعض العارفين : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك ، وقد غلط فى هذا خلق كثير ، اشتغلوا بمن يؤذيهم ، فطال عليهم الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم. هـ. بالمعنى. وبهذا يأمر الشيخ أتباعه ، فإن انقادوا لأحكام الحق ، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والهداية بيد السميع البصير.

ثم وبّخ اليهود بما وقع لأسلافهم من البغي والفساد ، وهم راضون بذلك ، فقال :

**[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢١ الى ٢٢]**

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٢)

قلت : إنما دخلت الفاء فى خبر إنّ لتضمن اسمها معنى الشرط لعموم الموصول وإبهامه ، وهو خاص بإنّ ، دون ليت ولعل لأن «إن» لا تغير معنى الابتداء ، وإنما تؤكده. وقيل : الخبر : (أولئك ..) إلخ.

*(٣٣٦/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٣٧

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ أي : بحججه الدالة على توحيده ، وصحة نبوة رسله ، أو بكلامه ، وهم اليهود ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ بل بغيا وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالعدل وترك الظلم من الأحبار ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ موجع ، أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أي : بطلت ، فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فلا ينتفعون بها فى الدارين ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يمنعونهم من العذاب.

وعن أبى عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه قال : سألت النبي صلّى اللّه عليه وسلم أىّ النّاس أشدّ عذابا يوم القيامة؟ قال : «رجل قتل نبيا ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، ثم قرأ النبي صلّى اللّه عليه وسلم وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ الآية ، ثم قال : يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أوّل النّهار فى ساعة ، فقام مائة وعشرون من عبّاد بنى إسرائيل فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم جميعا من آخر النّهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكرهم فى كتابه ، وأنزل الآية فيهم». هـ.

من الثعلبي.

الإشارة : ذكر فى الآية الأولى تشجيع المريدين ، وأمرهم بالصبر والتسليم لإذاية المؤذين ، وذكر هنا وبال المؤذين الجاحدين لخصوصية المقربين ، فالأولياء والعلماء ورثة الأنبياء ، فمن آذاهم فله عذاب أليم ، فى الدنيا بغم الحجاب وسوء المنقلب ، وفى الآخرة بالبعد عن ساحة المقربين ، وبالسقوط إلى درك الأسفلين ، واللّه تعالى أعلم.

ومن مساوئ اليهود أيضا إعراضهم عن الحق إذا توجه إليهم ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥)

قلت : التنكير فى (نصيب) يحتمل التحقير والتعظيم ، والأول أقرب. وجملة : (و هم معرضون) حال من (فريق) لتخصيصه بالصفة.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو من تصح منه الرؤية ، إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ وهم : اليهود ، تمسكوا بشيء من التوراة ، ولم يعملوا به كلّه ، كيف يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ القرآن لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد وصحة نبوته – عليه الصلاة والسلام ، فأعرضوا عنه ، أو المراد بكتاب اللّه : التوراة. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى اللّه تعالى ، فقال نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أىّ دين أنت يا محمّد؟ قال : «على ملّة إبراهيم» قالا : إنّ إبراهيم كان



---



يهوديا ، فقال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «فهلمّوا إلى التّوراة فهى بيننا وبينكم» فأبيا عليه ، فنزلت الآية). وقيل : نزلت فى الرجم ، على ما يأتى فى العقود.

ذلِكَ الإعراض بسبب اغترارهم وتسهيلهم أمر العقاب ، فقالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ أربعين يوما ، قدر عبادتهم العجل ، ثم يخلفهم المسلمون ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ بزعمهم الفاسد وطمعهم الفارغ.

يقول الحق جل جلاله : فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، وهذا تهويل لشأنهم ، واستعظام لما يحيق بهم ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من خير أو شر ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أي : لا ينخسون من أعمالهم

شيئا ، فلا ينقص من الحسنات ، ولا يزاد على السيئات. وفيه دليل على أن المؤمن لا يخلد فى النار.
قال ابن عباس : (أول راية ترفع لأهل الموقف ، ذلك اليوم ، راية اليهود ، فيفضحهم اللّه تعالى على رءوس الأشهاد ، ثم يؤمر بهم إلى النار).
الإشارة : ترى كثيرا ممن ينتسب إلى العلم والدين ينطلق لسانه بدعوى الخصوصية ، وأنه منخرط فى سلك المقربين ، فإذا دعى إلى حق ، أو وقف على عيب من عيوب نفسه ، أعرض وتولى ، وغرته نفسه ، وغلبه الهوى ، فجعل يحتج لنفسه بما عنده من العلم أو الدين ، أو بمن ينتسب إليهم من الصالحين ، فكيف يكون حاله إذا أقبل على اللّه بقلب سقيم ، ورأى منازل أهل الصفا ، الذين لقوا اللّه بقلب سليم ، حين ترفع درجاتهم مع المقربين ، ويبقى هو مع عوام أهل اليمين؟ قال تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ الآية.
ثم ذكر الحق تعالى نزع ملك أهل الكتاب ، وسلب عزهم ، وانتقاله إلى المسلمين ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]
قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)
قلت : (اللهم) منادى مبنى على الضم ، حذفت منه الياء المتضمنة للفرق ، وعوضت منها الميم المؤذنة بالجمع ، لئلا يبقى بين الداعي والمدعو فرق «١» ، و(مالك) : نعت لمحل المنادى لأنه مفعول ، ومنادى ثان عند سيبويه ، لأن الميم عنده تمنع الوصفية.
يقول الحق جل جلاله : قُلِ يا محمد فى استنصارك على عدوك : اللَّهُمَّ يا مالِكَ الْمُلْكِ ملك الدنيا وملك الآخرة ، تُؤْتِي الْمُلْكَ والنصر مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، فهب لنا ملك الدارين ،

---

(١) هذا توجيه إشارى. [.....]



---


والنصر على الأعداء فى كل أين ، وأنزع الملك من يد عدونا ، وانقله إلينا وإلى من تبعنا إلى يوم الدين.
قال قتادة :
(ذكر لنا أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية).

وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ بالإيمان والطاعة وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بالكفر والمعصية ، أو تعز من تشاء بالمعرفة ، وتذل من تشاء بالفكرة ، أو تعز من تشاء بالقناعة والورع ، وتذل من تشاء بالحرص والطمع ، أو تعز من تشاء بالتوفيق والإذعان ، وتذل من تشاء بالكسل والخذلان ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ كله ، فأعطنا من خيرك الجزيل ، وأجرنا من الشر الوبيل ، فالأمور كلها بيدك.

قال البيضاوي : ذكر الخير وحده لأنه المقضى بالذات ، والشر مقتضى بالعرض إذ لا يوجد شر جزئى ما لم يتضمن خيرا كليا. أو لمراعاة الأدب فى الخطاب ، أو لأن الكلام وقع فيه ، إذ روى أنه عليه الصلاة والسلام – لمّا خطّ الخندق ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا ، وأخذوا يحفرون ، فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول ، فوجّهوا سلمان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يخبره ، فجاء عليه الصلاة والسلام ، فأخذ المعول منه ، فضرب به ضربة صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها «١» ، لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم ، فكبر ، وكبّر معه المسلمون ، وقال : أضاءت لى منها قصور الحيرة ، كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية ، فقال : أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : أضاءت لى منها قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل أنّ أمّتى ظاهرة على كلّها ، فأبشروا ، فقال المنافقون : ألا تعجبون! يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، وأنّها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق «٢» فنزلت ، أي : الآية. ونبه على أن الشر أيضا بيده بقوله : إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هـ.

ثم استدل على نفوذ قدرته بقوله : تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ أي : تدخل أحدهما فى الآخر بالتعقيب ، أو بالزيادة أو النقص ، فيولج الليل فى النهار ، إذا طال النهار حتى يكون خمس عشرة ساعة ، وفى الليل تسع ، ويولج النهار فى الليل ، إذا طال الليل كذلك ، وفيه دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة العز بالذل ، والملك بنزعه. وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كالحيوانات من النّطف ، وبالعكس ، والنباتات من الحبوب ، وبالعكس ، أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل ، وبالعكس ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ من الأقوات والعلوم والأسرار ، بِغَيْرِ حِسابٍ ، ولا تقدير ولا حصر. اللهم ارزقنا من ذلك الحظ الأوفر ، (إنك على كل شىء قدير).

---

(١) اللابة : الحرة ، وهى الحجارة السوداء ، ولابتيها : حرتان تكتنفان المدينة.

(٢) الفرق – بفتحتين – : الخوف.

روى معاذ رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال له : «يا معاذ ، أتحبّ أن يقضى اللّه عنك دينك؟» قال : نعم يا رسول اللّه ، قال : «قل» (اللهم مالك الملك) إلى قوله : (بغير حساب) ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطى منهما ما تشاء ، وتمنع منهما ما تشاء ، اقض عنى دينى ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا وفضة لأدّاه اللّه عنك».

وروى عن على رضي اللّه عنه أنه قال : الفاتحة ، وآية الكرسي ، و(شهد اللّه) ، و(قل اللهم مالك الملك ...) إلى (... بغير حساب) ، لمّا أراد اللّه أن ينزلهن ، تعلقن بالعرش وقلن : تهبطنا إلى دار الذنوب فقال اللّه عز وجل : وعزتى وجلالى لا يقرؤكن عبد ، دبر كل صلاة مكتوبة ، إلا أسكنته حظيرة القدس ، على ما كان فيه ، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة ، وقضييت له فى كل يوم سبعين حاجة ، وأعززته من كل عدو ، نصرته عليه ...»

الحديث «١». انظر الثعلبي.

الإشارة : من ملك نفسه وهواه فقد ملكه اللّه ملك الدارين ، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أذله اللّه فى الدارين ، ومن ملك نفسه لله فقد مكنه اللّه من التصرف فى الكون بأسره ، وكان حرا حقيقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

دعونى لملكهم ، فلمّا أجبتهم قالوا : دعوناك للملك لا للملك

ومن أذلّ نفسه لله فقد أعزه اللّه ، قال الشاعر :

تذلّلّ لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

إذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ذليلا له ، فأقر السّلام على الوصل

قال ابن المبارك : (قلت لسفيان الثوري : من الناس؟ قال : الفقهاء ، قلت : فمن الملوك؟ قال : الزهاد ، قلت : فمن الأشراف؟ قال : الأتقياء ، قلت فمن الغوغاء؟ قال : الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس ، قلت : أخبرنى ما السفلة؟ قال : الظلمة.) وقال الشبلي : (الملك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين). وقال الوراق : (تعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى ، وتذل من تشاء باتباع الهوى).

قلت : وفى ذلك يقول البرعى رضي اللّه عنه :

لا تتبع النّفس فى هواها إنّ اتّباع الهوى هوان

وقال وهب : «خرج الغنى والعز يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا». وقال عيسى عليه السّلام لأصحابه : أنتم أغنى من الملوك ، قالوا : يا روح اللّه كيف ، ولسنا نملك شيئا؟ قال : أنتم ليس عندكم شىء ولا تريدونها ، وهم عندهم أشياء ولا تكفيهم هـ.

---

(١) الحديث : أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة. عن سيدنا على مرفوعا وفى سنده الحارث بن

عمير البصري. قال ابن حبان :
يروى عن الأثبات الموضوعات ، وأورد له الذهبي هذا الحديث على سبيل الإنكار.

(١/٣٤٠)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤١
قال الشافعي رضي اللّه عنه :
ألا يا نفس إن ترضى بقوت فأنت عزيزة أبدا غنية
دعى عنك المطامع والأمانى فكم أمنيّة جلبت منية
وقال آخر «١» :
أفادتنى القناعة كلّ عزّ وهل عزّ أعزّ من القناعة
فصيّرها لنفسك رأس مال وصيّر بعدها التّقوى بضاعة
تنل عزّا وتغنى عن لئيم وترحل للجنان بصبر ساعة
وقال عليه الصلاة والسلام : «من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها».
تولج ليل القبض فى نهار البسط ، وتولج نهار البسط فى ليل القبض ، وترزق من تشاء فيهما من العلوم والأسرار ، بغير حساب ولا مقدار ، أو تولج ليل العبودية فى نهار الحرية ، وتولج نهار الحرية فى ليل العبودية ، فمن كان فى نهار الحرية تاه على الوجود ، ومن كان فى ليل العبودية عطل ذله ذل اليهود ، والعبد لا يخلو من هذين الحالين ، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار. واللّه تعالى أعلم.
ولمّا كان العز ينال بصحبة أهل العز ، والذل ينال كذلك ، حذّر الحق تعالى من صحبة أهل الذل ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]
لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٣٠)
قلت : (تقاة) : مصدر تقى ، على وزن فعل ، وله مصدران آخران : تقىّ وتقيّة – بتشديد الياء – ، وبه قرأ يعقوب ، وأصله : تقية ، فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. و(يوم) : ظرف ، والعامل فيه :

اذكر ، أو اتقوا ، أو المصير ، أو تود ، و(ما عملت) : مبتدأ ، و(تود) : خبر ، أو معطوف على (ما عملت) الأولى ، و(تود) : حال.

---

(١) وهو بشر بن الحارث ، المعروف بالحافى. وجاءت الأبيات فى تاريخ بغداد ٧/ ٧٦ ، وتهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٣.



---



يقول الحق جل جلاله ، لقوم من الأنصار ، كانوا يوالون اليهود لقرابة أو صداقة تقدمت فى الجاهلية : لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ ، أي : أصدقاء ، إذ الحب إنما يكون فى اللّه والبغض فى اللّه ، أو لا تستعينوا بهم فى غزو ولا غيره ، فلا تودوهم مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إذ هم أحق بالمودة ، ففيهم مندوحة عن موالاة الكفرة ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ الاتخاذ فَلَيْسَ مِنَ ولاية اللَّهِ فِي شَيْءٍ إذ لا تجتمع ولاية اللّه مع ولاية عدوه. قال الشاعر :

تودّ عدوّى ثمّ تزعم أنّنى صديقك ، ليس النّوك عنك بعازب

والنّوك – بضم النون – : الحمق.

فلا توالوا الكفار إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً أي : إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه ، فلا بأس بمداراتهم ظاهرا ، والبعد منهم باطنا ، كما قال عيسى عليه السّلام : (كن وسطا وامش جانبا). وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه : خالطوا الناس وزايلوهم ، وصافحوهم بما يشتهون ، ودينكم لا تثلموه. وقال جعفر الصادق : إنى لأسمع الرجل يشتمنى فى المسجد ، فأستتر منه بالسارية لئلا يرانى. هـ. وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ أي : يخوفكم عذابه على موالاة الكفار ومخالفة أمره وارتكاب نهيه ، تقول العرب : احذر فلانا : أي : ضرره لا ذاته ، وفى ذكر النفس زيادة تهديد يؤذن بعقاب يصدر منه بلا واسطة ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فيحشر كل قوم مع من أحب.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ من موالاة أعدائه ، أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ فلا يخفى عليه ما تكن الصدور من خير أو شر. وقدّم فى سورة البقرة الإبداء ، وأخره هنا لأن المحاسبة لا ترتيب فيها بخلاف العلم ، فإن الأشياء التي تبرز من الإنسان يتقدم إضمارها فى قلبه ثم تبرز ، فقد تعلق علم اللّه تعالى بها قبل أن تبرز ، فلذلك قدّم هنا الإخفاء لتقدم وجوده فى الصدر ، وأخره فى البقرة ، لأن المحاسبة لا ترتيب فيها ، وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فلا يخفى عليه شىء ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا ، والآية بيان لقوله : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ لأن الذات العالية متصفة بعلم

محيط بجميع المعلومات ، وبقدرة تحيط بجميع المقدورات ، فلا تجسروا على عصيانه ، فإنه ما من معصية إلا وهو مطلع عليها ، قادر على العقاب عليها يوم القيامة.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً بين يديها تنتفع به ، وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، كما بين المشرق والمغرب ، ولا ينفع الندم وقد زلّت القدم. وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، كرره للتأكيد وزيادة التحذير ، وسيأتى فى الإشارة حكمة تكريره ، وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ حيث حذرهم مما يضرهم ، وأمرهم بما يقربهم ، فكل ما يصدر منه – سبحانه – فى غاية الكمال.

(٣٤٢/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤٣

الإشارة : لا ينبغى للمريد الصادق أن يخالط أهل الغفلة ، ولا يتودد معهم فإن ذلك يقطعه عن ربه ، ويصده عن دواء قلبه ، وفى ذلك يقول صاحب العينية :

وقاطع لمن واصلت أيّام غفلة فما واصل العذال إلّا مقاطع

وجانب جناب الأجنبى لو أنّه لقرب انتساب فى المنام مضاجع

فللنّفس من جلّاسها كلّ نسبة ومن خلّة للقلب تلك الطّبائع

إلا أن يتقى منهم تقية ، بحيث تلجئه الضرورة إلى مخالطتهم ، فيخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه ، وقد حذّر الصوفية من صحبة أربع طوائف : الجبابرة المتكبرون ، والقراء المداهنون ، والمتفقرة الجاهلون ، والعلماء المتجمدون لأنهم مولعون بالطعن على أولياء اللّه ، يرون ذلك قربة تقربهم إلى اللّه.

ثم قال : (و يحذركم اللّه نفسه) أن تقصدوا معه غيره ، وهذا خطاب للسائرين بدليل تعقيبه بقوله : (و إلى اللّه المصير) أي : إليه ينتهى السير وإليه يكون الوصول ، ثم شدد عليهم فى المراقبة فقال : (إن تخفوا ما فى صدوركم) من الميل أو الركون إلى الغير أو الوقوف عن السير ، (أو تبدوه يعلمه اللّه) فينقص عنكم المدد بقدر ذلك الميل ، يظهر ذلك يوم الدخول إلى بلاد المشاهدة ، (يوم تجد كل نفس) ما قدمت من المجاهدة ، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة. ثم خاطب الواصلين فقال : (و يحذركم اللّه نفسه) من أن تشهدوا معه سواه ، فلو كلف الواصل أن يشهد غيره لم يستطع ، إذ لا غير معه حتى يشهده. ويدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبه بالمودة والرأفة ، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين. خرطنا اللّه فى سلكهم بمنّه وكرمه.

ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم ، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٣٢)

قلت : قد تقدم الكلام على حقيقة المحبة عند قوله يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ. وقال البيضاوي هنا : المحبة ميل النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه ، بحيث يحملها – أي الميل – إلى ما يقربها إليه ، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله ، وأن ما يراه كمالا من نفسه أو غيره فهو من اللّه وباللّه وإلى اللّه ، لم يكن حبه إلا لله وفى اللّه ، وذلك يقتضى إرادة طاعته ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة ، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول فى عبادته ، والحرص على مطاوعته. هـ.

(٣٤٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤٤

وقوله : (فإن تولوا) : فعل ماض مجزوم المحل ، ولم يدغمه البزّى هنا ، على عادته فى الماضي ، لعدم موجبه.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن يدعى أنه يحب اللّه ولا يتبع رسوله : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ كما زعمتم ، فَاتَّبِعُونِي فى أقوالى وأفعالى وأحوالى ، يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ أي : يرضى عنكم ويقربكم إليه ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي : يكشف الحجاب عن قلوبكم بغفران الذنوب ومحو العيوب ، فيقربكم من جناب عزه ، ويبوئكم فى جوار قدسه ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع رسوله.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، وَالرَّسُولَ فيما يسنه لكم ويرغبكم فيه ، فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عنه ، فقد تعرضوا لمقت اللّه وغضبه بكفرهم به فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ أي : لا يرضى عنهم ولا يقبل عليهم ، وإنما لم يقل : لا يحبهم لقصد العموم ، والدلالة على أن التولي عن الرسول كفر ، وأنه برئ من محبة اللّه ، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

روى أن نصارى نجران قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده ، حبا لله وتعظيما لله. فقال تعالى : (قل) يا محمد : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ تعالى فَاتَّبِعُونِي ... الآية. ولما نزلت الآية قال عبد اللّه بن أبىّ لأصحابه : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة اللّه ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ، فنزل قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ الآية. وقال – عليه الصلاة والسلام – : «من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن أطاع الإمام فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى اللّه ومن عصى الإمام فقد عصانى».

الإشارة : اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ركن من أركان الطريقة ، وشرط فى إشراق أنوار الحقيقة ، فمن لا اتباع له لا طريق له ، ومن لا طريق له لا وصول له ، قال الشيخ زروق رضي اللّه عنه : (أصول الطريقة خمسة أشياء : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، واتباع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، والرضى

عن اللّه فى القليل والكثير).

فالرسول – عليه الصلاة والسلام – حجاب الحضرة وبوّابها ، فمن أتى من بابه بمحبته واتباعه ، دخل الحضرة ، وسكن فيها ، ومن تنكب عنها طرد وأبعد ، وفى ذلك يقول القائل :

وأنت باب اللّه ، أىّ امرئ وافاه من غيرك لا يدخل

وقال فى المباحث :

تبعه العالم فى الأقوال والعابد الزاهد فى الأفعال

وفيهما الصّوفىّ فى السّباق لكنّه قد زاد فى الأخلاق

*(١/٣٤٤)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٤٥

فمن ادعى محبة اللّه أو محبة رسوله ، ولم يطعهما ، ولم يتخلق بأخلاقهما ، فدعواه كاذبة ، وفى ذلك يقول ابن المبارك «١» :

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال فى القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

ثم ذكر الحق تعالى بيان نشأة عيسى عليه السّلام ، وبيان أصله ونشأة أمه ، توطئة للكلام مع النصارى والرد عليهم فى اعتقادهم فيه. وقال البيضاوي : لما أوجب اللّه طاعة الرسل ، وبيّن أنها الجالبة لمحبة اللّه ، عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا عليها فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٧)

قلت : (ذرية) : حال ، أو بدل من الآلين ، أو من نوح ، أي : أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض.

و(إذ قالت) : ظرف لعليم ، أو بإضمار اذكر. و(محررا) : حال ، والتحرير : التخلص ، يقال : حررت العبد ، إذا خلصته من الرق ، وحررت الكتاب ، إذا أصلحته وأخلصته ، ولم يبق فيه ما يحتاج إلى

إصلاح ، ورجل حر ، أي : خالص ، ليس لأحد عليه متعلق ، والطين الحر ، أي : الخالص من الحمأة.
وقوله : (و إنى سميتها مريم) : عطف على (إنى وضعتها) ، وما بينهما اعتراض ، من كلامها على قراءة التكلم ، أو من كلام اللّه على قراءة التأنيث.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى ، آدَمَ بالخلافة والرسالة ، وَنُوحاً بالرسالة والنّذارة ، وَآلَ إِبْراهِيمَ بالنبوة والرسالة ، وهم : إسحاق ، ويعقوب والأسباط ، وإسماعيل ، وولده سيد ولد آدم نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بالنبوة والرسالة والمحبة الجامعة. وَآلَ عِمْرانَ ، وهم موسى وهارون – عليهما السلام – وهو عمران بن يصهر

---

(١) الشعر ينسب لأكثر من واحد.



---


ابن فاهث بن لاوى بن يعقوب ، أو المراد بعمران : عمران بن أشهم بن أموى ، من ولد سليمان عليه السّلام ، وهو والد مريم أم عيسى عليه السّلام ، وقيل : المراد عمران بن ماثان ، أحد أجداد عمران والد مريم. وإنما خص هؤلاء ، لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وقيل : أراد إبراهيم وعمران أنفسهما.
«وآل» مقحمة ، كقوله : وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ أي : موسى وهارون ، فقد فضل الحق – جل جلاله – هؤلاء الأنبياء بالخصائص الجسمانية والروحانية عَلَى الْعالَمِينَ أي : كلا على عالمى زمانه ، وبه استدل على فضلهم على الملائكة. حال كونهم ذُرِّيَّةً متشعبة بَعْضُها مِنْ ولد بَعْضٍ فى النسب والدين ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأقوال العباد وأعمالهم ، عَلِيمٌ بسرائرهم وعلانيتهم ، فيصطفى من صفا قوله وعمله ، وخلص سره ، للرسالة والنبوة.
ثم تخلّص لذكر نشأة مريم ، توطئة لذكر ولدها ، فقال : واذكر إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ وهى حنة بنت فاقوذا ، جدة عيسى عليه السّلام : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً لخدمة بيت المقدس ، لا أشغله بشىء ، أو مخلصا للعبادة ، فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وكان المحرر عندهم ، إذا حرر ، جعل فى الكنيسة يقوم عليها وينكسها ، ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم ، ثم يخير ، فإن أحبّ أقام أو ذهب حيث شاء ، ولم يكن يحرر إلا الغلمان لأن الجارية لا تصلح للخدمة لما يصيبها من الحيض ، فحررت أمّ مريم حملها ولم تدر ما هو.
وقصة ذلك : أن زكريا وعمران تزوجا أختين ، فتزوج زكريا أشياع بنت فاقوذا ، وتزوج عمران حنة بنت فاقوذا ، فكان عيسى ويحيى ابني الخالة «١» ، وكانت حنة عاقرا لا تلد ، فبينما هى فى ظل شجرة ،

بصرت بطائر يطعم فرخا ، فتحركت لذلك نفسها للولد فدعت اللّه تعالى ، وقالت : اللهم لك على ، إن رزقتنى ولدا ، أن أتصدق به على بيت المقدس ، يكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم ، فهلك عمران ، وحنة حامل بمريم ، فَلَمَّا وَضَعَتْها أي : النذيرة ، أو ما فى بطنها ، قالت : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى ، قالت ذلك تحسّرا وتحزنا إلى ربها ، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكرا يصلح للخدمة ، ولذلك نذرته.

قال تعالى : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ ، تعظيما لموضوعها وتنويها بشأنها ، أو من كلامها – على قراءة التكلم – تسلية لنفسها ، أي : ولعل لله فيه سرا ، قال تعالى : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى أي : وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت ، أو من كلامها ، أي : وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت. ثم قالت : وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ راجية أن يطابق اسمها فعلها ، فإن مريم فى نعتهم هى العابدة الخادمة ، وكانت مريم أجمل النساء فى وقتها وأفضلهن ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلّى اللّه عليه وسلم».

---

(١) أي : بينهما هذه الجهة من القرابة ، وهى جهة الخئولة.



---



ثم قالت حنة أم مريم : وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ أي : أحصنها بك وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ أي : المرجوم بالشهب ، أو المطرود ، وفى الحديث : «ما من مولود يولد إلّا والشّيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ من مسّه ، إلّا مريم وابنها». ومعناه : أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود ، بحيث يتأثر به ، إلا مريم وابنها لمكان الاستعاذة ، قلت : وكذا الأنبياء كلهم ، لا يمسهم لمكان العصمة. واللّه أعلم.

فَتَقَبَّلَها رَبُّها أي : رضيها فى النذر مكان الذكر ، بِقَبُولٍ حَسَنٍ أي : بوجه حسن ، وهو إقامتها مقام الذكر ، وتسلمها للخدمة عقب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسّدانة «١» ، روى : أن حنة لما ولدتها لفّتها فى خرقة ، وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها ، لأنها كانت ابنة إمامهم ، وصاحب قربانهم ، فإن (بنى ماثان) كانت رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم ، فقال زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وكانوا سبعة وعشرين ، فانطلقوا إلى نهر ، فألقوا فيه أقلامهم ، فطفا قلم زكريا – أي : علا – على وجه الماء ، ورسبت أقلامهم ، فأخذها زكريا.

وَأَنْبَتَها اللّه نَباتاً حَسَناً أي : رباها تربية حسنة ، فكانت تشب فى اليوم ما يشب المولود فى العام ، وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا أي : ضمها إليه وقام بأمرها. وقرأ عاصم – فى رواية ابن عياش – بشدّ الفاء ، أي : وكفّلها اللّه زكريا ، أي : جعله كافلا لها وحاضنا. روى : أنه لما ضمها إليه بنى لها بيتا ، واسترضع لها ، فلما بلغت ، بنى لها محرابا فى المسجد ، وجعل بابه فى وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم ، ولا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم ، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ ليأتيها بطعامها ، وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً أي : فاكهة فى غير حينها ، يجد فاكهة الشتاء فى الصيف ، وبالعكس ، قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا أي : من أين لك هذا الرزق الآتي فى غير أوانه ، والأبواب مغلقة عليك؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فلا يستبعد ، قيل : تكلمت صغيرة ، وقيل : لم ترضع ثديا قط ، خلاف ما تقدم ، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة.

ثم قالت : إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي : بغير تقدير ، أو بغير استحقاق تفضلا منه ، وقوله :

(كلما) : يقتضى التكرار ، وفيه إشارة إلى أن زكريا لم يذر تعهّدها ، ولم يعتمد على ما كان يجد عندها ، بل كان يتفقد حالها كل وقت ، لأن الكرامات للأولياء ليس مما يجب أن تدوم قطعا ، بل يجوز أن يظهر ذلك عليهم دائما وألا يظهر ، فما كان زكريا معتمدا على ذلك ، فيترك تفقد حالها ، ثم كان يجدد السؤال بقوله : يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا ، لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس ، فإنه لا واجب على اللّه – سبحانه – . قاله القشيري.

---

(١) السدانة : مصدر بمعنى الخدمة ، والسادن : الخادم.



---



روى جابر بن عبد اللّه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أقام أياما لم يطعم الطعام ، فقام فى منازل أزواجه ، فلم يصب عندهن شيئا ، فأتى فاطمة فقال : «يا بنية ، هل عندك شى ء؟» فقالت : لا واللّه ، بأبى أنت وأمي ، فلما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، بعثت إليها جارتها برغيفين وبضعة لحم ، فبعثت حسنا وحسينا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فجاء ، فكشفت له الجفنة ، فإذا الجفنة مملوءة خبزا ولحما ، فبهتت ، وعرفت أنّها بركة من اللّه تعالى ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من أين لك هذا يا بنيّة؟» قالت : ومِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فحمد اللّه تعالى ، وقال : «الحمد للّه الّذى جعلك شبيهة بسيّدة بنى إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها اللّه شيئا قالت : هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ثم بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى عليّ رضي اللّه عنه. ثم أكل أهل البيت كلهم ، وجميع أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وبقيت الجفنة كما هى ، فأوسعت على الجيران ، وجعل اللّه فيها بركة وخيرا. انتهى «١».

الإشارة : (إن اللّه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره ، وجددوه بعد خمود أسراره ، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء ، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية ، بحيث يجدد للناس دينهم ، ويبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق ، فهو ممن اصطفاه اللّه على عالمى زمانه.

وفى الحديث : «إنّ اللّه يبعث على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمة دينها». قال الحريري : (مات الحسن البصري عشية جمعة – أي : بعد زوالها – فلما صلى الناس الجمعة حملوه ، فلم يترك الناس صلاة العصر فى مسجد الجماعة بالبصرة منذ كان الإسلام ، إلا يوم مات الحسن ، واتبع الناس جنازته ، فلم يحضر أحد فى المسجد صلاة العصر ، قال : وسمعت مناديا ينادى : (إن اللّه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، واصطفى الحسن على أهل زمانه). قلت : والحسن البصري هو الذي أظهر علم التصوف ، وتكلم فيه وهذبه. قال فى القوت : وهو إمامنا فى هذا العلم – يعنى علم التصوف.

وقوله تعالى : إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ... الآية. كلّ من نذر نفسه وحررها لخدمة مولاه ، تقبلها اللّه منه بقبول حسن ، وأنبت فيها المعرفة نباتا حسنا ، وكفلها بحفظه ورعايته ، وضمها إليه بسابق عناية ، ورزقها من طرف الحكم وفواكه العلوم ، مما لا تحيط به العقول وغاية الفهوم ، فإذا قال لنفسه : من أين لك هذا؟ (قالت هو من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاءبغير حساب). وأنشدوا :

فلا عمل منّى إليه اكتسبته سوى محض فضل ، لا بشيء يعلّل

وقال القشيري : قوله تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن) ، يقال : من القبول الحسن أنه لم يطرح كلّها وشغلها على زكريا ، فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعاهدها بطعام وجد عندها رزقا ، ليعلم لعالمون أن اللّه – تعالى – لا يلقى شغل

---

(١) إلى هنا ينتهى السقط المشار إليه سابقا فى النسخة التيمورية.





أوليائه على غيره ، ومن خدم وليا من أوليائه كان هو فى رفق الولي ، وهذه إشارة لمن يخدم الفقراء ،

يعلم أنه فى رفقهم ، لا أن الفقراء تحت رفقه. هـ.

قال أهل التفسير : فلما رأى زكريا ما يأتى لمريم من الفواكه فى غير أوانها ، قال : إن الذي قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير وقتها ، قادر على أن يصلح زوجتى ، ويهب لى ولدا على الكبر. فطلب الولد ، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٨ الى ٤١]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٨) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (٤٠) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٤١)

قلت : (هنالك) : اسم إشارة للبعيد ، والكاف : حرف خطاب ، يطابق المخاطب فى التذكير والتأنيث والإفراد والجمع فى الغالب. والمحراب : مفعال ، من الحرب ، وهو الموضع المعد للعبادة ، كالمسجد ونحوه ، سمى به ، لأنه محل محاربة الشيطان.

(والملائكة) : جمع تكسير ، يجوز فى فعله التذكير والتأنيث ، وهو أحسن ، تقول : قام الرجال وقامت الرجال ، فمن قرأ : (فنادته الملائكة) ، فعلى تأويل الجماعة ، ومن قرأ : (فناداه) ، أراد تنزيه الملائكة عن التأنيث ، ردا على الكفار.

والمراد هنا : جبريل عليه السّلام كقوله : يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ ، وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ ، و(بشر) : فيها لغتان : التخفيف ، وهى لغة تهامة ، تقول : بشر يبشر – بضم الشين فى المضارع ، والتشديد ، وهو أفصح ، تقول بشّر يبشّر تبشيرا.

يقول الحق جل جلاله ، مخبرا عن زكريا عليه السّلام : هُنالِكَ أي : فى ذلك الوقت الذي رأى ما رأى من الخوارق عند مريم ، دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، فدخل المحراب ، وغلق الأبواب ، وقال فى مناجاته : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، كما وهبتها لحنّة العجوز العاقر ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ أي : مجيبه فاسمع دعائى يا



---



مجيب ، فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ، وهو جبريل ، لأنه رئيس الملائكة ، والعرب تنادى الرئيس بلفظ الجمع إذ لا يخلو من أصحاب ، وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ روى : أنه كان قائما يصلى فى محرابه ، فدخل عليه

شاب ، عليه ثياب بيض ، ففزع منه ، فناداه ، وقال له : أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى ، سمى به لأن اللّه تعالى أحيا به عقم أمه ، أو لأن اللّه تعالى أحيا قلبه بمعرفته ، فلم يهم بمعصية قط ، أو لأنه استشهد ، والشهداء أحياء.

مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهو عيسى ، لأنه كان بكلمة : كن ، من غير سبب عادى ، وَسَيِّداً أي : يسود قومه ويفوقهم ، وَحَصُوراً ، أي : مبالغا فى حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روى أنه مرّ فى صباه على صبيان ، فدعوه إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت. أو عنينا ، روى : «أنه كان له ذكر كالقذاة» رواه ابن عباس. وقال فى الأساس : (رجل حصور : لا يرغب فى النساء). قيل : كان ذلك فضيلة فى تلك الشريعة ، بخلاف شريعة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم وفى الورتجبي : الحصور : الذي يملك ولا يملك. وقال القشيري : حَصُوراً : أي : معتقا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية ، مع كونه من جملة البشر ، وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ الذين صلحوا للنبوة وتأهلوا للحضرة.

ولما سمع البشارة هزّه الفرح فقال : يا رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أي : من أين يكون لى غلام؟! قاله استعظاما أو تعجبا أو استفهاما عن كيفية حدوثه. هل مع كبر السن والعقم ، أو مع زوالهما. وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ، وكان له تسع وتسعون سنة ، وقيل : مائة وعشرون ، وَامْرَأَتِي عاقِرٌ لا تلد ، ولم يقل : عاقرة ، لأنه وصف خاص بالنساء. قال له جبريل : كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ من العجائب والخوارق ، فيخلق الولد من العاقر والشيخ الفاني ، أو الأمر كذلك ، أي : كما أخبرتك ، ثم استأنف : اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

ولما تحقق بالبشارة طلب العلامة ، فقال : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أعرف بها حمل المرأة ، لأستقبله بالبشاشة والشكر ، قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أي : لا تقدر على كلام الناس ثلاثا ، فحبس لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر ، ليخلص المدة للذكر والشكر ، إِلَّا رَمْزاً بيد أو رأس أو حاجب أو عين. وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً فى هذه المدة التي حبست فيها عن الكلام ، وهو يبين الغرض من الحبس عن الكلام. وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ أي : من الزوال إلى الغروب ، أو من العصر إلى جزء الليل ، وَالْإِبْكارِ من الفجر إلى الضحى ، وقيل : كانت صلاتهم ركعتين فى الفجر وركعتين فى المغرب ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى الآية الأخرى : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأصلاب الروحانية كالأصلاب الجسمانية ، منها ما تكون عقيمة مع كمالها ، ومنها ما تكون لها ولد أو ولدان ، ومنها ما تكون لها أولاد كثيرة ، ويؤخذ من قضية السيد زكريا عليه السّلام : طلب الولد إذا خاف الولي اندراس

علمه أو حاله بانقطاع نسله الروحاني ، ولا شك فى فضل بقاء النسل الحسى أو المعنوي ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به».

وشمل الولد البشرى والروحاني ، وقال عليه الصلاة والسلام لسيدنا على –كرم اللّه وجهه – : «لأن يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».

وقال بعض الشعراء «١» :

والمرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن قدر النبي محمّد

وقد سلك هذا المسلك القطب ابن مشيش فى طلب الولد الروحاني ، حيث قال فى تصليته المشهورة : (اسمع ندائى بما سمعت به نداء عبدك زكريا) ، فأجابه الحق تعالى بشيخ المشايخ القطب الشاذلى.

وغير واحد من الأولياء دخل محراب الحضرة ، ونادى نداء خفيا فى صلاة الفكرة ، فأجابته الهواتف فى الحال ، بلسان الحال أو المقال : إن اللّه يبشرك بمن يحيى علمك ويرث حالك ، مصدقا بكلمة من اللّه ، وهم أولياء اللّه ، وسيدا وحصورا عن شواغل الحس ، مستغرقا فى مشاهدة القرب والأنس ، ينبئ بعلم الغيوب ، ويصلح خلل القلوب ، فإذا استعظم ذلك واستغربه ، قيل له : الأمر كذلك ، (اللّه يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) ، فحسبك الاشتغال بذكر اللّه ، والغيبة عما سواه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر اصطفائية مريم بالخصوص بعد العموم فقال :

**[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]**

وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (٤٢) يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ أي : جبريل ، أو جماعة ، كلمتها شفاها كرامة لها. وفيه إثبات كرامة الأولياء ، وليست نبية للإجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة لقوله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فقالوا لها : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ لخدمة بيته ، ولم يقبل قبلك أنثى قط ، وفرغك لعبادته ، وأغناك برزقه عن رزق غيره ، وَطَهَّرَكِ من الأخلاق الذميمة ، ومما يستقذر من النساء ، وَاصْطَفاكِ ثانيا بهدايته لك ، وتخصيصك بتكليم الملائكة ، وبالبشارة بالولد من غير أب ، فقد اصطفاك عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ. «٢»

---

(١) وهو الشيخ البوصيرى.

(٢) انظر فى مسألة نبوة مريم : فتح الباري ٦/ ٥٤٢.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٢

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلا مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد» ... الحديث. قال ابن عزيز : أي : عالمى دهرها ، كما فضّلت خديجة وفاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على نساء أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، بل قال أبو عمر : فاطمة فضلت على جميع النساء ، وهو واضح ، لحديث : سيدة نساء أهل الجنة ، لكن جاء فى حديث آخر استثناء مريم. فاللّه أعلم.

وفى الاستيعاب : عن عمران بن حصين : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم عاد فاطمة ، وهى مريضة ، فقال : «كيف تجدك يا بنيّة؟» فقالت له : إنى لوجعة ، وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله ، فقال : «يا بنيّة ، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين» ، فقالت : يا أبت ، فأين مريم بنت عمران؟ قال : «تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، واللّه لقد زوجتك سيدا فى الدنيا والآخرة» هـ. من المحشى.

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ أي : أطيلى الصلاة شكرا لما اختصك به ، وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ أي : صلّى مع المصلين ، وقدّم السجود على الركوع ، إما لكونه كذلك فى شرعهم ، أو للتنبيه على أن الواو لا ترتب ، أو ليقترن ارْكَعِي بالراكعين ، للإيذان بأنّ من ليس فى صلاتهم ركوع ليسوا بمصلين. وقيل : المراد بالقنوت : إدامة الطاعة ، كقوله : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً ، وبالسجود : الصلاة ، لقوله : وَأَدْبارَ السُّجُودِ ، وبالركوع : الخشوع والإخبات. قاله البيضاوي. وقال الأوزاعى : لما قالت لها الملائكة ذلك ، قامت فى الصلاة حتى تورمت قدمها وسالت دما وقيحا.

الإشارة : لا يصطفى اللّه العبد لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل ، وتحليته بأنواع الفضائل ، وقطعه عن قلبه الشواغل ، والقيام بوظائف العبودية ، وبالآداب مع عظمة الربوبية ، والخضوع تحت مجارى الأقدار ، والتسليم لأحكام الواحد القهار ، فأنفاس المريد ثلاثة : عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة ، ثم يترقى إلى مطالعة علم الغيوب ، الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٤٤]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله ، لحبيبه صلّى اللّه عليه وسلم : ذلِكَ القصص الذي أطلعتك عليه ، هو مِنْ أخبار الْغَيْبِ الذي لم يكن لك به شعور ، وما عرفته إلا بوحينا وإعلامنا ، فلا يشك فى نبوتك إلا مطموس أعمى ، (و) أيضا : ما

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٣

كُنْتَ لَدَيْهِمْ

أي : عندهم ، حين كانوا يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ لما اقترعوا ، أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ فى كفالتها ، فتخبرهم عما شهدت ، بل لم يكن شيء من ذلك ، فتعين أن يكون وحيا حقيقا ، لأنه عليه الصلاة والسلام – كان أمّيّا لم يطالع شيئا من كتب الأخبار ، ولا جلس إلى من طالعهم من الأحبار ، بإجماع الخاص والعام. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الوحى على أربعة أقسام : وحي منام ، ووحي إلهام ، ووحي أحكام ، ووحي إعلام ، وشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة : الإلهام والمنام والإعلام ، إن كان بغير الملك ، ومعنى وحي إعلام : هو إطلاع اللّه النبىّ على أمور مغيبة ، فإن كان بواسطة الملك ، فهو مختص بالأنبياء ، كما اختصت بوحي الأحكام ، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن اللّه ، فيكون أيضا للأولياء ، إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها اللّه على غيبه فى الجملة ، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام الغيوب. واللّه أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى البشارة بعيسى عليه السّلام ، وهو المقصود الأعظم من هذه القصص ليتخلص للرد على النصارى فى زعمهم الفاسد فيه ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٥ الى ٥١]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

قلت : (إذ قالت) : بدل من (و إذ قالت) الأولى ، ويبعد إبدالها من (إذ يختصمون) ، و(المسيح) وما بعده : إخبار عن اسمه ، أو (عيسى) : خبر عن مضمر ، و(ابن مريم) : صفته ، و(المسيح) : فعيل بمعنى مفعول ، لأنه مسح من الأقذار ، أي : طهر منها ، أو مسح بالبركة ، أو كان مسيح القدم ، لا أخمص له ، أو مسحه جبريل بجناحه من الشيطان. أو بمعنى فاعل لأنه كان يمسح المرضى فيبرءون ، أو يمسح عين الأعمى فيبصر ، أو لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم فى مكان فتكون الميم زائدة. وأما المسيح الدجال فإنه ممسوح إحدى العينين ، أو لأنه يطوف الأرض ويمسحها ، إلا مكة والمدينة ، والحاصل :

أن عيسى مسيح الخير ، والدجال مسيح الشر ، ولذلك قيل : إن المسيح يقتل المسيح. و(وجيها) : حال من (كلمة) لتخصيصة بالصفة ، و(فى المهد وكهلا) : حالان ، أي : طفلا وكهلا ، والمهد : ما يمهد للصبى. و(رسولا) : مفعول لمحذوف ، أي : ونجعله رسولا ، و(مصدقا) : عطف على (رسولا) ، و(لأحلّ) : متعلق بمحذوف ، أي : وجئتكم لأحل.

أو معطوف على معنى مصدقا ، كقولهم : جئتك معتذرا ، أو لأطيب قلبك.

يقول الحق جل جلاله : (و) اذكر أيضا إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ فى بشارتهم لمريم : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، أي : بولد يتكوّن بكلمة من اللّه كن فيكون ، وقيل : إنما سمى كلمة لكونه مظهرا لكلمة التكوين ، متحققّا ومتصرفا بها. ولذلك كان يظهر عليه خوارق الأقدار أكثر من غيره من الأنبياء ، اسْمُهُ الْمَسِيحُ ، واسمه عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وإنما قال : ابْنُ مَرْيَمَ والخطاب لها ، تنبيها على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد إنما تنسب لأبائها إلا إذا فقد الأب. ثم وصف الولد بقوله : وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : شريفا فى الدنيا بالنبوة والرسالة ، وفى الآخرة بالشفاعة لمن تبعه. ويكون مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إلى اللّه تعالى فى الدارين.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ طفلا فِي الْمَهْدِ على وجه خرق العادة فى تبرئة أمه ، وَكَهْلًا إذا كمل عقله قبل أن يرفع ، أو بعد الرفع والنزول ، لأن الكهولة بعد الأربعين ، والتحقيق : أنه بشرها بنبوة عيسى وكلامه فى المهد ، معجزة ، وفى الكهولة دعوة قبل الرفع وبعده ، وما قارب الشيء يعطى حكمه ، وحال كونه مِنَ الصَّالِحِينَ لحضرة رب العالمين.

ولما سمعت البشارة دهشت وقالَتْ : يا رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، والخطاب لله ، فانية عن الواسطة جبريل ، والاستفهام تعجبا ، أو عن الكيفية : هل يكون بتزوج أم لا؟ قالَ لها الملك : كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ. أو الأمر كذلك كما تقولين ، لكن اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ لا يحتاج إلى وسائط ولا أسباب ، بل إذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ أي : الكتابة والخط ، وَالْحِكْمَةَ أي :

النبوة ، أو الإصابة فى الرأى ، وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٥

(و) يجعله رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ. وكان أول رسل بنى إسرائيل يوسف ، وآخرهم عيسى – عليهما السلام – ، وقال : عليه الصلاة والسلام : «بعثت على إثر ثمانية آلاف نبى ، أربعة آلاف من بنى إسرائيل». فإذا بعث إليهم قال : أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أي : بأنى قد جئتكم بآية من ربكم ، قالوا : وما هى؟ قال :

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ كصورته ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وكان يخلق لهم صورة الخفاش ، لأنها أكمل الطير لأن لها ثديا وأسنانا وتحيض وتطير ، فيكون أبلغ فى المعجزة ، وكان يطير مادام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل الحق من فعل الخلق.

ثم قال لهم : ولى معجزة أخرى أنى أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ الذي ولد أعمى ، فأحرى غيره ، وَالْأَبْرَصَ الذي فيه وضح «١». وخصهما لأنهما عاهتان معضلتان. وكان الغالب فى زمن عيسى الطب ، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. روى : أنه ربما اجتمع عليه من المرضى فى اليوم الواحد ألوف ، من أطاق منهم البلوغ «٢» أتاه ، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السّلام ، وإنما كان يداويهم بالدعاء على شرط الإسلام.

وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ لا بقدرتي دفعا لتوهم الألوهية ، فإن الإحياء ليس من طوق البشر. روى أنه أحيا أربعة أنفس : (العازر) ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العازر يموت ، فأتاه من مسيرة ثلاثة أيام فوجده مات ، فقال لأخته : انطلقي بنا إلى قبره ، وهو فى صخرة مطبقة ، فدعا اللّه تعالى ، فقام العازر يقطر ودكه «٣» ، فعاش وولد له. و(ابن العجوز) ، مر بجنازته على عيسى عليه السّلام فدعا اللّه تعالى ، فجلس على سريره ، ونزل عن أعناق الرجال ، ولبس ثيابه ، وحمل سريره على عنقه ، ورجع إلى أهله ، وبقي حتى ولد له. و(ابنة العاشر) ، كان يأخذ العشور ، قيل له : أتحييها ، وقد ماتت أمس؟ فدعا اللّه تعالى ، فعاشت وولد لها. و(سام بن نوح) ، دعا باسم اللّه الأعظم ، فخرج من قبره ، وقد شاب نصف رأسه ، فقال : أقامت الساعة؟ قال : لا ، لكنى دعوت اللّه فأحياك ، مالى أرى الشيب فى رأسك ، ولم يكن فى زمانك؟ قال : سمعت الصيحة ، فظننت أن الساعة قامت فشبت من هولها. قيل : كان يحيى الموتى ب يا حى يا قيوم.

وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، لما أبرأ الأكمه والأبرص قالوا : هذا سحر ، أخبرنا بما نأكل وما ندخر؟ فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وعشائه. وروى أنه لما كان فى المكتب ، كان يحدث الغلمان بما يصنع لهم آباؤهم من الطعام ، فيقول للغلام : انطلق ... غداء أهلك كذا وكذا ، فيقول أهله : من أخبرك بهذا؟ قال : عيسى ، فحبسوا صبيانهم عنه ، وقالوا : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت ، فجاء عيسى

(١) هو بياض يعترى الجلد.
(٢) أي : بلوغ المريض المكان الذي فيه عيسى - عليه السلام -
(٣) الودك : دسم اللحم ودهنه.




يطلبهم ، فقالوا : ليسوا هاهنا ، قال : ماذا فى البيت؟ قالوا : خنازير ، قال عيسى : كذلك يكونون ، ففتحوا الباب ، فإذاهم خنازير ، فهموا بقتله ، فهربت به أمه إلى مصر. قاله السّدى.
ثم قال لهم : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فإن غير المؤمنين لا ينتفع بالمعجزات لعناده ، وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ أي : وجئتكم مصدقا للتوراة ، وشاهدا على صحتها ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فى شريعة موسى عليه السّلام كالشحوم والثروب «١» ولحم الإبل والعمل فى السبت. وهذا يدل على أنه ناسخ للتوراة ، ولا يخل بكونه مصدقا له ، كما لا يخل نسخ القرآن بعضه لبعض بصحته. فإن النسخ فى الحقيقة : بيان لانتهاء العمل بذلك الحكم. ثم قال لهم : (و) قد جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ واضحة مِنْ رَبِّكُمْ ، قد شاهدتموها بأعينكم ، فما بقي إلا عنادكم ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.
ثم دعاهم إلى التوحيد بعد بيان الحجة فقال : إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ولا تعبدوا معه سواه ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا عوج فيه. قال البيضاوي : أي : لما جئتكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى المخالفة ، وَأَطِيعُونِ فيما أدعوكم إليه ، ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل ، فقال : إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ أشار إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد ، وقال : فَاعْبُدُوهُ إشارة إلى استكمال القوة العملية بملازمة الطاعة ، التي هى الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي ، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ، ونظيره : قوله عليه الصلاة والسلام : «قل آمنت باللّه ثم استقم».
الإشارة : كل من انقطع بكليته إلى مولاه ، وصدف عن حظوظه وهواه ، وأفنى شبابه فى طاعة ربه ، وجعل يلتمس فى حياته دواء قلبه ، تحققت له البشارة فى العاجل والآجل ، وحصل له التطهير من درن العيوب والرذائل ، ورزقه من فواكه العلوم ، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم ، هذه مريم البتول أفنت شبابها فى طاعة مولاها ، فقربها إليه وتولاها ، وبشرها بالاصطفائية والتطهير ، وأمرها شكرا بالجد والتشمير ، ثم بشرها ثانيا بالولد النزيه والسيد النبيه ، روح اللّه وكلمة اللّه ، من غير أب ولا سبب ، ولا معالجة ولا تعب ، أمره بأمر اللّه ، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللّه ، هذا كله ببركة

الانقطاع وسر الاتباع.
قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من انقطع إلى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله اللّه تعالى إليها».

---

(١) الثروب : جمع ثرب ، وهو شحم دقيق يغطى الكرش والأمعاء. [.....]



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٥٧
وقال بعضهم : صدق المجاهدة : الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى اللّه فى الصغر يخدم على الإنسان فى حال الكبر ، ومعاصى الصغر تجر الوبال إلى الكبر ، فكما أن عيسى عليه السّلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن اللّه ، كذلك من انقطع بكلّيته إلى اللّه أبرأ القلوب السقيمة بإذن اللّه ، وأحيا موتى القلوب بذكر اللّه ، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب ، يدل على طاعة اللّه ، ويدعو بحاله ومقاله إلى اللّه ، يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ولما تمت البشارة بعيسى عليه السّلام وظهر إلى الدنيا ، وبلغ وقت الدعوة ، بعثه اللّه إلى بنى إسرائيل ، فكفروا به ، فلما تحقق كفرهم طلب من ينصره إلى اللّه ، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]
فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٥٤)
قلت : (من أنصارى إلى اللّه) : الجار يتعلق بحال محذوفة ، أي : ذاهبا إلى اللّه إلى نصر دينه ، أو مضيفا نفسه إلى اللّه ، أو ملتجئا إلى اللّه ، أو يتعلق ب – (أنصارى) مضمّنا معنى الإضافة ، أي : من يضيف نفسه إلى اللّه فى نصره. وحوارى الرجل : خاصته ، الذين يستعين بهم فى نوائبه ، وفى الحديث عنه – عليه الصلاة السلام – : «لكلّ نبى حوارى ، وحواريى : الزّبير». وحواريو عيسى : أصحابه الذين نصروه ، وسموا بذلك لخلوص نبيتهم ونقاء سريرتهم. والحور : البياض الخالص ، وكل شيء بيّضته فقد حوّرته ، ويقال للبيضاء من النساء : حوارية. وقيل : كان الحواريون قصّارين «١» ، يحوّرون الثياب ، أي : يبيضونها ، وقيل : كانوا ملوكا يلبسون البياض.
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى من بنى إسرائيل الْكُفْرَ ، وتحققه تحقّق ما يدرك بالحواس ،

بعد ما بعث إليهم ، وأرادوا قتله ، فرّ منهم واستنصر عليهم ، وقالَ مَنْ أَنْصارِي ملجئا إِلَى اللَّهِ ، أو ذاهبا إلى نصر دينه ، قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ أي : أنصار دينه ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ علينا بأننا مُسْلِمُونَ لتشهد لنا يوم القيامة ، حين يشهد الرسل لقومهم ، رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ على نبيك من الأحكام ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ عيسى عليه السّلام ، فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ بوحدانيتك ، أو مع الذين يشهدون لأنبيائك

---

(١) القصار : المبيض للثياب ، وهو الذي يهيىء النسيج بعد نسجه ، ببلّه ودقه بالقصرة – التي هى القطعة من الخشب.



---



بالصدق ، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو مع أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – فإنهم شهداء على الناس.

قال عطاء : سلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى ، وآخر ما دفعته إلى الحواريين ، وكانوا قصّارين وصباغين ، فأراد معلّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان ، وقد علمتك الحرفة فاصبغها ، فطبخ جبّا واحدا ، وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال لها : كونى على ما أريد ، فقدم الحوارى ، والثياب كلها فى الجب ، فلما رآها قال : قد أفسدتها ، فأخرج عيسى ثوبا أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، إلى غير ذلك ، فعجب الحوارى ، وعلم أنّ ذلك من اللّه تعالى ، ودعا الناس إليه ، وآمنوا به ، ونصروه ، فهم الحواريون.

ولما أخرجه بنو إسرائيل عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة ، فهمّوا بقتله ، وتواطئوا عليه ، وَمَكَرُوا أي : دبروا الحيل فى قتله ، وَمَكَرَ اللَّهُ بهم ، أي : استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم ، ورفع عيسى عليه السّلام ، فالمكر فى الأصل : هو حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة. ولا تسند إلى اللّه إلا على حسب المقابلة والازدواج ، كقوله :

يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ

، وقوله : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ. أي : أشدهم مكرا ، وأقواهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب ، أو أفضل المجازين بالعقوبة لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه.

تنبيه : قيل للجنيد رضى اللّه عنه : كيف رضى المكر لنفسه ، وقد عابه على غيره؟ قال : لا أدرى ، ولكن أنشدنى فلان للطبرانية :

فديتك قد جبلت على هواك ونفسى ما تحنّ إلى سواك
أحبّك ، لا ببعضي بل بكلّى وإن لم يبق حبّك لى حراكا
ويقبح من سواك الفعل عندى وتفعله فيحسن منك ذاك «١»
فقال له السائل : أسألك عن القرآن ، وتجيبنى بشعر الطبرانية؟ قال : ويحك ، قد أجبتك إن كنت تعقل. إنّ تخليته إياهم مع المكرية ، مكر منه بهم. هـ.
قلت : وجه الشاهد فى قوله : (و تفعله فيحسن منك ذاك) ، ومضمن جوابه : أن فعل اللّه كله حسن فى غاية الإتقان ، لا عيب فيه ولا نقصان ، كما قال صاحب العينية :
وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع
يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ولا ثمّ باشع

---

(١) القصة ذكرها مختصرة أبو حيان فى التفسير ٢/ ٤٩٦ مقتصرا على البيت الثالث.



---


وتخليته تعالى إياهم مع المكر ، تسبب عنه الرفع إلى السماء ، وإبقاء عيسى حيّا إلى آخر الزمان ، حتى ينزل خليفة عن نبينا – عليه الصلاة والسلام – ، فكان ذلك فى غاية الكمال والإتقان ، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان.
الإشارة : يجب على المريد الصادق الذي يطلب دواء قلبه ، أن يفر من الوطن الذي يظهر فيه الإنكار ، إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار ، يفر إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين ، الذين جعلهم اللّه حوارى الدين ، ففى الحديث الصحيح : «خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف «١» الجبال يفرّ من الفتن». فالمؤمن يفر بدينه من شاهق جبل إلى شاهق جبل حتى يدركه الموت ، وما زالت الأكابر تفر بنفسها إلى شواهق الجبال ، يهربون من حس الدنيا وشغبها ، ولا يرافقون إلا من يستعين بهم على ذكر اللّه ، وهم أهل التجريد ، الذين اصطفاهم اللّه لخالص التوحيد ، فروا إلى اللّه فآواهم اللّه ، قالوا : (آمنا باللّه واشهد بأنا مسلمون) منقادون لما تريد منا ، (ربنا آمنا بما أنزلت) من الأحكام الجلالية والجمالية قد عرفناك فى جميع الحالات ، (فاكتبنا مع الشاهدين) لحضرتك ، المنعمين بشهود ذاتك ، ومن مكر بنا من القواطع الخفية فغيّبنا عنه بشهود أنوارك القدسية ، وانصرنا فإنك خير الناصرين ، ولا تدعنا مع مكر الماكرين يا رب العالمين.
ثم ذكر الحق تعالى رفع عيسى إلى السماء فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٥ الى ٥٨]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

قلت : (إذ قال) : ظرف لمقدر ، أي : اذكر ، أو وقع ذلك إذ قال ، أو لمكروا ، (متوفيك) أي : رافعك إليّ وافيا تاما ، من قولهم : توفيت كذا واستوفيته : قبضته وافيا تاما ، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت ، أو منيمك بدليل قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ، روى أنه رفع نائما ، والإجماع على أنه لم يمت ،

---

(١) (شعف) ، بفتح الشين والعين : جمع شعفة ، وهى من كل شيء : أعلاه. والمراد بها هنا : رءوس الجبال.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٠

قال تعالى : وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وقوله : (ذلك) مبتدأ ، و(نتلوه) : خبر ، و(من الآيات) :

حال ، أو (من الآيات) : خبر ، و(نتلوه) : حال ، أو خبر بعد خبر.

يقول الحق جل جلاله : اذكر إِذْ قالَ اللَّهُ لعيسى عليه السّلام لما أراد رفعه : يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ، أي :

قابضك إلى ببدنك تاما ، وَرافِعُكَ إِلَيَّ أي : إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : من مخالطة دنس كفرهم ، وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ممن صدق بنبوتك من النصارى والمسلمين ، وقال قتادة والشعبي والربيع : هم أهل الإسلام. هـ. فو اللّه ما اتبعه من ادعاه ربا ، فمن تبع دينه حقا جعل فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا به من اليهود إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ يغلبونهم بالحجة والسيف. وقد حقق اللّه فيهم هذا الأمر ، فإن اليهود لم ترفع لهم راية قط ، ولم يتفق لهم ملك ولا دولة إلى زمننا هذا «١».

ثم قال تعالى : ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ بالبعث ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين وأمر عيسى. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : فأجمع لهم عذابا الآخرة لعذاب

الدنيا الذي أصابهم فيها من القتل والسبي. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ فى الدارين بالنصر والعز فى الدنيا ، وبالرضا والرضوان فى الآخرة ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لا يرضى فعلهم ولا يقربهم إليه.

ذلِكَ الذي ذكرت لك من نبأ عيسى ومريم ومن ذكر قبلهما ، نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ أي : العلامات الدالة على صدقك ، لأنها أخبار عن أمور لم تشاهدها ولم تقرأها فى كتاب ، بل هى من الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وهو القرآن المبين.

الإشارة : كل من طهر سره من الأكدار ، وقدس روحه من دنس الأغيار ، ورفع همته عن هذه الدار ، عرج اللّه بروحه إلى سماء الملكوت ، ورفع سره إلى مشاهدة سنا الجبروت ، وبقي ذكره حيا لا يموت ، وجعل من انتسب إليه فى عين الرعاية والتعظيم ، وفى محل الرفعة والتكريم ، قال – عليه الصلاة والسلام – : «هاجروا تكسبوا العز لأولادكم» ، فمن هاجر وطن الحظوظ والشهوات ، والركون إلى العوائد والمألوفات ، عرجت روحه إلى سماء القدس ومحل الأنس ، وتمكن من العز الذي لا يفنى ، ينسحب عليه وعلى أولاده ومن انتسب إليه إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، (و هو خير الوارثين). هذه سنة اللّه فى خلقه ، لأنهم نصروا دين اللّه ورفعوا كلمة اللّه ، فنصرهم اللّه ، ورفعهم اللّه ، قال تعالى : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وقال تعالى : وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا. وفى الحكم : «إن أردت إن يكون لك عز لا يفنى ، فلا تستعزن بعز يفنى». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : إلى زمن المؤلف ، أما فى زمننا ، فقد أنشئوا لهم دولة ، فى قلب عالمنا الإسلامى ، فى فلسطين العربية ، بمعاونة الدول الظالمة. اللهم أزل دولتهم وفرق شملهم ... آمين.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦١

وقال القشيري : الإشارة فيه : إنى متوفيك عنك وقابضك منك ، ورافعك عن نعوت البشرية ، ومطهرك عن إرادتك بالكلية ، حتى تكون مصدقا لنا بنا ، ولا يكون لك من اختيارك شيء ، وتكون إسبال التولي عليك قائما ، وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة عليه. هـ. وقال الورتجبي :

متوفيك عن رسم الحدوثية ، ورافعك إليّ بنعت الربوبية ، ومطهرك عن شوائب البشرية. هـ.

ثم ذكر نشأة عيسى وخلقه ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ أي : إن شأنه الغريب فى كونه وجد من غير أب (كمثل آدم). ثم فسر شأن آدم فقال : خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ أي : خلق قالبه من تراب ، ثُمَّ نفخ فيه الروح ، وقالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أي : فكان ، فشأنه أغرب من شأن عيسى ، لأنه وجد من غير أب ولا أم ، بخلاف عيسى عليه السّلام ، فلا يستغرب حاله ويتغالى فيه إلا من طبع اللّه على قلبه ، فاستعجز القدرة الإلهية ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً. هذا هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أي : الشاكين فى مخلوقيته ، وهذا خطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلم ، على طريق التهييج لغيره ، أو لكل سامع.

وسبب نزول الآية : أنّ وفد نجران قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ، فتقول : إنه عبد؟ قال : أجل ، هو عبد اللّه ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله. فنزلت : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ. أي : فهو أعجب من عيسى ، لكونه بلا واسطة أصلا. روى أن مريم حملت بعيسى وهى بنت ثلاث عشرة سنة ، وأوحى اللّه إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين.

قال عليه الصلاة والسلام : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، فإنه نازل بأمتى وخليفتى فيهم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، سبط الشعر ، كأن شعره يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، يدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض المال ، وليسلكن الروحاء «١» ، حاجا أو معتمرا ، أو ليثنيّهما جميعا ، ويقاتل الناس على الإسلام ، حتى يهلك اللّه فى زمانه الملل كلها ، ويهلك اللّه فى زمانه مسيح الضلالة ، الكذاب

---

(١) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى بدر ، وإلى مكة ، عام الفتح وعام الحج.



---



الدجال ، وتقع فى الأرض الأمنة ، حتى ترتع الأسد مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الغلمان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتزوج ويولد له ثم يتوفى ، ويصلى المسلمون عليه». ويدفنونه فى حجرة النبي صلّى اللّه عليه وسلم.

الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – أظهر هذا الآدمي فى شكل غريب ، وسر عجيب ، جمع فيه بين الضدين ، وأودع فيه سر الكونين ، نورانى ظلمانى ، روحانى جسمانى ، سماوى أرضى ، ملكوتى ملكى ، معنوى حسى ، أودع فيه الروح نورانية لاهوتية فى نطفة ناسوتية ، فوقع التنازع بين الضدين ، فالروح تحن إلى وطنها اللاهوتى ، والنطفة الطينية تحن إلى وطنها الناسوتي ، فمن غلبت روحانية على طينته التحق بالروحانيين ، وكان من المقربين فى أعلى عليين ، فصارت همته منصرفة إلى طاعة مولاه ، والارتقاء إلى مشاهدة نوره وسناه ، فانيا عن حظوظه وهواه ، ومن غلبت طينته على روحانيته التحق بالبهائم أو الشياطين ، وانحط إلى أسفل سافلين ، وكانت همته منصرفة إلى حظوظه وهواه ، غائبا عن ذكر مولاه ، قد اتخذ إلهه هواه.

وتأمل قضية السيد عيسى عليه السّلام لمّا لم ينشأ من نطفة أمشاجية ، كيف غلبت روحانيته ، حيث لم تجد ما يجذبها إلى الحضيض الطيني ، فلم يلتفت إلى هذا العالم الظلماني أصلا ، وكذلك الأنبياء حيث طهروا من بقاياها فى الأصالة ، والأولياء حيث طهروها بالمجاهدة ، كيف صارت أرواحهم لاتشتاق إلا إلى الأذكار والعلوم والأسرار ، فانية فى محبة الواحد القهار ، حتى لحقت بوطنها ، ورجعت إلى أصلها ، محل المشاهدة والمكالمة والمناجاة والمسارة ، هذا هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين فى إدراك الروح هذا المقام ، إن لم يغلب عليها عالم الصلصال. واللّه – تعالى – أعلم.

ولما قامت الحجة على النصارى ، وتبيّن عنادهم ، دعاهم إلى المباهلة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦١ الى ٦٣]

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

قلت : أصل (تعالوا) : تعاليوا ، على وزن تفاعلوا ، من العلو ، فقلبت الياء ألفا لتحركها ، ثم حذفت ، ومن قرأ بالضم نقل ، وأصل معناها : ارتفع ، ثم أطلق على الأمر بالمجيء. والابتهال : التضرع والمبالغة فى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ خاصمك يا محمد فى شأن عيسى عليه السّلام ، وكان الذي خاصم فى ذلك السيد والعاقب ، لما قدموا مع انصارى نجران على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، قال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «أسلما» ، قالا : قد أسلمنا قبلك ، قال : «كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما عيسى للّه ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» ، قالا : إن

لم يكن عيسى ولدا للّه فمن أبوه؟ فقال لهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم كل شيء ، ويحفظه ، ويرزقه؟ قالوا : بلى ، قال : فهل ملك عيسى شيئا من ذلك؟ فقالوا : لا. قال : ألستم تعلمون أن اللّه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علّم؟ قالوا : لا.

قال : فإن ربنا صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ، قالوا : بلى.

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذّى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا : بلى. قال : كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا ... فأنزل فيهم السورة إلى هنا.

فقال الحق لنبيه – عليه الصلاة السلام – : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ أي : فى عيسى من النصارى ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بعبوديته ، فَقُلْ لهم : تَعالَوْا نتلاعن ، أي : نلعن الكاذب منا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ أي : يدعو كل واحد منا نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ، وإنما قدّمهم على النفس لأن الرجل يخاطر بنفسه دونهم ، فكان تقديمهم أبلغ فى الابتهال ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ ، أي نجهد فى الدعاء على الكاذب ، فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ.

فلما قرأ النبي صلّى اللّه عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ، ودعاهم إلى المباهلة ، قالوا : حتى نرجع وننظر فى أمرنا ، فقالوا للعاقب – وكان ذا رأيهم – : ما ترى؟ فقال : واللّه لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، واللّه ما لا عن قوم قط نبيا فعاش كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن ، فوادعوا الرّجل. وانصرفوا ، فأتوه وهو محتضن الحسن آخذ بيد الحسين ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلىّ خلفها ، وهو يقول لهم : «إذا دعوت فأمنوا» ، فقال الأسقف : يا معشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو سألوا اللّه أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تتباهلوا فتهلكوا جميعا إلى يوم القيامة. فقالوا : يا أبا القاسم ، نرى ألا نلا عنك ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : أسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فأبوا ، فقال : إنى أنابذكم ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكنا نصالحك على ألا تغزونا ولا تردّنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر ، ألفا فى رجب ، وثلاثين درعا من حديد.

فصالحهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم على ذلك ، فقال النبي : «والذي نفسى بيده لو تلاعنوا لمسخوا قردة ، وخنازير ، ولأضرم عليهم الوادي نارا ، ولا ستأصل اللّه نجران وأهله ، ولما حال الحول على النّصارى كلّهم حتى هلكوا».

قال اللّه تعالى : إِنَّ هذا الذي أوحينا إليك لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ ، خلافا لما يزعم النصارى من التثليث ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه الْحَكِيمُ فى صنعه ، فلا أحد يساويه فى قدرته

التامة ، ولا فى حكمته البالغة ، فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عن الإيمان ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ، الذين يعبدون غير اللّه.

(٣٦٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٤

ووضع المظهر موضع الضمير ، ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين ، بل يؤدى إلى فساد العالم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للمريد ، الذي تحقق بخصوصية شيخه ، أن يلاعن من يخاصمه فيه ، ويبعد عنه كل البعد ، ولا يهين له لئلا يركبه ، ويدفع عن شيخه ما استطاع ، فإنّ هذا من التعظيم الذي هو سبب فى سعادة المريد ، ولا يصغى إلى المفسدين الطاعنين فى أنصار الدين. قلت : وقد جاءنى بعض من ينتسب إلى العلم من أهل فاس ، فقال لى : قد اتفقت علماء فاس على بدعة شيخكم ، فقلت له : لو اتفق أهل السموات السبع والأرضين السبع ، على أنه من أهل البدعة ، لقلت أنا : إنه من أهل السنة ، لأنى تحققت بخصوصيته ، كالشمس فى أفق السماء ، ليس دونها سحاب. فاللّه يرزقنا حسن الأدب معهم والتعظيم إلى يوم الدين. آمين. فمن أعرض عن أولياء اللّه من المنكرين (فإن اللّه عليم بالمفسدين).

ثم دعاهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه سائر الأديان ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٦٤]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

قلت : (سواء) : مصدر ، نعت للكلمة ، والمصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث ، فإذا فتحت السين مددت ، وإذا ضمت أو كسرت قصرت ، كقوله : مَكاناً سُوىً أي : مستو. وسواء كل شيء : وسطه ، قال تعالى : فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ ، أي : وسطه.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، تَعالَوْا : هلموا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ أي : عدل مستوية ، بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم ، هى أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ أي : نوحده بالعبادة ، ونقر له بالوحدانية ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً أي : لا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : لا نقول عزير ابن اللّه ، ولا المسيح ابن اللّه ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأنهم بشر مثلنا.

ولمّا نزل قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ... قال عدى بن حاتم : ما كنّا

نعبدهم يا رسول اللّه ، قال : «أليس كانوا يحلّون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بقولهم؟ قال : بلى ، قال : هو ذاك»

(٣٦٤/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٥

فَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عن التوحيد فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، فقد لزمتكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، وأنتم كافرون بما نطقت به الكتب وتواطأت عليه الرسل.

تنبيه : أنظر ما فى هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج فى الاحتجاج ، بيّن أولا أحوال عيسى وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لمّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد ، عاد عليهم بالإرشاد ، وسلك طريقا أسهل وألزم ، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لمّا لم يجد ذلك فيهم شيئا ، وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم شيئا أعرض عنهم ، وقال : فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. قاله البيضاوي.

الإشارة : الطرق كثيرة والمقصد واحد ، وهو التوحيد الخاص ، أعنى مقام الفناء والبقاء. فالداعون إلى اللّه كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد ، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها ، وكل داع لا يبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال ، فإن رضى بتعظيم الناس ، ولم يبن طريقه على الأساس ، فليس لصاحبه إلا الإفلاس ، وكل من أطاع المخلوق فى معصية اللّه فقد اتخذه ربّا من دون اللّه ، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطرد والبعاد ، فيقول له الواصلون أو السائرون : (فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون). وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم وفد نجران المدينة ، التقوا مع اليهود ، فاختصموا فى إبراهيم عليه السّلام فأتاهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد إنا اختلفنا فى إبراهيم ودينه ، فقالت النصارى : كان نصرانيا ، وقالت اليهود : كان يهوديا ، وهم أولى الناس به ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «كلا الفريقين برئ من إبراهيم ، بل كان إبراهيم حنيفا مسلما ، وأنا على دينه ، فاتبعوا دينه الإسلام». فأنزل اللّه :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٥ الى ٦٨]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٦

قلت : (ها أنتم) : أصله : أنتم ، دخلت عليه هاء التنبيه ، وقال الأخفش : أصله : أأنتم ، فقلبت الهمزة الأولى هاء ، كقوله : هرقت. وتوجيه القراءات معلوم فى محله ، و(أنتم) : مبتدأ ، و(هؤلاء) : خبره ، و(حاججتم) : جملة مبينة للأولى ، أو (حاججتم) : خبر ، و(هؤلاء) : منادى بحذف النداء ، و(حنيفا) : حال ، أي : مائلا عن الأديان إلا دين الإسلام.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ ، ويدعى كل فريق أنه كان على دينه ، وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، فكيف يكون يهوديا ، ودينكم إنما حدث بعد إبراهيم بألف سنة؟! وكيف يكون نصرانيا ، ودين النصرانية إنما ظهر بعد إبراهيم بألفى سنة؟! أَفَلا تَعْقِلُونَ فتدعون المحال ، ها أَنْتُمْ يا هؤُلاءِ الحمقى حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من أمر محمد – عليه الصلاة والسلام – ونبوته ، مما وجدتموه فى التوراة والإنجيل ، فأنكرتموه عنادا وحسدا ، فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ، ولا ذكر فى كتابكم من شأن إبراهيم؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما خاصمتم فيه ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ، بل أنتم جاهلون.

ثم صرح بتكذيب الفريقين فقال : ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مائلا عن العقائد الزائفة ، (مسلما) منقادا لأحكام ربه. وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام ، وإلا لكان مشترك الإلزام ، لأن دين الإسلام مؤخر أيضا ، فكان إبراهيم إمام الموحدين ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما عليه اليهود والنصارى والمشركون. ففيه تعريض بهم ، ورد لادعائهم أنهم على ملته.

ثم ذكر من أولى الناس به ، فقال : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ أي : أخصهم به وأقربهم منه ، لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ من أمته فى زمانه ، وَهذَا النَّبِيُّ محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَالَّذِينَ آمَنُوا لموافقتهم له فى أكثر الأحكام ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لكلّ نبىّ ولاة من النّبيّين ، وإنّ وليّى منهم أبى وخليل ربّى».

يعنى : إبراهيم عليه السّلام ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ أي : ناصرهم على سائر الأديان ، ومجازيهم بغاية الإحسان.

الإشارة : ترى كثيرا من المتفقرة يخصون الكمال بطريقهم ، ويخاصمون فى طريق غيرهم ، وهى نزعة أهل الكتاب ، حائدة عن الرشد والصواب ، فأولى بالحق من اتبع السنة المحمدية ، وتخلق بالأخلاق المرضية ، وزهد فى الدارين ، ورفع همته عن الكونين ، ورفع حجاب الغفلة عن قلبه ، حتى أشرقت عليه أنوار ربه ، واتصل بأهل التربية النبوية ، فزجوا به فى بحار الأحدية ، ثم ردوه إلى مقام الصحو والتكميل ، فياله من مقام جليل ، فهذه ملة إبراهيم الخليل ، وبها جاء الرسول الجليل حبيب الرحمن ،

وقطب دائرة الزمان ، سيد المرسلين ، وإمام العارفين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين.

(٣٦٦/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٧

ثم شرع فى معاتبة اليهود وذكر مساوئهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٦٩) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

قلت : (لو) : مصدرية ، أي : تمنوا إضلالكم.

يقول الحق جل جلاله لبعض المسلمين – وهم حذيفة وعمار ومعاذ – دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم :

وَدَّتْ طائِفَةٌ أي : تمنت طائفة مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ أي : يفتنونكم عن دينكم ، ويتلفونكم عن طريق الحق ، وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لأن المسلمين لا يقبلون ذلك منهم ، فرجع الضلال عليهم ، وعاد وباله إليهم ، وتضاعف عذابه عليهم ، وَما يَشْعُرُونَ أن وباله راجع إليهم.

ثم صرح الحق تعالى بعتابهم ، فقال : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم وتجحدون رسالته؟ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أنها من عند اللّه ، وأنه نبى اللّه ، وهو منعوت عندكم فى التوراة والإنجيل ، والمراد أحبارهم ، أو تشهدون أنه نبى اللّه بالمعجزات الواضحات. يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ بالتحريف وإبراز الباطل فى صورة الحق ، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه ، وأظهرتم موضعه الباطل الذي سولت لكم أنفسكم؟ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنه رسول اللّه حقا وأن دينه حق ، أو :

وأنتم عالمون بكتمانكم.

الإشارة : ترى كثيرا من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين ، وممن ينتسب لهم ، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية فى زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم ، خوفا على زوال رئاستهم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، (و اللّه متم نوره ولو كره الكافرون) ، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد ، والحسود لا يسود ، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم ، فيكتمها وهو يشهد بصحتها ، فيقال لهم : لم تكفرون بآيات اللّه وأنتم تشهدون؟ ولم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟.

ثم ذكر الحق – تعالى – خدع أهل الكتاب وحيلهم الفارغة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٢]

وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

*(٣٦٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٨

قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا من يهود خيبر – يعنى من أحبارهم – وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان لا بالاعتقاد ، واكفروا به آخره ، وقولوا : نظرنا فى كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه ، وإنما نفعل ذلك حتى نشكك أصحابه. هـ. فحذّر اللّه تعالى المسلمين من قولهم ، فقال جل جلاله : وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ يعنى : أحبارهم : (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) وأظهروا الدخول فى دينهم ، وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ وقولوا : نظرنا فى كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فلم نجد محمدا بالنعت الذي فى التوراة ، لعل أصحابه يشكون فيه – لعنهم اللّه وأضل سعيهم.

وقيل : نزلت فى شأن الكعبة ، فإنّ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف – من اليهود – قالا لأصحابهما : صلوا معهم إلى الكعبة أول النهار ، ثم صلوا إلى الصخرة آخره ، لعلهم يقولون : هم أعلم منا ، وقد رجعوا ، فيرجعون ، ففضحهم اللّه وأبطلحيلتهم الواهية.

الإشارة : ترى كثيرا من الناس يدخلون فى طريق القوم ، ثم تثقل عليهم أعباؤها ، فيخرجون منها إما لضعفهم عن حملها ، أو لكونهم دخلوا مختبرين لها ، أو على حرف أو حيلة لغيرهم ، فإذا رجع أحد منهم قال الناس : لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها ، ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عليها ، وهذه نزعة إسرائيلية ، قالوا : آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لتسلكن سنن من قبلكم شبرا بشير ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنّصارى؟ قال : نعم ، فمن إذن». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق – تعالى – مقالة أخرى من مقالاتهم الشنيعة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

قلت : يحتمل أن يكون قوله : (أن يؤتى) : مفعولا ب – (تؤمنوا) ، و(قل إن الهدى هدى اللّه) : اعتراض ، واللام فى «لمن» صلة ، (أو يحاجوكم) : عطف على (يؤتى) ، والتقدير : ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، إلا من كان على دينكم ، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم ، بل أنتم تحاجون غيركم. فردّ اللّه عليهم (قل إن الهدى هدى اللّه) ، و(إن الفضل بيد اللّه). ويحتمل أن يكون قوله : (أن يؤتى) مفعولا لأجله ، والعامل فيه محذوف ، والتقدير : أدبّرتم ما دبرتم كراهية أن يوتى أحد ما أوتيتم ، ومخافة أن يحاجوكم عند ربكم؟.

*(٣٦٨/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٦٩

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن اليهود : (و) قالوا لا تُؤْمِنُوا أي : لا تقروا ، أو تصدقوا أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ من العلم والحكمة وفلق البحر وسائر الفضائل ، إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دين اليهودية ، وكان على دِينَكُمْ ، ولا تؤمنوا أن يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ لأنكم أصح دينا منهم. قال الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ يهدى به من يشاء ، وإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ.

أو يقول الحق جل جلاله : وقالوا : لا تصدقوا ولا تذعنوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ وكان من جلدتكم ، فإن النبوة خاصة بكم. فكذبهم الحق بقوله : قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ ، يخص بها من يشاء من عباده ، فكيف تحصرونها فيكم؟ لأجل أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ قلتم ما قلتم ، ودبرتم ما دبرتم ، حسدا وبغيا ، (أو) خوفا أن يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، يغلبوكم بالحجة لظهور دينهم ، قُلْ يا محمد : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ فلا ينفع فى رده حيلة ولا خدع.

أو يقول الحق جل جلاله ، للمؤمنين ، تثبيتا لهم وتشجيعا لقلوبهم : ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين أن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين القويم إلا من تبع دينكم الحق ، وجاء به من عند الحق ، ولا تصدقوا أَوْ يُحاجُّوكُمْ فى دينكم عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أو يقدر أحد على ذلك ، فإن الهدى هدى اللّه والفضل بيد اللّه ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والكرم ، عَلِيمٌ بمن يستحق الخصوصية والفضل ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ كالنبوة وغيرها ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ لا حصر لفضله ، كما لا حصر لذاته.

الإشارة : يقول الحق – جلت ذاته ، وعظمت قدرته – لأهل الخصوصية : ولا تقروا بالخصوصية إلا لمن كان على دينكم وطريقكم ، وتزيّا بزيكم ، وبذل نفسه وفلسه فى صحبتكم ، مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الخصوصية ، وهو ليس أهلا لها ، فيأخذها علما ، فإما أن يتزندق أو يتفسق ، أو يحاجوكم بالشريعة فيريق دماءكم كما وقع للحلاج رضي اللّه عنه وفى ذلك يقول الشاعر :

ومن شهد الحقيقة فليصنها وإلّا سوف يقتل بالسّنان

كحلّاج المحبّة إذ تبدّت له شمس الحقيقة بالتّدانى «١»

وقال آخر :

بالسّرّ إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

---

(١) البيتان : من قصيدة للشيخ محيى الدين بن عربى ، فى كتابه : الإسراء إلى المقام الأسرى ، وفيه : ومن فهم الإشارة فليصنها.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٠

وقل أيها العارف ، لمن طلب الخصوصية قبل شروطها أو أنكر وجودها عند أهل شرطها : إن الهدى هدى اللّه يهدى به من يشاء ، والفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء ، والرحمة – التي هى الخصوصية – فى قبضة اللّه ، يخص بها من يشاء ، (و اللّه ذو الفضل العظيم) فمن أراد الخصوصية فليطلبها من معدنها ، وهم العارفون بها ، فيبذل نفسه وفلسه لهم حتى يعرفوه بها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق – تعالى – وصف اليهود بالخيانة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

قلت : الباء فى (بقنطار) ، بمعنى على ، و(يؤده) : جواب الشرط مجزوم بحذف الياء ، ومن قرأ بإسكان الضمير فلأنه أقامه مقام المحذوف ، فجزمه عوضا عنه ، وقال الفراء : مذهب بعض العرب : يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها ، يقولون : ضربته ضربا شديدا.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ من أسلم وآمن فصار من أهل الإيمان ، إِنْ تَأْمَنْهُ على بِقِنْطارٍ من المال أو أكثر أداه إليك ، ولم يخن منه شيئا. وفى الحديث : «من ائتمن على أمانة فأداها ، ولو شاء لم يؤدها ، زوجه اللّه من الحور العين ما شاء». وَمِنْهُمْ من بقي على دينه من أهل الخيانة والخسران ، إِنْ تَأْمَنْهُ على بِدِينارٍ فأقل لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً على رأسه ، مبالغا فى مطالبته. نزلت فى عبد اللّه بن سلام ، استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا ، فأداها إليه ، وفى فنحاص بن عازوراء اليهودي ، استودعه قرشى آخر دينارا ، فجحده. وقيل : فى النصارى واليهود ، فإن النصارى : الغالب عليهم الأمانة ، واليهود الغالب عليهم الخيانة.

وذلك الاستحلال بسبب أنهم قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أي : ليس علينا فى شأن من ليسوا أهل كتاب ، ولم يكونوا على ديننا ، حرج فى أخذ مالهم وجحدها ، ولا إثم ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم ، وقالوا : لم يجعل لهم فى التوراة حرمة.

وقيل : عامل اليهود رجالا من قريش ، فلما أسلموا تقاضوهم ، فقالوا : سقط حقكم حيث تركتم دينكم. وقال صلّى اللّه عليه وسلم :

«كذب أعداء اللّه ، ما من شىء فى الجاهلية إلّا وهو تحت قدمى ، إلّا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

(١/٣٧٠)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧١

ثم كذّبهم الحق – تعالى – فقال : بَلى عليهم فى ذلك سبيل ، فإن مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى الشرك والمعاصي فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ومن أحبه اللّه كيف يباح ماله وتسقط حرمته؟! بل من أسقط حرمته فقد حارب اللّه ورسوله ، أو مَنْ أَوْفى ، بعهد اللّه من أهل الكتاب ، فآمن بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وَاتَّقى الخيانة ، وأدى الأمانة ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. وأوقع المظهر موقع الضمير العائد إلى «من» لعمومه ، فإن لفظ المتقين عام يصدق برد الودائع وغيره ، إشعارا بأن التقوى ملاك الأمر وسبب الحفظ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد رأينا بعض الفقراء دخل بلد الحقيقة فسقطت من قلبه هيبة الشريعة ، فتساهل فى أموال الناس وسقطت لديه حرمة العباد ، حتى لا تثق به فى حفظ مال ولا أهل ، فإذا أودعته شيئا أو قارضته لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما. وهذه زندقة ونزعة إسرائيلية ، لا يرضاها أدنى الناس ، فما بالك بمن يدعى أنه أعلى الناس ، وفى بعض الحكم : [كمال الديانة ترك الخيانة] ، وأعظم الإفلاس خيانة الناس ، وفى الحديث : «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صلّى وإن صام وزعم أنه مؤمن ، إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان». فإذا احتج لنفسه الأمارة ، وقال : لا سبيل علينا فى متاع العوام ، فقد خلع من عنقه ربقة الإسلام ، واستحق أن يعلو مفرقه الحسام. واللّه تعالى أعلم.

ومن جملة الخيانة : أكل أموال الناس بالأيمان الفاجرة ، كما أشار إلى ذلك الحق – تعالى – فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٧]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ أي : يستبدلون بالوفاء بعهد اللّه كالإيمان بالرسول – عليه الصلاة والسلام – الذي أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة وبيان صفته ، وأداء الأمانة ، فكتموا ذلك واستبدلوا به ثَمَناً قَلِيلًا حطاما فانيا من الدنيا ، كانوا يأخذونه من سفلتهم ، فخافوا إن بيّنوا ذلك زال ذلك عنهم ، وكذلك الأيمان التي أخذها اللّه عليهم لئن أدركوا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ليؤمنن به ولينصرنه ، فنقضوها ، خوفا من زوال رئاستهم ، فاستبدلوا بالوفاء بها ثمنا قليلا فانيا ، أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ أي : لا نصيب لهم ، فِي الْآخِرَةِ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ بما يسرهم ، أو بشيء أصلا ، وإنما الملائكة تسألهم ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ نظرة رحمة ، بل يعرض عنهم ، غضبا عليهم وهوانا بهم ، وَلا يُزَكِّيهِمْ لا يطهرهم من ذنوبهم ، أو لا يثنى عليهم ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي : موجع.

قال عكرمة : نزلت فى أبى رافع وكنانة بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، وغيرهم من رؤساء اليهود ، كتموا ما عهد اللّه إليهم فى التوراة فى شأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم من بيان صفته ، فكتموا ذلك وكتبوا غيره ، وحلفوا أنه من عند اللّه ، لئلا يفوتهم الرشا من أتباعهم.

*(٣٧١/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٢

وقال الكلبي : إن ناسا من علماء اليهود كانوا ذا حظ من علم التوراة ، فأصابتهم سنة ، فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه ، أي : يطلبون منه الميرة – وهو الطعام – ، فقال لهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول فى كتابكم؟

قالوا : نعم ، أو ما تعلمه أنت؟ قال : لا ، قالوا : فإنا نشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، قال كعب : لقد قدمتم علىّ ، وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم ، فحرمكم اللّه خيرا كثيرا ، قالوا : فإنه شبه لنا ، فرويدا حتى نلقاه ، فانطلقوا ، فكتبوا صفة غير صفته ، ثم أتوا نبى اللّه – عليه الصلاة والسلام – فكلموه ، ثم رجعوا إلى كعب ، فقالوا : قد كنا نرى أنه رسول اللّه ، فأتيناه فإذا هو ليس بالنعت الذي نعت لنا ، وأخرجوا الذي كتبوه ، ففرح كعب ، ومارهم. فنزلت الآية. قلت : انظر الطمع ، وما يصنع بصاحبه! والعياذ باللّه.

وقيل : نزلت فى رجل أقام سلعته فى السوق ، وحلف لقد أعطى فيها كذا وكذا ، وقيل : نزلت فى الأشعث بن قيس ، كانت بينه وبين رجل خصومة ، فتوجهت اليمين على الرجل ، فأراد أن يحلف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد أخذ اللّه العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره ، ولا يميلوا إلى شيء سواه ، فكل من مال إلى شيء أو ركن بالمحبة إلى غير اللّه ، فقد نقض العهد مع اللّه ، فلا نصيب له فى مقام المعرفة

، ولا تحصل له مشاهدة ولا مكالمة حتى يثوب ويتوجه بكليته إلى مولاه. واللّه – تعالى – أعلم.

ومن مساوئهم أيضا : تحريفهم لكتاب اللّه ، كما أشار إلى ذلك الحق – تعالى – بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٨]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ من أهل الكتاب لَفَرِيقاً ، وهو كعب بن الأشرف ، وحيى بن أخطب ، ومالك بن الصيف ، وأبو ياسر ، وشعبة بن عامر ، يَلْوُونَ أي : يفتلون أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ أي : التوراة عند قراءته ، فيميلون عن المنزل إلى المحرف ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ أي : لتظنوا أن ذلك المحرف من التوراة ، وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فيما نسبوا إليه ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنه ليس من عند اللّه.

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والنصارى جميعا ، حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا به ما ليس منه ، وأسقطوا منه الدين الحنيف ، فبيّن اللّه كذبهم. وقيل : فى الرجم ، حيث كتموا الرجم ، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم ، وقرأ ما حولها ، فقال له ابن سلام : ارفع يديك ، فإذا آية الرجم تلوح. واللّه أعلم.

*(٣٧٢/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٣

الإشارة : هذه الآية تنسحب على علماء السوء ، الذين يفتون بغير المشهور ، لحظ يأخذونه من الدنيا ، وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى ، ويعتمدون على الأقوال الواهية ، ويقولون هو من عند اللّه ، وما هو من عند اللّه.

وكذلك بعض المنتسبين من الفقراء ، يتصنعون إلى العامة ، يطمعون فيما فى أيديهم من الحطام ، فيظهرون لهم علوما ومعارف وحكما ، يلوون ألسنتهم بها وقلوبهم خاوية من معناها ، فظاهر حالهم يوهم أن ذلك موافق لقلوبهم ، وأنهم عاملون بذلك ، وباطنهم يكذبهم فى ذلك ، (و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم أبطل اللّه تعالى شبهة اليهود والنصارى فى عبادة عيسى وعزير وغيرهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ

أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

قلت : البشر : اسم جمع لا مفرد له ، يطلق على الجماعة والواحد. والرباني : هو الذي يربى الناس ويؤدبهم ويهذبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس : (هو الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره) ، والنون فيه للمبالغة ، كلحياني ورقباني. و(لا يأمركم) بالرفع ، استئناف ، وبالنصب : عطف على «يقول» ، و«لا» مزيدة ، : أي ما كان لبشر أن يستنبئه اللّه ، ثم يأمر بعبادة نفسه ، ويأمر باتخاذ الملائكة أربابا. أو غير مزيدة ، والتقدير : ليس له أن يأمر بعبادته ولا باتخاذ الملائكة أربابا.

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ أي : الفصل بين العباد ، وَالنُّبُوَّةَ أي : الوحى بالأحكام ، ثُمَّ يَقُولَ بعد ذلك لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ أو مع اللّه ، أو يرضى أن يعبد من دون اللّه ، وَلكِنْ يقول لهم : كُونُوا رَبَّانِيِّينَ أي : علماء باللّه ، فقهاء فى دينه ، حلماء على الناس ، تربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال ، بسبب بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ من كتاب اللّه وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ منه ، أو بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الناس من الخير بكتاب اللّه ، وما كنتم تدرسونه عليهم.

ولما مات ابن عباس – رضى اللّه عنهما – قال محمد بن الحنفية : (مات ربّانى هذه الأمة).

وَلا يَأْمُرَكُمْ ذلك البشر الذي خصه الله بالنبوة ، أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً من دون الله ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : منقادون لأحكام الله. قيل : سبب نزول الآية : أن نصارى نجران قالوا : يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربا؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره». وقيل : إن رجلا قال : يا رسول الله : نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك؟ فقال :

«لا ينبغى أن يسجد أحد لأحد من دون اللّه ، ولكن أكرموا نبيّكم ، واعرفوا الحقّ لأهله».

*(٣٧٣/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٤

الإشارة : ما زال الفقراء يعظمون أشياخهم ، ويبالغون فى ذلك حتى يقبّلون أرجلهم والتراب بين أيديهم ، ويجتهدون فى خدمتهم «١» ، فإذا رءاهم الأشياخ فعلوا ذلك سكتوا عنهم ، لأن ذلك هو ربحهم وسبب فتحهم ، وفى ذلك قال القائل :

بذبح النفوس وحط الرءوس تصفى الكئوس لكنهم يرشدونهم إلى الحضرة ، حتى يفنوهم عن شهود الواسطة ، فيكون تعظيمهم وحط رأسهم إنما هو لله لا لغيره ، وحينئذ يكونون ربانيين ، علماء بالله مقربين ، وكان شيخنا يقول : لا تزورونى على أنى شيخكم ، ولكن اعرفوا فينا ، وأفنوا عن رؤية حسنا ، حتى يكون التعظيم إنما هو لله ربنا. هـ. فدلالة الأشياخ للفقراء على التعظيم والأدب ليس ذلك مقصودا

لأنفسهم ، وحاشاهم من ذلك. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الخصوصية ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون اللّه ، ولكن يقول لهم : كونوا ربانيين عارفين بالله ، حتى يكون تعظيمكم إنما هو لله ، ولا يأمر أيضا بالفرق حتى يتخذوا الأشياء أربابا من دون اللّه ، ولكن يأمر بالجمع حتى يغيبوا عما سوى الله ، وكيف يأمرهم بالفرق ، وهو إنما يدلهم على الجمع؟ أيأمرهم بالكفر بعد أن كانوا مسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم فى الإيمان بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨٢)

قلت : اللام فى (لما) ، موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف ، و(ما) : يحتمل الشرطية ، و(لتؤمنن) : جواب القسم ، سد مسد الجواب ، أي : مهما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله لتؤمنن به.

ويحتمل الموصولية ، و(لتؤمنن) : خبر عنه ، وحذف شرط يدل عليه السياق أي : للذى آتيناكم من كتاب وحكمة ، ثم إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. ومن قرأ بكسر اللام كان تعليلا للأمر بالإيمان بالرسول ، أي :

لأجل الذي خصصتكم به إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، وإذا كان أخذ الله الميثاق على الأنبياء كان على الأتباع أولى ، أو استغنى بذكر الأنبياء عن ذكر أتباعهم لأنهم فى حكمهم.

---

(١) هذا مشروط كما بين الشيخ مرارا – بأن يكون فى حدود الشرع الشريف.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٥

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ أخذنا الميثاق على النبيين من لدن آدم عليه السّلام إلى عيسى عليه السّلام. وقلنا لهم : والله للذى خصصتكم به مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثم إن ظهر رسول مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ أنتم وأممكم ، أو : لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم لئن أدركتم محمدا لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا على – كرم الله وجهه – : (لم يبعث اللّه نبيا ، آدم ومن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، وأمره بأخذ العهد على قومه ليؤمنّ به ، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنّه).

قالَ الحق جل جلاله لمن أخذ عليهم العهد : أَأَقْرَرْتُمْ بذلك وقبلتموه ، وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي أي : عهدى وميثاقى؟ قالُوا أَقْرَرْنا وقبلنا ، قالَ فَاشْهَدُوا على أنفسكم ، أو ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، أو فاشهدوا يا ملائكتى عليهم ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وفيه توكيد وتحذير عظيم ، فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ الإقرار والشهادة ، وأعرض عن الإيمان به ، ونصره بعد ظهوره ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الخارجون عن الإيمان المتمردون فى الكفران.

الإشارة : كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأممهم فى الإيمان به عليه الصلاة السلام ، أخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة ، لئن أدركوا وليا من أولياء الله ، حاملا لواء الحقيقة ، مصدقا لما معهم من الشريعة ، ليؤمنن به ولينصرنه ، فمن تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية ، محرومون من سابق العناية ، فإن الحقيقة إنما هى لب الشريعة وخلاصتها ، فإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد ، فالشريعة كالجسد ، والحقيقة كالروح ، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح ، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد ، فلا قيام لهذا إلا بهذا ، فمن تشرّع ولم يتحقّق فقد تفسق ، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق ، ومن خرج عنهما فقد خرج عن دين الله وطلب غيره. وإليه توجه الإنكار بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٣]

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

قلت : (أ فغير) : مفعول مقدم ، و(يبغون) : معطوف على محذوف ، أي : أتتولون فتبغون غير دين الله ، وقدم المعمول لأنه المقصود بالإنكار ، و(طوعا وكرها) : حالان ، أي : طائعين أو كارهين.

يقول الحق جل جلاله للنصارى واليهود ، لمّا اختصموا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم ، فقال لهم – عليه الصلاة والسلام : «كلاكما برىء من دينه ، وأنا على دينه ، فخذوا به» ، فغضبوا ، وقالوا :

والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك ، فقال لهم الحق جل جلاله – منكرا عليهم – : أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه ، وقد انقاد له تعالى مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طائعين ومكرهين ، فأهل السموات



---



انقادوا طائعين ، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعا بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها ، ومنهم من انقاد كرها أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت ، أو : «طوعا»

كالملائكة والمؤمنين ، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعا ، (و كرها) كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرها ، وكلّ إليه راجعون ، لا يخرج عن دائرة حكمه ، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله فى الظاهر والباطن ، أما الانقياد إلى الله فى الظاهر فيكون بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وأما الانقياد إلى الله فى الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهره.

فكل من قصّر فى الانقياد فى الظاهر ، أو تسخط من الأحكام الجلالية فى الباطن ، فقد خرج عن كمال الدين ، فيقال له : أفغير دين الله تبغون وقد انقاد له (من فى السموات والأرض طوعا وكرها) ، فإما أن تنقاد طوعا أو ترجع إليه كرها. وفى بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى : «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ، فليخرج من تحت سمائى ، وليتخذ ربّا سواى».

وسبب تبرّم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه ، فكل من استنكف عن صحبة الطبيب ، فله من هذا العتاب حظ ونصيب ، فالأولياء حجة الله على العلماء ، والعلماء حجة الله على العوام ، فمن لم يستقم ظاهره عوتب على تفريطه فى صحبة العلماء ، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صحبة الأولياء ، أعنى العارفين. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق – تعالى – حقيقة الإيمان والإسلام الذي يجب اتباعه على جميع الأنام ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٤]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

قلت : (أنزل) : يتعدى بإلى لأنه ينتهى إلى الرسل ، ويتعدى بعلى ، لأنه يأتى من ناحية العلو والاستعلاء ، وفرّق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفى البقرة بإلى ، فقال : لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص ، وقد أنزل عليه الوحى مباشرة ، وهناك الخطاب للمسلمين ، وإنما أنزل الوحى متوجها إليهم بالواسطة ، ولم يكن عليهم بالمباشرة.

والله تعالى أعلم.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٧

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لأهل الكتاب الذين فرقوا فى إيمانهم بين الرسل : أما نحن فقد آمنا بالذي أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ على جميع الأنبياء والرسل لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ كما فرّقتم أنتم ، فضللتم ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أي : منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة ، أو مخلصون فى أعمالنا كلها ،

وقدّم المنزل علينا على المنزل على غيرنا ، لأنه عيار عليه ومعرّف به. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى للفقير أن يبالغ فى تعظيم شيخه ، ويسوغ له التغالى فى شأنه ما لم يخرجه عن طور البشر ، وما لم يؤد ذلك إلى إسقاط حرمة غيره من الأولياء بالتنقيص أو غيره ، فحرمة الأولياء كحرمة الأنبياء ، فمن فرّق بينهم حرم بركة جميعهم. وبالله التوفيق.
ثم إن ملة الإسلام التي جاء بها نبينا – عليه الصلاة والسلام – هى التي أحرزت هذا الاعتقاد الصحيح ، فكل من خرج عنها فقد ضل عن الحق الصريح ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)
قلت : (و شهدوا) : عطف على ما فى (إيمانهم) من معنى الفعل ، والتقدير : بعد أن آمنوا وشهدوا.
يقول الحق جل جلاله لرجال من الأنصار ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة ، منهم الحارث بن سويد الأنصاري : وَمَنْ يطلب غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً يتدين به فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ أبدا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ لأنه أبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها ، واستبدلها بالتقليد الرديء ، بعد أن عاين سواطع البرهان ، وشهدت نفسه بالحق والبيان ، ولذلك وقع التعجب والاستبعاد من هدايته فقال : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بعد أن آمنوا ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ أي : المعجزات الواضحات ، فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح ، منهمك فى الضلال ، بعيد عن الرشاد ، فقد ظلم نفسه وبخسها ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ، ووضعوا الكفر موضع الإيمان ، ولعل هذا فى قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

*(٣٧٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٨
ثم ذكر جزاءهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]
أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)
يقول الحق جل جلاله : أُولئِكَ المرتدون عن الإسلام – جَزاؤُهُمْ : أن تلعنهم الملائكة والناس أجمعون ، مؤمنهم وكافرهم ، لأن الكافر يلعن من ترك دين الحق ، وإن كان لا يشعر بمن هو على الحقّ.
خالِدِينَ فى اللعنة ، أو فى النار ، لدلالة السياق عليها ، أو فى العقوبة. لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ساعة ،

ولا هم يمهلون عنها لحظة.

ثم إنّ الحارث ندم ، وأرسل إلى قومه أن اسألوا الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، هل لى من توبة؟ فنزل قوله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٩]

إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

يقول الحق جل جلاله : إلا من تاب من بعد الردة ، فأسلم وأصلح ما أفسد ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ له فيما فعل ، رَحِيمٌ به حيث تاب.

ولمّا نزلت الآية حملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه ، فقال الحارث : إنك والله فيما علمت لصدوق ، وإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم لأصدق منك ، وإن الله – تعالى – لأصدق الثلاثة ، فرجع الحارث إلى المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه.

الإشارة : كل من ابتغى الخصوصية من غير أهلها ، أو ادعاها ولم يأخذها من معدنها ، فلن تقبل منه ، وهو عند القوم من الخاسرين فى طريق الخصوص ، فكل من لا شيخ له فى هذا الشأن فهو لقيط ، لا أب له ، دعيّ ، لا نسب له.

والمراد بأهلها : العارفون بالله ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الجذب والسلوك ، أهل السكر والصحو ، الذين شربوا الخمر فسكروا ثم صحوا وتكملوا ، فمعدن الخصوصية عند هؤلاء ، فكل من لم يصحبهم ولم يشرب من خمرتهم ، لا يقتدى به ، ولو بلغ من الكرامة ما بلغ ، وأخسر من هذا من صحب أهل هذه الخمرة ، وشهد بأن طريقهم حق ، ثم رجع عنها ، فهذا مغبون ملعون عند كافة الخلق ، أي : مطرود عن شهود الحق ، إلا من تاب ورجع إلى صحبتهم والأدب معهم ، فإن الله غفور رحيم.

ثم ذكر الحق تعالى من ارتدّ وبقي على كفره ، حتى مات ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٧٩

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ ارتدوا عن الإيمان ، ثُمَّ ازْدادُوا فى الكفر ، وقالوا : نتربص بمحمد ريب المنون ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ أي : لا توبة لهم فتقبل ، لأنه سبق لهم الشقاء ، أو لأنهم لا يتوبون إلا عند الغرغرة ، أو لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ما داموا على كفرهم. وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ المنهمكون فى الضلالة.

قيل : نزلت فى أصحاب الحارث بن سويد المتقدم ، وكانوا أحد عشر رجلا ، لما رجع الحارث قالوا :

نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا ، فمتى أردنا الرجعة رجعنا ، فلما افتتح النبي صلّى اللّه عليه وسلم مكة ، دخل فى الإسلام بعضهم ، فقبلت توبته ، وبقي من بقي على كفره ، فنزلت الآية فيهم. وقيل : نزلت فى اليهود ، كفروا بعيسى بعد إيمانهم بأنبيائهم ، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وقيل : نزلت فى النصارى كفروا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم بعد إيمانهم بعيسى ، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بإصرارهم عليه. وقيل : نزلت فى الفريقين معا ، كفروا بنبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بعد إيمانهم به قبل ظهوره ، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بتمردهم فيه ، وتماديهم على المعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن من دخل طريق التربية ، وأخذ فى تهذيب نفسه وتطهيرها من المساوئ وأوساخ الحس ، ثم غلبته القهرية ورجع عنها ، فإن تاب قريبا ورجع إليها سهل عليه الرجوع ، ورجى نجحه وقبلت توبته ، وإن استمر على رجوعه عنها حتى ألفت نفسه البطالة لن ترجى توبته وصار من الضالين ، فمثله كآنية ، فرّغت منها لبنا أو عسلا ، وعمرتها بالقطران ، فإن بادرت بإهراقه منها قريبا سهل غسلها ، وإن أمهلتها حتى صبغ فيها عسر غسلها ، وتعذر زوال رائحته منها. [فإن مات على رجعته فلا يحشر فى الآخرة مع أهل هذه الرفقة ، ولو شفع فيه ألف عارف ، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه فى الآخرة على غيره ، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو ، فلا يخطر بباله أنه يشفع فيه ]. قاله القشيري.

قال المحشى : وما ذكره ربما ينظر إلى قضية الخليل مع أبيه ، حين يلقاه وعليه القترة ، فيريد الشفاعة له ، فيمسخ ذيخا «١» متلطخا – أي : خنزيرا – فينكره ، كما فى الحديث الصحيح ، فتذكر واعتبر. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر من مات على كفره ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)

---

(١) الذيخ – بكسر الذال بعدها ياء ساكنة – : ذكر الضباع. والجمع : أذياخ وذيوخ وذيخة. وأراد بالتلطخ : التلطخ برجيعه أو بالطين.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٠

قلت : (ذهبا) : تمييز ، و(لو افتدى به) : محمول على المعنى ، كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية

، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، أو عطف على محذوف ، أي : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ، ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا ، لن يُقْبَلَ منهم فدية ، ولو افتدوا بملء الأرض ذهبا ، بل يحصل لهم الإياس من رحمة الله ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فلا ينفعهم فداء منه ولا شفاعة ولا حميم ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصروهم من عذاب رب العالمين.

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «يجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا – أكنت مفتديا به؟

فيقول : نعم ، نعم ، فيقال له : قد سئلت ما هو أيسر من ذلك». يعنى : لا إله إلا الله. ثبتنا الله عليها إلى الممات عالمين بها. آمين.

الإشارة : كل من كفر بطريق أهل الخصوصية ، وحرم نفسه من دخول الحضرة القدوسية ، واستمر على كفرانه إلى الممات ، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم ، لأنه مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر ، فإذا حشر مع عوام المسلمين ، وسكن فى ربض الجنة مع أهل اليمين ، ثم رأى منازل المقربين فى أعلى عليين ، ندم وتحسر «١» ، وقد غلبه القدر ، فلو اشترى المقام معهم بملء الأرض ذهبا ما نفعه ذلك ، فيمكث فى غمّ الحجاب وعذاب القطيعة هنالك ، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان ، ممنوع عن الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ولمّا حكم الحق تعالى بأن الفداء لا ينفع يوم القيامة ذكر أفضل ما يفتدى به العبد فى دار الدنيا لأنه ينفع فيها ذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩٢]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

قلت : البرّ : كمال الطاعة.

يقول الحق جل جلاله : لَنْ تَنالُوا كمال الطاعة والتقرب حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، أو : لن تنالوا برّ الله ، الذي هو الرضى والرضوان ، حَتَّى تُنْفِقُوا بعض ما تُحِبُّونَ من المال وغيره ، كبذل الجاه فى معاونة الناس ، إن صحبه الإخلاص ، وكبذل البدن فى طاعة الله ، وكبذل المهج فى سبيل الله. ولمّا نزلت الآية

---

(١) هذا باعتبار عدم إدراكهم لمنازل المقربين ، وإن كان مجرد دخول الجنة فوز ونجاح قال تعالى : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ .. الآية.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨١

جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله ، إن أحب أموالى إلىّ بيرحاء – وهو بستان كان خلف المسجد النبوي – وهو صدقة لله ، أرجو برها وذخرها ، فقال له – عليه الصلاة والسلام – «بخ بخ ذلك مال رابح – أو رائح – وإنّى أرى أن تجعلها فى الأقربين». فقسمها أبو طلحة فى أقاربه.

وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها ، فقال : هذه فى سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أسامة ولده ، فقال زيد : إنما أردت أن أتصدق بها ، فقال – عليه الصلاة السلام – : «إنّ اللّه تعالى قد قبلها». فدل ذلك على أن الصدقة على الأقارب أفضل. وأعتقت امرأة جارية لا تملك غيرها ، كانت تحبها ، واشترطت عليها أن تقيم معها ، فلما عتقت ، ذهبت ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : «دعيها فقد حجبتك عن النار».

وأمر عمر بن الخطاب بشراء جارية من سبى العراق ، فلما جيء بها ، ورآها عمر أعجبته غاية ، فقال : إن الله تعالى يقول : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، فأعتقها. وذكر ابن عمر هذه الآية ، فلم يجد عنده أحبّ من جارية كانت عنده ، يطؤها فأعتقها ، وقال : لو لا أنى لا أعود فى شيء جعلته لله لنكحتها. وكان الربيع يعطى للسائل إذا وقف فى بابه السكر ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال : إن الربيع يحب السكر.

ثم إن الله – تعالى – يقبل الصدقة من المحبوب أو غيره ، ولذلك قال : وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازيكم بحسبه.

الإشارة : ليس للفقير شيء أحبّ إليه من نفسه التي بين جنبيه ، بل عند جميع الناس ، فمن بذل روحه فى مرضاة الله نال رضوان الله ومعرفته ، وهو غاية البر ، فمن أذل نفسه لله أعزه الله ، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله ، ومن تواضع لله رفعه ، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء ، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد ، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر ، وأنفق غاية ما يحب ، وكل من بذل نفسه بذل غيرها بالأحرى ، إذ ليس أعز منها ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

مالى سوى روحى ، وباذل نفسه «١» فى حبّ من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببته ، حتى لا يبقى لك منك شيء. هـ.

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : لن تنالوا محبة الله حتى تسخوا بأنفسكم لله. هـ. _____

(١) فى الأصل : روحه.

ولما قال عليه الصلاة والسلام لليهود : «أنا على ملة إبراهيم». –كما تقدم – قالوا : كيف تكون على ملة إبراهيم ، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ ، وكان ذلك حراما على إبراهيم ، فأنزل الله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٣ الى ٩٥]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَني إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

قلت : (إسرائيل) : هو يعقوب عليه السّلام.

يقول الحق جل جلاله : كُلُّ الطَّعامِ كانَ حلالا على بنى إسرائيل ، كما كان حلالا على الأنبياء كلهم ، إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ أي : يعقوب ، عَلى نَفْسِهِ ، كلحوم الإبل وألبانها ، قيل : كان به عرق النسا «١» ، فنذر :

إن شفاه الله لم يأكل أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحب الطعام إليه. وقيل : فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء ، فترك ذلك بنوه ولم يحرم عليهم فى التوراة ، وإنما هو شىء حرموه على أنفسهم.

فالطعام كله كان حلالا على بنى إسرائيل وعلى الأنبياء كلهم قبل نزول التوراة ، فلما نزلت التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات لظلمهم وبغيهم ، فإن ادعوا أن لحوم الإبل كانت حراما على إبراهيم ، وأن كل ما حرم عليهم كان حراما على إبراهيم وعلى الأنبياء قبله ، فقل لهم : كذبتم فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها هل تجدون ذلك فيها؟ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى قولكم : إنّ كل شىء حرم عليكم كان حراما على إبراهيم.

روى : أنه – عليه الصلاة والسلام – لما قال لهم ذلك بهتوا ، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة ، فتبين افتراؤهم على الله فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

بزعمه أن الله حرّم لحوم الإبل وألبانها قبل نزول التوراة ، مِنْ بَعْدِ ذلِكَ

البيان وإلزامهم الحجة ، فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

المكابرون بالباطل بعد ما وضح الحق.

قُلْ لهم يا محمد : صَدَقَ اللَّهُ فيما أنزل ، وكذبتم فيما قلتم ، فتبين أن ملة إبراهيم هى الإسلام الذي جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم فأسلموا ، واتبعوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، فإن ملة الإسلام موافقة لملة إبراهيم ، أو عينها ، فادخلوا فيه وتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة ، وألزمتكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه ، وقد خالفتم التوراة التي زعمتم أنكم متمسكون بها ، وأشركتم مع الله عزيرا وغيره ، وقد كان إبراهيم حنيفا مسلما وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

---

(١) النساء : العصب الوركى ، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب ، وهو الذي يأخذه المرض.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٣

قال البيضاوي : فيه إشارة إلى أن اتّباعه – أي : إبراهيم – واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين ، والتجنب عن الإفراط والتفريط ، وتعريض بشرك اليهود. هـ.

الإشارة : إذا تحقق للفقير الإخلاص ، وحصل على التوحيد الخاص ، كان الطعام كله حلالا له ، لأنه يأخذه بالله ، ويتناوله من يد الله ويدفعه لله ، مع موافقة الشريعة ، ولم يغض من أنوار الطريقة بحيث لا يصحبه شره ولا طمع. وكان عبد الله بن عمر يقول : كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف أو مخيلة. هـ.

وإنما امتنعت العباد والزهّاد من تناول الشهوات المباحات خوفا على أنفسهم أن تجمح بهم إلى تناول أسبابهما ، فتعطلهم عن العبادة ، وكذلك المريدون السائرون ، ينبغى لهم التقلل من تناولها لئلا يتعلق قلبهم بشيء منها ، فتعطلهم عن السير ، وأما الواصلون العارفون ، فقد تحقق فناؤهم وبقاؤهم ، فهم يأخذون بالله من يد الله ، كما تقدم.

والحاصل : أن النفس ما دامت لم تسلم ولم تنقد إلى مشاهدة ربها ، وجب جهادها ومخالفتها ، فإذا أسلمت وانقادت إلى ربها ، وجب الصلح معها وموافقتها فيما يتجلى فيها. والله تعالى أعلم.

ولمّا كانت اليهود لا تحجّ بيت الله الحرام ، الذي بناه خليل الله إبراهيم عليه السّلام ، مع زعمهم أنهم على ملته ، ردّ الله تعالى عليهم بقوله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ... إلخ ، وقيل : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل لأنه مهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون : الكعبة أفضل لأنه أول بيت وضع فى الأرض ، أنزل الله تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٩٧)

قلت : (بكة) : لغة فى مكة ، والعرب تعاقب بين الباء والميم ، تقول : ضربة لازم ولازب ، وأغبطت عليه الحمّى وأغمطت ، وقيل : (مكة) بالميم : اسم للبلد كله ، وبكة : اسم لموضع البيت ، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة – أي : تدقها – فما قصدها جبّار قط بسوء إلا قصمه الله. و(مباركا) : حال من الضمير فى المجرور ، والعامل فيه الاستقرار ، أي : الذي استقر ببكة مباركا ، و(مقام إبراهيم) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : منها مقام إبراهيم ، أو بدل من (آيات) ، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، على أن المراد بالآيات : أثر القدم فى الصخرة الصّماء ، وغوصها فيها إلى الكعبين ،

وتخصيصها بهذه المزيّة من بين الصخور ، وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء ، وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة ، فكان مقام إبراهيم ، وإن كان مفردا ، فى قوة الجمع ، ويدل عليه أنه قرئ (آية) : بالتوحيد.

(٣٨٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٤

وقيل : (الآيات) : مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، فعلى هذا يكون : (و من دخله) ، عطفا على (مقام) ، وعلى الأول : استئنافا. و(حج البيت) مبتدأ ، و(لله) : خبر ، والفتح لغة الحجاز ، والكسر لغة نجد ، و(من استطاع) : بدل من (الناس) ، وقيل : فاعل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ فى الأرض لِلنَّاسِ للذى استقر بمكة ، وبعده بيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة. بنت الأول الملائكة حيال البيت المعمور ، وأمر الله من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، ثم بنى الثاني. وقيل : بناهما آدم عليه السّلام ثم جدّد الأول إبراهيم. حال كونه مُبارَكاً لأنه يتضاعف فيه الحسنات ، بكل واحدة مائة ألف ، وتكفر فيه السيئات ، وتنزل فيه الرحمات ، وتتوارد فيه النفحات.

فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ واضحات ، منها : الحجر الذي هو مَقامُ إِبْراهِيمَ ، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر فى الهواء ، حتى أكمل البناء ، وغرقت فيه قدمه كأنه طين ، ومنها : أن الطير لا تعلوه ، ومنها : إهلاك أهل الفيل وردّ الجبابرة عنه ، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السّلام ، وحفر عبد المطلب لها بعد دثورها ، وأن ماءها ينفع لما شرب له ، وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً من العقاب فى الدارين لدعاء الخليل : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ، فكان فى الجاهلية كل من فعل جريمة ، ثم لجأ إليه لا يهاج «١» ولا يعاقب مادام به ، وأما فى الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص. وقال أبو حنيفة :

الحكم باق ، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج ، ، لكن يضيّق عليه ، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج.

قال – عليه الصلاة والسلام – : «من مات فى أحد الحرمين بعثه اللّه من الآمنين». وقال أيضا : «من حجّ هذا البيت – فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه».

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ فرض عين على مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا بالقدرة على الوصول بصحة البدن ، راجلا أو راكبا مع الزاد المبلّغ ، والأمن على النفس والمال والدين. وقيل : الاستطاعة : الزاد والراحلة.

وَمَنْ تركه ، وكَفَرَ به ، كاليهود والنصارى ، وكل من جحده ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عنه ، وعَنِ حجه ، وعن

جميع الْعالَمِينَ ، أو عبر بالكفر عن الترك ، تغليظا كقوله : «من ترك الصّلاة فقد كفر» روى أنه – عليه الصلاة والسلام – لما نزل صدر الآية – جمع أرباب الملل ، فخطبهم ، وقال : «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» ، فآمنت به ملة واحدة ، وكفرت به خمس ملل ، فنزل وَمَنْ كَفَرَ ... إلخ.

---

(١) أي : لا يقاتل.



---



الإشارة : قد وضع الله للناس بيتين : أحدهما حسى ، وهو الكعبة ، والآخر معنوى ، وهو القلب ، الذي هو بيت الرب ، فما دام بيت القلب خاليا من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسى ، فإذا تعمر البيت بنور ساكنه ، صار قبلة لغيره ، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه ، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار ، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار ، ثم يصير قطب دائرة الأكوان ، وتدور عليه من كل جانب ومكان ، فكيف يشتاق هذا إلى الكعبة الحسية «١» ، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ ولله در الحلاج رضي اللّه عنه حيث قال :

يا لائمي لا تلمنى فى هواه فلو عاينت منه الذي عاينت لم تلم
للنّاس حجّ ولى حجّ إلى سكنى تهدى الأضاحى ، وأهدى مهجتى ودمى
يطوف بالبيت قوم لا بجارحة ، بالله طافوا فأغناهم عن الحرم «٢».

فى هذا البيت آيات واضحات ، وهى إشراق شموس المعارف والأنوار ، فى فضاء سماء الأرواح والأسرار ، وسطوع أنوار قمر التوحيد فى أرض التجريد والتفريد ، وظهور أنوار نجوم العلم والحكم ، فى أفق سماء ارتفاع الهمم ، فهذا كان مقام إبراهيم ، إمام الموحدين ، فمن دخله كان آمنا من الطرد والبعاد إلى يوم الدين ، ومن كفر وجوده فإن الله غنى عن العالمين.

قال فى الحاشية فى قوله : (و من دخله كان آمنا) ، قيل : وهكذا من دخل فى قلب وليّ من أوليائه ، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رجع الحق تعالى إلى معاتبة أهل الكتاب ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

قلت : (تبغونها) : جملة حالية من الواو ، أي : لم تصدون عن السبيل باغين لها عوجا. والعوج –

بالكسر – فى الدين والقول والعمل – ، وبالفتح – فى الجدار والحائط وكل شخص قائم.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد فى عتابك لليهود : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه صلّى اللّه عليه وسلم فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ مطلع على سرها وجهرها ، فيجازيكم عليها ، فلا ينفعكم التحريف ولا الإسرار.

---

(١) الصالحون فى كل وقت يشتاقون إلى الكعبة المشرفة ، فهى قبلتهم فى الصلاة. وإليها يكون حج من استطاع منهم. وهى فى بلد ولد فيها سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فكيف لا يشتاقون إليها!!.
(٢) لو أن الله أغنى أحدا عن الحرم لأغنى سيدنا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم. [.....]



---


يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عن طريق الله مَنْ آمَنَ بها ، وتبع من جاء بها ، تَبْغُونَها عِوَجاً أي : طالبين لها اعوجاجا ، بأن تلبسوا على الناس ، وتوهموا أن فيها عوجا عن الحق ، بزعمكم أن التوراة لا تنسخ ، وبتغيير صفة الرسول – عليه الصلاة والسلام ، أو بأن تحرشوا بين المسلمين لتختلف كلمتهم ، ويختل أمر دينهم ، وأنتم شهداء على أنها حق ، وأن الصد عنها ضلال ، أو : وأنتم عدول عند أهل ملتكم ، يثقون بأقوالكم ، ويستشهدونكم فى القضايا ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فلا بد أن يجازيكم على أعمالكم ، فإنه يمهل ولا يهمل.
كرّر الخطاب والاستفهام مرتين مبالغة فى التقريع ونفى العذر ، وإشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح فى نفسه ، مستقل باستجلاب العذاب. ولمّا كان المنكر عليهم فى الآية الأولى : كفرهم ، وهم يجهرون به ، ختم بقوله :
وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ ، ولمّا كان فى هذه الآية : صدهم المؤمنين عن الإسلام ، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه ، قال : وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قاله البيضاوي.
الإشارة : كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها ، وصد القاصدين للدخول فيها ، استحق هذا العتاب بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.
ثم حذّر المؤمنين من الاستماع لهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ

تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، الخطاب عام ، والمراد : نفر من الأوس والخزرج ، إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ، وهو شاس بن قيس اليهودي ، كان شيخا كبيرا ، وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، مرّ بنفر من الأوس والخزرج ، جلوسا يتحدثون ، وكان بينهما عداوة فى الجاهلية ، فغاظه تآلفهم واجتماعهم ، وقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، فما لنا معهم قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس بينهم ويذكّرهم يوم بعاث – وهو يوم حرب كان بينهم فى الجاهلية – وينشدهم بعض ما قيل فيه ، وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ، ففعل ، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا ، وقالوا : السلاح السلاح ، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم ، فتوجه إليهم رسول صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه ، فقال : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد إذ أكرمكم اللّه بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألّف بينكم؟» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السّلاح ، واستغفروا ، وعانق بعضهم بعضا ، وانصرفوا مع الرسول – صلوات الله عليه وسلامه – فنزلت الآية.

*(١/٣٨٦)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٧

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً من اليهود يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ يبيح بعضكم دماء بعض ، كما كنتم فى الجاهلية. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ الدالة على تحريم الدماء والشحناء ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو إنكار وتعجّب من كفرهم ، بعد اجتماع الأسباب الداعية إلى الإيمان ، الصارفة عن الكفران ، وإنما خاطبهم اللّه بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهارا لجلالة قدرهم ، وإشعارا بأنهم الأحقاء بأن يخاطبهم اللّه ويكلمهم ، دون أهل الكتاب لبعدهم عن استحقاق مواجهة الخطاب من الكريم الوهاب. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ويتمسك بدينه فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ لا عوج فيه وأصل الاعتصام : التمنع.

ثم حض على التقوى الكاملة والدوام على الإسلام ، تنفيرا من الاستماع لمن يخرج عنها ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ، قال عليه الصلاة والسلام : «حق تقاته هو أن يطاع فلا يعصى طرفة عين ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر». ولما نزلت قالوا : يا رسول اللّه من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ، فنزلت : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فنسختها. وقال مقاتل : معناه : (اتقوا اللّه حقّ تقاته ، فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). وعن أنس ابن مالك ، قال : (لا يتقى اللّه عبد

حق تقاته حتى يخزن من لسانه) ، وقيل :
ليست بمنسوخة لأنّ من جانب ما نهى اللّه عنه ، وفعل من الطاعة ما استطاع ، فقد اتقى اللّه حق تقاته ، فمعناها واحد. وسيأتى تحديد ذلك فى الإشارة ، إن شاء اللّه.
قال البيضاوي : وقيل : معنى (حق تقاته) : أن ينزه الطاعة عن الالتفات إليها ، وعن توقع المجازاة عليها ، وفى هذا الأمر تأكيد للنهى عن طاعة أهل الكتاب ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : لا تكونوا على حالة سوى الإسلام ، إلى أن يدرككم الموت. هـ. أماتنا اللّه على حسن الختام ، مع السلامة والعافية على الدوام.
الإشارة : كما نهى اللّه عن طاعة من يرد عن الإيمان ، نهى عن طاعة من يصد عن مقام الإحسان ، كائنا ما كان ، وكيف يرجع عن مقام التحقيق ، وقد ظهرت معالم الطريق لمن سبقت له العناية والتوفيق!. قال بعضهم :
واللّه ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع أبدا. إذ لا يمكن أن يرجع من عين اليقين إلى علم اليقين ، أو من اليقين إلى الظن. ومن أراد الثبات على اليقين فليعتصم بحبل اللّه المتين ، وهو صحبة العارفين ، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم باللّه وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.
ثم خاطب أهل الإحسان فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ بأن تغيبوا عما سواه ، ولا تموتن إلا وأنتم منقادون لأحكام الربوبية ، قائمون بوظائف العبودية. فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان ، وفَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ : خطاب لأهل الإسلام والإيمان. أو هذه لأهل التجريد ، والثانية لأهل الأسباب ، أو هذه لأهل الباطن ،

*(٣٨٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٨
والثانية لأهل الظاهر ، فلكل آية أهل ومحل ، فلا نسخ ولا تعارض. وقال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه : من أراد الجمع بين الآيتين فليتق اللّه حق تقاته بباطنه ، وليتق اللّه ما استطاع بظاهره. هـ. وباللّه التوفيق.
ثم حضّ الحق جل جلاله على الاجتماع ، ونهى عن الفرقة التي رام العدو منهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : آية ١٠٣]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ (١٠٣)

قلت : أصل الحبل فى اللغة : السبب الموصّل الى البغية ، سمى به الإيمان أو القرآن لأنه يوصل الى السعادة السرمدية ، و(شفا حفرة) أي : طرفها ، وأصله : (شفو) ، فقلبت ألفا فى المذكر ، وحذفت فى المؤنث ، فقالوا : شفة.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْتَصِمُوا أي : تمسكوا يا معشر المسلمين بِحَبْلِ اللَّهِ أي : الإيمان ، أو كتاب اللّه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «إنّ هذا القرآن هو حبل اللّه المتين ، وهو النور المبين ، والشّفاء النافع ، عصمة لمن تمسّك به ...». الحديث. حال كونكم جَمِيعاً أي : مجتمعين عليه ، وَلا تَفَرَّقُوا تفرقكم الجاهلى ، أو لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإنّ أمّتى ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة ، كلّها فى النّار إلا واحدة ، فقيل : يا رسول اللّه ، ما هذه الواحدة؟ فقبض يده وقال : الجماعة ، ثمّ قرأ : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، التي من جملتها الهداية للإسلام المؤدّى الى التآلف وزوال الغلّ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فى الجاهلية ، يقتل بعضكم بعضا ، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بالإسلام ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً متحابين مجتمعين على الأخوة فى اللّه. قال عليه الصلاة والسلام : «لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد اللّه إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله». الحديث. روى أن الأوس والخزرج كانوا أخوين لأبوين ، فوقع بين أولادهما العداوة ، وتطاولت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة ، حتى أطفأها اللّه بالإسلام ، وألف بينهم برسوله عليه الصلاة والسلام – فنزلت فيهم هذه الآية.

*(٣٨٨/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٨٩

ثم قال لهم : وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ أي : مشرفين على نار جهنم ، إذ لو أدرككم الموت لوقعتم فى النار ، فَأَنْقَذَكُمْ اللّه مِنْها برسوله – عليه الصلاة والسلام – . روى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية ، فقال الأعرابى : واللّه ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس رضي اللّه عنه خذوها من غير فقيه. هـ. كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أي : مثل هذا التبيين يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى الخير ، وتزيدون ثباتا فيه.

الإشارة : المذاهب كلها وقع فيها الاختلاف والتفرق فى الأصول والفروع ، إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية ، إذ بدايتهم مجاهدة ، ونهايتهم مشاهدة ، وإلى ذلك أشار فى المباحث ، حيث قال :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وإن وقع الاختلاف فى بعض الطرق الموصلة إلى المقصود ، فقد اتفقت فى النهاية ، بخلاف أهل الظاهر ، لا تجدهم يتفقون إلا فى مسائل قليلة ، لأن مذهبهم مبنى على غلبة الظن ، ومذهب القوم مبنى على التحقيق ذوقا وكشفا ، وكذلك ائتلفت أيضا قلوبهم وأرواحهم ، إذ كلهم متخلقون بالشفقة والرأفة والمودة والألفة والصفا لأنهم دخلوا الجنة – أعنى جنة المعارف – فتخلقوا بأخلاق أهل الجنة ، قال تعالى : وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ، فيقال لهم بعد الفتح : واذكروا نعمة اللّه عليكم ، إذ كنتم أعداء قبل اتصالكم بالطبيب ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا متحابين ، وكنتم على شفا حفرة من نار القطيعة والحجاب فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها. مثل هذا البيان يوضح اللّه آياته ، أي : تجلياته ، لعلكم تهتدون إلى مشاهدة ذاته فى أنوار صفاته. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمرهم الحق تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجه اتصاله بما قبله : أنهم سكتوا حين حرّش بينهم اليهود حتى هموا بالقتال ، ولم يأمرهم أحد بالإمساك عنه ، فحذّرهم اللّه من نزغته ، وحضّهم على الاجتماع ، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن النكر إذا رأوا شيئا من ذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٠٤]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

قلت : (من) : للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية إذ لا يصلح له كلّ أحد ، أو للبيان ، أي : كونوا أمة تأمرون بالمعروف ، كقوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ إلخ ، و(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) عطف على الخبر ، من عطف الخاص على العام للإيذان بفضله.

*(٣٨٩/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٠

يقول الحق جل جلاله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ يا أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم أُمَّةٌ أي : طائفة يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وهو كل ما فيه صلاح دينى ، أو دنيوى إذا كان يؤول الى الديني ، أو صلاح قلبى أو روحانى ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وهو ما يستحسنه الطبع ويرتضيه الشرع ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وهو كل ما ينكره الطبع السليم والشرع المستقيم ، فمن فعل ذلك فأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ المخصوصون بكمال الفلاح.

روى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه سئل من خير الناس؟ فقال : «آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم للّه ، وأوصلهم للرحم». وقال أيضا : «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان

خليفة اللّه فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه. وقال على رضي اللّه عنه : (أفضل الجهاد : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشنئان الفاسقين – أي بغضهم – فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن شنأ الفاسقين وغضب للّه غضب اللّه له). وقال أبو الدرداء : (لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن اللّه عليكم سلطانا ظالما ، لا يجلّ كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم ، ويستنصرون فلا ينصرون ، ويستغفرون فلا يغفر لهم). وقال حذيفة : (يأتى على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار ، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وللمتصدّى له شروط : العلم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها ، والتمكن من القيام بها. ولذلك خاطب الحق تعالى الجميع ، وطلب فعل بعضهم ، إذ لا يصلح للقيام به إلا البعض ، كما هو شأن فرض الكفاية ، إذ هو واجب على الكل ، بحيث لو تركوه لعوقبوا جميعا ، لكنه يسقط بفعل البعض.

والأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا ، على حسب ما يأمر به ، والنهى عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. وأما المكروه فليس بمنكر ، فيستحب الإرشاد الى تركه. والأظهر أن العاصي يجب أن ينهى عما يرتكبه هو لأنه يجب عليه تركه ، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. وقد قال عليه الصلاة والسلام :

«مروا بالمعروف وإن لم تعملوا بكلّه ، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله».

الإشارة : (و لتكن منكم أمة) أي : طائفة ينهض حالهم ويدلّ على اللّه مقالهم ، يدعون إلى الخير العظيم ، وهو شهود ذات السميع العليم ، ويأمرون بالمعروف بالهمة العلية ، وينهون عن المنكر بالحال القوية ، فكلّ من رآهم بالصفا ائتمر وانتهى ، وكل من صحبهم بالوفاء أخذ حظه من الغنى بالمكيال الأوفى ، إن للّه رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، فهؤلاء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحال دون المقال.

يحكى أن بعض الشيوخ مرّ مع أصحابه بقوم يشربون الخمر تحت شجرة ، فأراد أصحابه أن يغيروا عليهم ، فقال لهم : إن كنتم رجالا فغيروا عليهم بحالكم دون مقالكم ، فتوجهوا إلى اللّه بهممهم ، فإذا القوم قد كسروا الأوانى ، وجاءوا إلى



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩١

الشيخ تائبين. وكذلك قضية معروف الكرخي مع أصحاب السفينة ، الذين كانوا مشتغلين باللهو واللعب

، فقال له أصحابه : ادع عليهم ، فقال : اللهم كما فرّحتهم فى الدنيا ففرّحهم فى الآخرة ، فتابوا على يده جميعا. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي الى سواء الطريق.

ثم أعاد النهى عن الفرقة ، تأكيدا لذمها ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

قلت : (يوم) : متعلق بالاستقرار فى خبر (أولئك) ، أو بالذكر محذوفة ، وقوله : (أكفرتم) : محكى بقول محذوف جواب (أما) ، أي : فيقال لهم : أكفرتم.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَكُونُوا كاليهود والنصارى الذين (تفرقوا) فى التوحيد والتنزيه ، وَاخْتَلَفُوا فى أحوال الآخرة. قال عليه الصلاة والسلام : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النّصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلّها فى النّار إلا واحدة. قيل : ومن تلك الواحدة؟ قال : ما أنا وأصحابى عليه». وهذا الحديث أصح مما تقدم ، والصحابة يروون الحديث بالمعنى ، فلعلّ الأول نسى بعض الحديث. واللّه أعلم.

ثم إن النهى مخصوص بالتفرق فى الأصول دون الفروع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «اختلاف أمّتى رحمة» ، ولقوله : «من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

ثم إن أهل الكتاب تفرقوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ أي : الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ، يستقر لهم هذا العذاب يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ المؤمنين المتقين على التوحيد ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ الكافرين المتفرقين فيه ، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين ، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. وبياض الوجوه وسوادها كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف



---



فيه ، وقيل : يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه ، وأهل الباطل بأضداد ذلك. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فيقال لهم يومئذ : أَكَفَرْتُمْ بمحمد – عليه

الصلاة والسلام – بعد ظهوره ، بَعْدَ إِيمانِكُمْ به قبل ظهوره ، وهم اليهود أو أهل الردة ، آمنوا فى حياته صلّى اللّه عليه وسلم وكفروا بعد موته.

أو جميع الكفار ، آمنوا فى عالم الذر وأقروا على أنفسهم ، ثم كفروا فى عالم الشهادة. ويقال لهم أيضا : فَذُوقُوا الْعَذابَ بسبب ما كنتم (تكفرون).

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ أي : جنته ، هُمْ فِيها خالِدُونَ. وعبّر بالرحمة عن الجنة تنبيها على أن المؤمن ، وإن استغرق عمره فى طاعة اللّه – تعالى – ، لا يدخل الجنة إلا برحمة اللّه وفضله ، وكان حق الترتيب أن يقدم حلية المؤمنين لتقدّم ذكرهم ، لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم.

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ الواردة فى وعده ووعيده ، نَتْلُوها عَلَيْكَ متلبسة بِالْحَقِّ لا شبهة فيها ، فقد أعذر وأنذر ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ إذ لا يحق عليه شىء فيظلم بنقصه ، ولا يمنع من شىء فيظلم بفعله ، كما بيّنه بقوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، فيجازى كلا بما وعده وأوعده ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها فيتصرف على وفق مراده وسابق مشيئته ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

الإشارة : قد نهى اللّه – تعالى – أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق ، فى اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم ، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على اللّه ، والتودد فى اللّه ، وصرف النظرة فى شهود اللّه ، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم ، وأىّ عذاب أعظم من الحجاب؟ يوم تبيض وجوه العارفين ، فتكون كالشمس الضاحية ، يسرحون فى الجنان حيث شاءوا ، وتسود وجوه الجاهلين لما يعتريها من الندم ، وسوادها باعتبار وجوه العارفين فى النقص عنها ، وان كانت مبيضّة بنور الإيمان ، لكن فاتهم نور الإحسان ، فيقال : أكفرتم بالخصوصية فى زمانكم ، بعد إيمانكم بها فيمن سلف قبلكم؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب فى كل حين ، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بنور البقاء ، ففى رحمة اللّه ، أي : جنة المعارف فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ، فقد اتضحت الطريق ، وظهرت أعلام التحقيق ، لكن الهداية بيد اللّه ، كما أنّ الأمور كلها بيده ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وباللّه التوفيق.

ثم مدح الأمة المحمدية بامتثال ما أمرها به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال :



---



[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٠ الى ١١٢]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

قلت : (كان) : على بابها من الدلالة على المضىّ ، أي : كنتم فى اللوح المحفوظ ، أو فى علم اللّه ، أو فيما بين الأمم المتقدمة ، أو : صلة ، أي : أنتم خير أمة ، و(للناس) : يتعلق بأخرجت ، أو بكنتم ، أي : كنتم خير الناس للناس.

يقول الحق جل جلاله لأمة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم : كُنْتُمْ فى سابق علمى خَيْرَ أُمَّةٍ ظهرت لِلنَّاسِ تجيئون بهم إلى الجنة بالسلاسل. ثم بيّن وجه فضلهم فقال : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وبجميع ما يجب الإيمان به.

وقد ورد فى مدح هذه الأمة المحمدية أحاديث ، منها : قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «حرّمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها أنا ، وحرّمت الجنة على الأمم حتّى تدخلها أمتى». ومنها قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أمتى أمة مرحومة ، إذا كان يوم القيامة أعطى اللّه كلّ رجل من هذه الأمة رجلا فيقال : هذا فداؤك من النّار».

وعن أنس قال : «خرجت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فإذا صوت يجيىء من شعب ، فقال : يا أنس : قم فانظر ما هذا الصوت ، فانطلقت فإذا برجل يصلى إلى شجرة ، ويقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، الأمة المرحومة ، المغفور لها ، المستجاب لها ، المتاب عليها ، فأتيت النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : انطلق ، فقل له : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول لك : من أنت؟ فأتيته ، فأعلمته ما قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : أقرأ منى السلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقل له : أخوك الخضر يقول لك : ادع اللّه أن يجعلنى من أمتك المرحومة المغفور لها» «١». وقيل لعيسى بن مريم : هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال : نعم ، أمة أحمد. قيل : وما أمة أحمد؟ قال : علماء ، حكماء ، أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون باليسير من الرزق ، ويرضى اللّه عنهم باليسير من العمل ، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا اللّه. هـ.

وليس أولها أولى بالمدح من آخرها ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أمتى كالمطر ، لا يدرى أوله خير أو آخره»؟ وفى خبر آخر عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «اشتقت إلى إخوانى ، فقال أصحابه : نحن إخوانك يا رسول اللّه ، فقال : أنتم أصحابى ، إخوانى : ناس يأتون بعدي ، يؤمنون بي ولم يرونى ، يودّ أحدهم لو يرانى بجميع ما يملك. يعدل عمل أحدهم سبعين منكم. قالوا :

منهم يا رسول اللّه؟ قال : منكم. قالوا : ولم ذلك يا رسول اللّه؟ قال : لأنكم وجدتم على الخير أعوانا

، وهم لم يجدوا عليه أعوانا». أو كما قال – عليه الصلاة والسلام – .

قلت : التفضيل باعتبار أجور الأعمال ، وأما باعتبار اليقين والمعرفة ، فالصحابة أفضل الخلق بعد الأنبياء – عليهم السلام – ويدل على هذا قوله – عليه الصلاة والسلام – : «يعدل عمل أحدهم» ، ولم يقل إيمان أحدهم «٢».

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر بألفاظ مقاربة فى الإصابة ٢/ ١٢٢ ، وعزاه لابن عساكر وابن شاهين وابن عدى فى الكامل.

(٢) قال الحافظ ابن حجر : الجمهور على أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. ثم قال : وزيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. انظر بقية كلامه فى الفتح ٧/ ٩. وانظر أيضا تفسير القرطبي.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٤

الإشارة : كنتم يا معشر الصوفية خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالجمع على اللّه والغيبة عما سواه ، وتنهون عن كلّ ما يبعد عن اللّه ويفرق العبد عن مولاه ، وتؤمنون باللّه وبما وعد به اللّه ، إيمان الشهود والعيان ، الذي هو مقام الإحسان. قال القشيري فى رسالته : (قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه).

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا ، لسعيت إليه ولو حبوا. هـ. وكان كثيرا ما ينشد :

علم التصوف علم ليس يعرفه إلّا أخو فطنة بالحقّ معروف

وليس يبصره من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وقال الشيخ الصقلى : (كلّ من صدّق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبّر به وتكلم فيه فهو من النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف). وقال فى الإحياء – لمّا تكلم على معرفة اللّه والعلم باللّه ، قال : (و الرتبة العليا فى ذلك للأنبياء ، ثم للأولياء العارفين ، ثم للعلماء الراسخين ، ثم للصالحين). فقد قدّم الأولياء على العلماء. قال ابن رشد : وما قاله القشيري والغزالي متفق عليه. قال : ولا يشكّ عاقل أنّ العارفين باللّه وما يجب له من الكمال ، أفضل من العارفين بأحكام اللّه. انظر تمامه فى المعيار. وقال فى المباحث :

حجّة من يرجّح الصوفية على سواهم حجّة قويّه
هم أتبع النّاس لخير النّاس من سائر الأنام والأناس
ثم قال :
ثمّ بشيئين تقوم الحجّة أنّهم قطعا على المحجّه «١»
وما أتوا فيه بخرق العاده إذ لم تكن لمن سواهم عاده
قد رفضوا الآثام والعيوب وطهّروا الأبدان والقلوب
وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

---

(١) المحجة : الطريق المستقيم.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٥
ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان ، وهوّن أمرهم ، فقال :
وَلَوْ آمَنَ ...
قلت : الاستثناء فى قوله (إلا بحبل) : من أعم الأحوال ، أي : ضربت عليهم الذلة فى جميع الأحوال ، إلا متلبسين بذمة من اللّه وذمة من الناس.
يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ إيمانا كائنا كإيمانكم ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مما هم عليه. وليس أهل الكتاب سواء ، بل مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ المتمردون فى الكفر والفسوق ، فلا يهولكم أمرهم ، فإنهم لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلا ضررا يسيرا كأذى باللسان من عيب وسب وتحريش بينكم ، ولا قدرة لهم على القتال ، وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ ينهزموا ، ويُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ أبدا عليكم.
وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع ، إذ كان كذلك فى بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر ، فلم ترفع لهم راية أبدا ، بل ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والخزي والهوان ، أي : أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ، أو لزمتهم لزوم الدرهم المضروب لضربه ، فلا تنفك عنهم أَيْنَ ما ثُقِفُوا ووجدوا ، فلا يأمنون إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ أي : بسبب عهد من اللّه ، وهو عقد الذمة التي أمر اللّه بها ، إذا أدوا الجزية للمسلمين ، فلهم حرمة بسبب هذا العقد ، فلا يجوز التعرض لهم فى مال ولا دم ولا أهل ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم «١» فلا يأمنون إلا تحت الذمة ، إما من المسلمين وإما من الكفار. وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أي

: انقلبوا به مستحقين له ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ أي : أحاطت بهم ، فاليهود فى الغالب فقراء مساكين ، لأن قلوبهم خاوية من اليقين ، فالفقر والجزع لازم لهم ، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

---

(١) أقام اليهود لهم دولة بمعونة الظلمة ، وحمايتهم لهم ، كما فعل البريطانيون والأمريكان. لكن المسكنة لازمة لليهود ويبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، حتى مع وجودهم محصنين داخل دولتهم.



---



ذلِكَ الذل والمسكنة والبواء بالغضب بسبب أنهم كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ المنزلة على رسوله ، أو الدالة على توحيده ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ بل ظلما وعدوانا ، ذلك الكفر بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود اللّه ، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر ، والإصرار على الكبائر يؤدى الى الكفر لأن المعاصي بريد الكفر ، والعياذ باللّه.

الإشارة : ولو آمن أهل العلم الظاهر بطريق الخصوص ، وحطوا رؤوسهم لأهل الخصوصية لكان خيرا لهم ، لتتسع عليهم دائرة العلوم ، وتفتح لهم مخازن الفهوم ، منهم من يقر بوجود الخصوصية ، ويعجز عن حمل شروطها ، وأكثرهم ينكرونها ويحتجون لأنفسهم بقول من قال : انقطعت التربية فى القرن الثامن ، فيموتون مصرين على الإنكار والعصيان ، فلن يضركم إنكارهم أيها الفقراء ، فإنهم لا قدرة لهم عليكم ، للرعاية التي أحاطت بكم ، إلا أذى بلسانهم ، وعلى تقدير لحوق ضررهم فى الظاهر ، فإن اللّه يغيّب ألم ذلك عنكم فى الباطن ، كما شاهدناه من بعض الفقراء ، وإن يهددوكم بالقتل والجلاء ، فإن اللّه لا ينصرهم فى الغالب.

قلت : وقد هددونا بالضرب والرفع إلى السلطان والجلاء إلى برّ النصارى ، فلم يقدروا على شىء من ذلك ، وقد وقع ذلك لبعض الصوفية زيادة فى شرفهم وعزهم ، فالمنكر على الصوفية «١» لا يزال فى همّ وغمّ وذلّ ومسكنة ، لخراب باطنه من نور اليقين. فإنّ الانتقاد على الأولياء جناية واعتقادهم عناية ، فإن استمر على أذاهم كان عاقبته سوء الخاتمة ، فيبوء بغضب من اللّه بسبب اعتدائه على أولياء اللّه ، «ومن آذى لى وليا فقد أذن بالحرب» ، رزقنا اللّه الأدب معهم ، وأماتنا على محبتهم ، آمين.

ولمّا كان من اليهود من أسلم وحسن إسلامه استثناه اللّه تعالى ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٣ الى ١١٥]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

قلت : (قائمة) أي : مستقيمة ، من أقمت العود فقام ، أو قائمة بأمر اللّه. و(آناء الليل) : ظرف ، واحده : (إنّي) ، بكسر الهمزة وسكون النون ، كنحى وأنحاء ، أو (إنى) ، كمعى وأمعاء ، و(لن تكفروه) أي : لن تحرموه ، وعدى (كفر) إلى مفعولين لتضمنه معنى حرم أو منع.

---

(١) أي : الصوفية الملتزمة ، لا صوفية المزمار.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٧

يقول الحق جل جلاله : ليس أهل الكتاب سَواءً فى الكفر والعدوان ، بل منهم أُمَّةٌ أي : طائفة قائِمَةٌ بالعدل مستقيمة فى الدين ، أو قائمة بأمر اللّه ، أو قائمة فى الصلاة يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ فى تهجدهم آناءَ اللَّيْلِ أي : فى ساعاته ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ فى صلاتهم ، أو فى صلاة العشاء ، لأن أهل الكتاب لا يصلونها ، لما روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم أخّرها ، ثم خرج ، فإذا الناس ينتظرونها ، فقال : «أبشروا فإنّه ليس من أهل الأرض أحد يصلّى فى هذه السّاعة غيركم».

ثم وصفهم بالإيمان فقال : يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ، وهو عبد اللّه بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود ، فقد وصفهم اللّه تعالى بخصائص لم توجد فى اليهود ، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين ، مشركون باللّه ملحدون فى صفاته ، يصفون اليوم الآخر بغير صفاته ، مداهنون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، متباطئون عن الخيرات ، بخلاف ما وصف به من أسلم منهم ، وَأُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات مِنَ الصَّالِحِينَ أي : ممن صلحت أحوالهم عند اللّه ، واستوجبوا رضاءه وثناءه ، وهذه عادة اللّه مع خلقه ، من تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا. ولذلك قال : وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أي : فلن تحرموا ثوابه. ولن تجحدوا جزاءه ، بل يشكره لكم ويجزيكم عليه ، سمى الحرمان كفرانا كما سمى العطاء شكرا. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ فلا يخفى عليه مقاماتهم فى التقوى. وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير وأحسن الأعمال ، وأن الفائزين عند اللّه هم أهل التقوى. رزقنا اللّه منها الحظ الأوفر بمنّه. آمين.

الإشارة : ليس أهل العلم سواء ، بل منهم من جعله شبكة يصطاد به الدنيا ، يبيع دينه بعرض قليل ، وهم علماء السوء وقضاة الجور ، ومنهم من قرأه للّه وعلّمه للّه ، فأفنى عمره فى تعليمه وتقييده ، ومنهم من صرف همته إلى جمعه وتأليفه ، ومنهم من صرف همته إلى العمل به فالتحق بالعباد والزّهاد ،

يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ومنهم من حرره وحققه ، ثم توجه إلى علم الباطن وصحب العارفين ، فكان من المقربين ، فهؤلاء كلهم يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فيقال لهم : وما تفعلوا من خير فلن تكفروه واللّه عليم بالمتقين.

ثم ذكر الحق تعالى أضدادهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦)



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٨

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وجحدوا ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ أي : ملازموها ، كملازمة الرجل لصاحبه ، هُمْ فِيها خالِدُونَ.

الإشارة : إن الذين كفروا بالخصوصية عند أهل زمانهم ، وفاتهم اقتباس أنوارهم ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا علومهم مما فاتهم من معرفة اللّه شيئا ، ماذا وجد من فقد اللّه؟ وماذا فقد من وجد اللّه؟! قال الشاعر :

لكلّ شيء إذا فارقته عوض وليس للّه إن فارقت من عوض

ولا طريق لمعرفة الحق المعرفة الخاصة – أعنى معرفة العيان – إلا صحبة أهل الشهود والعيان ، فكلّ من أنكرهم كان غايته الحرمان ، ولزمته البطالة والخذلان ، وجرّب ، ففى التجريب علم الحقائق ، ومن حرم صحبتهم لا ينفك عن نار القطيعة وعذاب الحجاب ، وعنت الحرص والتعب ، عائذا باللّه من ذلك.

ثم ضرب مثلا لأعمال الكفار ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٧]

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

قلت : فى الكلام حذف ، أي : مثل تلف ما ينفقون كمثل إتلاف ريح ... إلخ ، و(الصر) : البرد الشديد ، أو ريح فيها صوت وبرد ، أو السموم الحارة.

يقول الحق جل جلاله : مثل ما ينفق الكفار ، قربة أو مفاخرة وسمعة ، أو ما ينفق سفلة اليهود على

أحبارهم ، أو المنافقون رياء وخوفا ، مَثَلِ رِيحٍ
فيها برد شديدصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
أي : زرعهم ، فأتلفته وأهلكته ، والمراد : تشبيه نفقتهم وأعمالهم فى تلفه وضياعه وعدم الانتفاع به ، بحرث كفار ، ضربته ريح فيها برد فاجتاحته ، فأصبح صعيدا زلقا ، ولم تبق فيه منفعة فى الدنيا والآخرة ، ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
بأن ضيع أعمالهم من غير سبب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب الكفر الذي أحبط أعمالهم.
الإشارة : كل من لم يحقق مقام الإخلاص ، ولم يصحب أهل التخليص والاختصاص ، لا تنفك أعماله من علل ، ولا أحواله من دخل ، فأعماله فارغة خفيفة ، أقل ريح تقلعها وتسقطها عن درجة الاعتبار ، وما زالت العامة تقول : الصحيح يصح ، والخاوي يدريه الريح. وباللّه التوفيق.

(٣٩٨/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٣٩٩
ثم حذّر الحق تعالى من مخالطة أهل التخليط ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٨ الى ١٢٠]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)
قلت : بطانة الرجل : خواصه الذين يطلعهم على باطنه وسره ، وسميت بطانة تشبيها لها بالثوب الذي يلى بطنه كالشعار. قال عليه الصلاة والسلام : «الأنصار شعار والنّاس دثار». وهى اسم تطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. والألو : التقصير ، وأصله : أن يتعدى بالحرف ، تقول : لا آلو فى نصحك أي : لا أقصر فيه. ثم عدى إلى مفعولين ، كقولهم : لا آلوك نصحا ، على تضمن معنى المنع أو النقص. والخبال : الفساد.
و(ما عنتم) : مصدرية ، والعنت : التعب والمشقة ، والأنامل : جمع أنملة – بضم الميم وفتحها – ، والضير والضر واحد. ومضارع الأول : يضير ، والثاني : يضر ، وهو هنا مجزوم ، وأصله : يضرركم ، نقلت حركة الراء إلى الضاد ، وضمت الراء ، اتباعا لحركة الضاد طلبا للمشاكلة.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً أي : أصدقاء وأصفياء ، تطلعونهم على

سركم ، وهم مِنْ دُونِكُمْ ليسوا على دينكم ، فإنهم لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا أي : لا يقصرون جهدهم فى إدخال الفساد بينكم بالتخليط والنميمة وإطلاع الكفار على عورتكم. نزلت فى رجال من المسلمين ، كانوا يصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة ، أو فى المنافقين كان يصلهم بعض المسلمين.

ثم وصفهم بأوصاف توجب التنفير منهم فقال : وَدُّوا ما عَنِتُّمْ أي : تمنوا عنتكم وهلاككم وضلالكم ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ أي : ظهرت أمارة العداوة من أفواههم بالوقيعة فى المسلمين ، أو بإطلاع المشركين على عوراتهم ، أو فى كلامهم مع المسلمين بالغيظ ، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم ، وَما تُخْفِي

(٣٩٩/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٠

صُدُورُهُمْ

من العداوة والبغضاء ، أَكْبَرُ مما أظهروه ، لأن ظهوره منهم ليس عن روية واختيار ، بل عن غلبة غيظ واضطرار. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ أيها المؤمنون الْآياتِ الدالة على مجانبة الكافرين وموالاة المؤمنين ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ما يبين لكم.

ها أَنْتُمْ يا هؤلاء المخاطبين تُحِبُّونَهُمْ لما بينكم من المصاهرة والصداقة ، وَلا يُحِبُّونَكُمْ لما بينكم من مخالفة الدين ، أو تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر ، وأنتم تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ أي : بجنس الكتب ، (كله) أي : بالكتب كلها ، وهم لا يؤمنون بكتابكم ، فكيف تحبونهم وهم يكذبون كتابكم ورسولكم؟ وهم أيضا ينافقونكم إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا مع أنفسهم عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ لما يرون من ائتلاف المؤمنين ، ولم يجدوا سبيلا إلى التشفي فيكم ، وهذه كناية عن شدة حقدهم ، وإن لم يكن ثمّ عض فى الخارج.

قال لهم الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فإنما ضرر غيظكم عليكم ، أو دوموا على غيظكم حتى تموتوا عليه ، فإن مادة الإسلام لا تزال تنمو حتى تهلكوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي :

بحقيقة ما فى قلوبكم من البغضاء والحنق «١» ، أو بما فى القلوب من خير أو شر. هو من مقول الرسول لهم ، أو من كلام اللّه تعالى ، استئناف ، أي : لا تعجب من اطلاعى إياك على أسرارهم ، فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم.

ومن فرط عداوتهم أنهم إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ كنصر وغنيمة تَسُؤْهُمْ أي : تحزنهم ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

كهزيمة أو قتل أو إصابة عدو منكم أو اختلاف بينكم ، يَفْرَحُوا بِها ، وَإِنْ تَصْبِرُوا على عداوتهم وأذاهم ، وتخافوا ربكم ، وَتَتَّقُوا ما نهاكم عنه ، لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، بفضل اللّه وحفظه ، الموعود للصابرين والمتقين ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا. ومن كان الحق معه لا يضره شيء ، إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا يخفى عليه ما يعمل أهل الكفر من العداوة والحقد ، فيجازيهم عليه.

الإشارة : لا ينبغى لأهل الخصوصية أن يتخذوا بطانة من دونهم من العامة حتى يطلعوهم على سرهم ، فإن الإطلاع على السر ، ولو كان غير الخصوصية ، كله ضعف فى العقل ووهن فى الرأى ، وفى ذلك يقول القائل :

(من أطلع الناس على سره استحقّ الكىّ على جبهته)

وأما سر الربوبية فإفشاؤه لغير أهله حرام ، والعامة مضادون لأهل الخصوصية ، لا يألونهم خبالا فى قلوبهم وتشتيتا لفكرتهم ، إذا صحبوهم يودون أن لو كانوا مثلهم فى العنت وتعب الأسباب ، فإذا ظهر بالفقراء نقص أو خلل

---

(١) الحذق : شدة الاغتياظ.



---



ظهرت البغضاء من أفواههم ، وما تحفى صدورهم أكبر ، فإن كنتم أيها الفقراء تحبون لهم الخير فإنهم بعكس ذلك ، وإن كنتم تقرون شريعتهم فإنهم لا يؤمنون بحقيقتكم ، بل ينكرونها عليكم ، ومنهم من يتصف بالنفاق ، إذا لقى أهل الخصوصية أظهر التصديق والمحبة ، وإذا خلا مع العامة أظهر العداوة والحنق ، وإن تمسسكم أيها الفقراء حسنة ، كعز وفتح وشهود ومعرفة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة كمحنة أو بلية ، يفرحوا بها ، وإن تصبروا على أذاهم وجفوتهم ، وتتقوا شهود السوي فيهم ، لا يضركم كيدهم شيئا (إن اللّه بما يعملون محيط).

ولما فرغ الحق تعالى من معاتبة أهل الكتابين ، شرع فى معاتبة بعض المسلمين لما وقع لهم فى غزوة أحد من الفشل ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢١ الى ١٢٢]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد حين غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ من منزل عائشة ، الذي نزلت فيه بأحد

، حين خرجت بها ، حال كونك تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ أي : تهيئ لهم ، مَقاعِدَ لِلْقِتالِ أي : مواقف وأماكن يقفون فيها للحرب وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأقوالكم ، عَلِيمٌ بإخلاصكم.

قال الواقدي : خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم من منزل عائشة – رضي اللّه عنها – ماشيا على رجليه إلى أحد ، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح «١». إن رأى صدرا خارجا ، قال : تأخر. وذلك أن المشركين نزلوا بأحد ، يوم الأربعاء ، فلما سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه ، ودعا عبد اللّه بن أبى بن سلول – ولم يدعه قط قبلها – فاستشاره ، فقال عبد اللّه بن أبى وأكثر الأنصار : يا رسول اللّه أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فو اللّه ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا! فدعهم يا رسول اللّه ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خاسئين. فأعجب النبي صلّى اللّه عليه وسلم هذا الرأى ، وقال بعض أصحابه : يا رسول اللّه اخرج بنا إلى هذه الأكلب «٢» لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا. فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّى رأيت فى منامى بقرا تذبح ، فأولتها ناسا من أصحابى يقتلون ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما «٣» ، فأولتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخل يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فافعلوا». فقال رجال ممن فاتهم بدر ، وأكرمهم اللّه بالشهادة يوم أحد : اخرج بنا

---

(١) القدح – بالكسر : السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٢) فى نسخة : (الكلاب) ، وكلاهما صحيح فالكلب يجمع على كلاب وأكلب.

(٣) الثلم : الكسر.



---



إلى أعدائنا ، وبالغوا ، حتى دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ولبس لأمته «١». فلما رأوه قد لبس سلاحه ندموا ، وقالوا : بئس ما صنعنا ، نشير على النبي صلّى اللّه عليه وسلم والوحى يأتيه ، فقاموا واعتذروا إليه. وقالوا : اصنع ما رأيت ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل».

فخرج بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بشعب من أحد ، يوم السبت للنصف من شوال ، سنة ثلاث من الهجرة ، ونزل فى عدوة من الوادي ، وجعله ظهره وعسكره إلى أحد ، وسوى صفهم كما تقدم ، وأمّر عبد اللّه بن جبير على الرماة ، وقال : انضحوا عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، فكان من أمر اللّه ما

كان ، على ما يأتى «٢».

وخرج مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى غزوة أحد زهاء ألف ، ووعدهم النصر إن صبروا ، فلما بلغوا الشواط – موضع – انخزل ابن أبيّ فى ثلاثمائة ، وقال : علام نقتل أنفسنا! فتبعهم أبو جابر السلمى ، فقال : أنشدكم اللّه فى نبيكم وأنفسكم. فقال ابن أبيّ : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، وهمت بنو حارثة وبنو سلمة بالانصراف معه ، فثبتوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فذكرهم نعمته بقوله : إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وناصرهما ، حيث عصمهما من اتباع المنافقين ، قال جابر : (ما يسرنا أنها لم تنزل ، لقوله : وَاللَّهُ وَلِيُّهُما) فبنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ لا على غيره ، إذ لا ناصر غيره.

الإشارة : من شأن شيوخ التربية أن يدلّوا المريدين على محاربة النفوس ومقاتلتها ، ويطلعوهم على دسائسها ومخادعتها ، ليهيئوا لهم بذلك مقاعد لقتالها ، واللّه مطلع على إخلاصهم ونياتهم ، فمنهم من يمل ويكل ، فيرجع إلى وطن عوائده ، ومنهم من يصبر حتى يفوز بالغنيمة العظمى والسعادة القصوى ، وفى ذلك يقول القائل :

وبالغوا فى الجدّ حتى ملّ أكثرهم وعانق المجد من وافى ومن صبرا

قال بعضهم : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. ومنهم من يلحقه الملل والفشل فيهم بالانصراف والرجوع ، ثم يثبته اللّه تعالى وينصره ، فيلحق بالصابرين السابقين ، وعمدة المريد فى مجاهدة نفسه : التوكل على اللّه والاعتماد عليه دون شىء سواه «من علامة النجح فى النهايات : الرجوع إلى اللّه فى البدايات». وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

ثم ذكّر أهل أحد بما وقع لهم يوم بدر من النصر والظفر مع قلتهم ليثبتوا ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٢٣]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

---

(١) اللأمة – مهموزة – : الدرع.

(٢) عند تفسير قوله تعالى : «وما محمد إلا رسول».



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٣

قلت : (بدر) : بئر بين مكة والمدينة ، كانت لرجل اسمه بدر ، فسميت باسم صاحبها ، وقعت فيها الغزوة التي نصر اللّه فيها رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فسميت الغزوة باسم المكان ، وجملة : (و

أنتم أذلة) : حال من الكاف ، و(أذلة) : جمع ذليل ، كأعزة ، جمع عزيز.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فى وقعة بدر وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ليس معكم مراكب ولا كثرة سلاح ، مع قوة عدوكم بالعدة والعدد ، فَاتَّقُوا اللَّهَ واثبتوا مع رسوله ، وانتظروا النصر من اللّه كما عودكم ، لَعَلَّكُمْ تكونون شاكرين ، لما أنعم به عليكم من العز والنصر ، فيزيدكم منه كما وعدكم.
الإشارة : جعل اللّه سبحانه وتعالى الأشياء كامنة فى أضدادها ، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة ، ومن أراد الغنى فليتحقق بالفقر ، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعة وإسقاط المنزلة ، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف ، وهكذا : [تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ]. فاتقوا اللّه يا معشر المريدين ، واطلبوا الأشياء فى أضدادها لتظفروا بها ، واشكروا اللّه على ما أولاكم يزدكم من فضله ونواله.
ثم ذكر كيفية نصره لهم ببدر فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٥]
إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)
قلت : (إذ) : ظرف لنصركم ، إذا قلنا : إن الإمداد يوم بدر فقط ، أو بدل من (إذ غدوت) ، إذا قلنا : كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر ، فلما لم يصبروا لم يقع. والتسويم : التعليم.
يقول الحق جل جلاله : ولقد نصركم اللّه ببدر حين كنت تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ حين رأوا كثرة عدوهم وقلة عدتهم وعددهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ فى القوة والكثرة ، أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ فى السحاب؟ بَلى يكفيكم كما وعدكم ، إِنْ تَصْبِرُوا وتثبتوا وَتَتَّقُوا اللّه وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ أي : من سرعتهم هذا الوقت ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ بلا تراخ ولا تأخير ، مُسَوِّمِينَ أي : معلّمين بعمائم بيض إلا جبريل ، فإنه كانت عمامته صفراء. أو معلمين أنفسهم أو خيلهم. قيل : كانت مجزوزة الأذناب ، وقيل : كانت بلقا.



---


فإن قلت : ما ذكر فى الأنفال إلا ألفا ، وهنا خمسة آلاف. فالجواب : أن اللّه تعالى أمدهم أولا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف. قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال معنا ، ولا يقاتلون. هـ.
الإشارة : كل من توجّه لجهاد نفسه فى اللّه ، واشتغل بذكر مولاه ، أمده اللّه فى الباطن بالأنوار

والأسرار ، وفى الظاهر بالملائكة الأبرار ، وقد شوهد ذلك فى الفقراء أصحابنا ، إذا كانوا ثلاثة رآهم العامة ثلاثين ، وإذا كانوا ثلاثين رأوهم ثلاثمائة ، وقد كنا فى سفرة سبعين ، فرأونا سبعمائة على ما أخبرونا به ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة إمداده لهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢٦ الى ١٢٩]

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

قلت : (ليس لك من الأمر شى ء) : جملة معترضة بين قوله : (أو يكبتهم) وقوله : (أو يتوب عليهم) ، أو تكون (أو) بمعنى (إلا) ، أي : ليس لك من الأمر شيء ، إلا أن يتوب عليهم فتبشرهم ، أو يعذبهم فتشفى فيهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وما جعل اللّه ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ فتثبتوا للقتال ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فهو قادر على أن ينصركم بلا واسطة ، لكن أراد أن يثيبكم وينسب المزية إليكم ، حيث قتلهم على أيديكم ، فإن اللّه عزيز لا يغلب ، حكيم فيما دبر وأبرم ، وإنما نصركم يوم بدر لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بقتل بعض وأسر آخرين ، فإنه قتل يومئذ سبعون ، وأسر سبعون ، أَوْ يَكْبِتَهُمْ أي : يحزنهم ويغيظهم ، والكبت : شدة الغيظ ، فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ مما أملوا.

ولما جرح – عليه الصلاة والسلام – فى وجهه ، وشجّ على قرن حاجبه ، وكسرت رباعيته ، همّ بالدعاء على الكفار ، بل دعا عليهم ، فأنزل اللّه : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إنما أنت رسول إليهم ، مأمور بإنذارهم وجهادهم ، وأمرهم بيد مالكهم ، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم. وإنما نهاه عن الدعاء عليهم لعلمه بأن منهم من يسلم ويجاهد فى سبيل اللّه ، وقد كان كذلك فجلّهم أسلموا وجاهدوا ، منهم خالد بن الوليد – سيف اللّه فى أرضه.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٥

ثم عطف على قوله : لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ قوله : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إن أسلموا أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إن لم يسلموا ، فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ قد استحقوا العذاب بظلمهم ، والأمور كلها بيد اللّه ، وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ غفرانه ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه ،

ولا يجب عليه شيء ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لعباده ، فلا تبادر بالدعاء عليهم.

الإشارة : وما جعل اللّه التأييد الذي ينزله على أهل التجريد ، حين يقابلهم بالابتلاء والتشديد ، إذا أراد أن يوصلهم لصفاء التوحيد ، إلا بشارة لفتحهم ، ولتطمئن بمعرفته قلوبهم ، فإن الامتكان على قدر الامتحان ، وكل محنة تزيد مكنة ، وهذه سنة اللّه فى أوليائه يسلط عليهم الخلق فى بدايتهم ، ويشدد عليهم البلاء ، حتى إذا طهروا من البقايا ، وكملت فيهم المزايا ، كف عنهم الأذى ، وانقلب الجلال جمالا ، وذلك اعتناء بهم ، ونصرا لهم على أنفسهم ، فإن النصر كله مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وذلك ليقطع عنهم طرفا من الشواغل والعلائق ، التي تقبضهم عن العروج إلى سماء الحقائق ، فإن الروح إذا رقدت فى ظل العز والجاه صعب خروجها من هذا العالم ، فإذا ضيق عليها ، وعكس مرادها ، رحلت إلى عالم الملكوت ، والأمر كله بيد اللّه. ليس لك أيها الفقير من الأمر شيء ، إنما أنت مأمور بتحريك الأسباب «١» واللّه يفتح الباب. وليس لك أيها الشيخ من الأمر شيء ، إنما أنت مذكر ، وعلى اللّه البلاغ ، فلا تأس على ما فاتك ، ولا تفرح بما آتاك ، فملكوت السموات والأرض بيد اللّه ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قال القشيري : جرّده – أي : نبيه صلّى اللّه عليه وسلم لما به عرفه عن كلّ غير وسبب ، حيث أخبره أنه ليس له من الأمر شيء ، ثم قال : ويقال : أقامه فى وقت مقاما رمى بقبضة من التراب ، فأصابت جميع الوجوه ، وقال : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وقال فى وقت آخر : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. هـ.

يشير إلى أنهما مقامان : نيابة عن اللّه باللّه ، ونيابة اللّه عن عبده ، والأول بقاء ، والثاني فناء ، قاله المحشى.

قلت : الأول فى مقام البسط ، والثاني فى مقام القبض ، فقد قالوا : إذا بسط فلا فاقة ، وإذا قبض فلا طاقة. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان النصر فى الجهاد لا يكون إلا بأكل الحلال وطاعة الكبير المتعال ، قدّم ذكر ذلك قبل الأمر بالقتال فى قضية أحد ، فقال :

---

(١) فى «أ» السبب.





[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

قلت : الكظم هو : الكف والحبس ، تقول : كظمت القربة : إذا ملأتها وسددت رأسها.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا وتزيدوا فيها إذا حلّ الأجل أَضْعافاً مُضاعَفَةً ، ولعل التخصيص بحسب الواقع ، إذ كان الرجل يحلّ أجل دينه ، فيقول للمدين : إما أن تقضى وإما أن تزيد ، فلا يزال يؤخره ويزيد فى دينه حتى يستغرق مال المدين ، فنهوا عن ذلك. ورغبهم فى التقوى التي هى غنى الدارين. فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما نهيتكم عنه ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فى الدارين. ثم خوفهم بالنار إن لم ينتهوا ، فقال : وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ، وفيه إشعار بأن النار موجودة إذ لا يعدّ المعدوم ، وأنها بالذات معدة للكافرين ، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي : فى الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين ، ولم تخلق لهم ، ولكن خوفهم بها زجرا وعظة ، كالأب البار المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف ، وهو لا يضربه بالسيف ، ولا يلقيه إلى الأسد ، فهذه الآية تلطف وشفقة على عباده. هـ.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمر ونهى ، وَالرَّسُولَ فيما شرع وسنّ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. والتعبير بلعل وعسى فى أمثال هذه : دليل على عون التوصل إلى ما جعل طريقا له.

وَسارِعُوا أي : بادروا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ كالإسلام والتوبة والإخلاص ، وسائر الطاعات التي توجب المغفرة ، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف. وسارعوا أيضا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ لو وصل بعضها ببعض ، وذكر العرض للمبالغة فى وصفها بالسعة لأنه دون الطول. قال بعضهم : لم يرد العرض الذي هو ضد الطول ، وإنما أراد عظمها ، ومعناه : كعرض السموات السبع والأرضين السبع فى ظنكم ، أي : لا تدرك ببيان. أُعِدَّتْ أي : هيّئت لِلْمُتَّقِينَ. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة ، وأنها خارجة عن هذا العالم.

*(٤٠٦/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٧

ثم وصف أهلها من المتقين بأوصاف الكمال ، فقال : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ أي : فى حالتى الرخاء والشدة ، وفى الأحوال كلها ، كما هى حالة الأسخياء ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «الجنّة دار الأسخياء». وقال أيضا :

«السّخى قريب من اللّه ، قريب من الجنّة ، قريب من النّاس ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الجنّة ، بعيد منّ النّاس ، قريب من النّار. ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من العالم البخيل».

وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلم : «السّخاء شجرة فى الجنة ، أغصانها فى الدّنيا ، من تعلق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنّة ، والبخل شجرة فى النّار ، أغصانها فى الدّنيا ، من تعلق ببعض من أغصانها قادته إلى النّار».

وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ أي : الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، قال عليه الصلاة والسلام : «من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه ملأ اللّه قلبه أمنا وإيمانا».

وقال بعض الشعراء :

وإذا غضبت فكن وقورا كاظما للغيظ ، تبصر ما تقول وتسمع

فكفى به شرفا ، تصبّر ساعة يرضى بها عنك الإله ويرفع «١»

وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ أي : عمن ظلمهم ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال عند ذلك : «إنّ هؤلاء فى أمتى قليل ، إلا من عصم اللّه ، وقد كانوا كثيرا فى الأمم التي مضت». وعن أبى هريرة : أن أبا بكر كان مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى مجلس ، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر ، وهو ساكت ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلم يبتسم ، ثم ردّ عليه أبو بكر بعض الرد ، فغضب عليه الصلاة والسلام – وقام ، فلحقه أبو بكر ، وقال : يا رسول اللّه ، شتمنى وأنت تبتسم ، ثم رددت عليه بعض ما قال ، فغضبت وقمت. قال : «حين كنت ساكتا كان معك ملك يردّ عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث حق : تعلم أنه ليس عبد يظلم مظلمة فيعفو عنها إلا أعز اللّه بها نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده اللّه قلة ، وليس عبد يفتح عطية أو صلة إلا زاده اللّه بها كثرة».

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الذي أحسنوا فيما بينهم وبين اللّه ، وفيما بينهم وبين عباد اللّه ، و«أل» : يحتمل أن تكون للجنس ، فيعم كل محسن ، أو للعهد ، فتكون الإشارة إلى من تقدم ذكرهم.

الإشارة : كل ما يقوى مادة الحس فهو ربا لأنه يربى الحس ويقوى مادة الغفلة ، فلا ينبغى لمريد أن يضاعفه ويتعاطى أسباب تكثيره ، بل ينبغى أن يفر من موارده ، وهى ثلاثة : مباشرة الحس ، أو الفكر فيه ، أو الكلام مع أهله

---

(١) البيتان لأبى القاسم بن حبيب ، كما فى تفسير البحر المحيط : ٣/ ٦٣.

فيه. والذي يقوى مادة المعنى ثلاثة : صحبة أهل المعنى ، والفكرة فى المعاني ، وذكر اللّه بالقلب. واتقوا اللّه فى مباشرة الحس (لعلكم تفلحون) بالوصول إلى صفاء المعاني ، واتقوا نار القطيعة التي أعدت لمنكر الخصوصية ، (و أطيعوا اللّه والرسول) فيما ندبكم إليه ، (لعلكم ترحمون) بإحياء قلوبكم وأرواحكم بأسرار المعاني ، وسارعوا إلى ما يوجب تغطية مساوئكم ، حتى يغطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته ، فيوصلكم بما منه إليكم ، لا بما منكم إليه ، فتدخلوا جنة المعارف ، التي لا نهاية لفضاء شهودها ، التي أعدت للمتقين السّوى ، الذين يبذلون مهجهم وأموالهم فى حال الجلال والجمال ، (و الكاظمين الغيظ) حيث ملكوا أنفسهم وأحوالهم ، (و العافين عن الناس) لأن الصوفي ماله مباح ودمه هدر. وكان بعض الصوفية يقول : إذا أردت أن تعرف حال الفقير فأغضبه ، وانظر إلى ما يخرج منه. وقال شيخ شيوخنا رضي اللّه عنه : قطب التصوف : لا تغضب ولا تغضب. هـ.

ولعروة بن الزبير – رضي اللّه عنه :

لن يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوام

ويشتموا فترى الألوان مشرقة ، لا عفو ذلّ ، ولكن عفو أحلام

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الذين حازوا مقام الإحسان ، فعبدوا اللّه بالشهود والعيان ، فعم إحسانهم ذا الإساءة والإحسان والإنس والجان. قال الحسن البصري : (الإحسان : أن يعم إحسانه ، ولا يكون كالشمس والريح والمطر).

أي : يخص بلدا دون بلد. وقال سفيان الثوري : (ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق ، خذ منى وهات). وقال السرى السقطي :

(الإحسان : أن تحسن وقت الإمكان ، فليس فى كل وقت يمكنك الإحسان) ، وأنشدوا :

ليس فى كلّ ساعة وأوان تتهيّأ صنائع الإحسان

فإذا أمكنت فبادر إليها حذرا من تعذّر الإمكان «١»

وقال الورتجبي : قوله : وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ... إلخ ، علم الحق – سبحانه – علل الخلق وميلهم إلى منى النفوس ، فدعاهم بطاعته إلى العلتين : المغفرة والجنة ، ودعا الخاصة إلى نفسه ، فقال : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، ثم أعلم أن الكل فى درك امتحان الجرم ، وأثبت بالآية ذنب الكل ، لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل ،

---

(١) الأبيات لأبى العباس الجمانى ، كما ذكر القرطبي فى تفسيره. [.....]

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٠٩

فذنبهم قلة معرفتهم لأقدار الحق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : «لو أن اللّه عذب الملائكة لحق منه ، فقيل : إنهم معصومون ، فقال عليه الصلاة والسلام : من قلة معرفتهم بربهم» «١». ولذلك دعاهم إلى المغفرة. هـ. قال فى الحاشية : وقوله : (أثبت بالآية ذنب الكل) ، يعنى : شمول قوله : (يغفر لمن يشاء) من فى السموات الصادق بالملائكة ، وإنما تكون المغفرة بعد ذنب ، ولكنه فى كل أحد على حسبه ، وأما قوله : دعاهم إلى المغفرة ، فكأنه من قوله : سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وأن الخطاب يعم من فى السموات أيضا ، وقد يتصور فى حق الملائكة الاستناد لظواهر الأمور والاختلاف بينهم والاختصام ، مما هو معرض للخطأ ، وذلك من دواعى المغفرة ، وكذلك القصور عن معرفة كنه جلال اللّه : نقص لا يخلو منه مخلوق ، لاستحالة الإحاطة به علما ، ولذلك كان الترقي فى المعرفة لا حد له أبدا سرمدا. هـ.

ثم ذكر حال أهل اليمين ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أي : فعلة بالغة فى الفحش والقبح ، كالزنى ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بأى ذنب كان ، أو فعلوا كبيرة أو صغيرة ، أو الفاحشة : ما يتعدى للغير ، وظلم النفس ما يخص ، أو الفاحشة بالفعل ، وظلم النفس بالقول ، ذَكَرُوا اللَّهَ أي : عقابه وغضبه وعرضه الأكبر ، أو ذَكَرُوا اللَّهَ فى أنفسهم أن اللّه سائلهم عنه ، أو كونه رقيبا عليهم ، أو ذَكَرُوا اللَّهَ باللسان فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ بالندم والتوبة ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ أي : لا أحد يغفره إلا اللّه ، والمراد : وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة ، والحث على الاستغفار.

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا أي : لم يدوموا عليها غير مستغفرين ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ما أصرّ من استغفر ، ولو عاد فى اليوم سبعين مرّة» ، وذلك إذا صحبة الندم ، وقال أيضا : «لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع

---

(١) لم أقف عليه. وذكر المتقى الهندي فى الكنز حديث : (لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ..» وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن حبان. انظر : (الكنز ١/ ١٣٠ ح ٦١٣).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٠

الإصرار». قال قتادة : إياكم والإصرار ، فإنما هلك المصرون الماضون قدما فى معاصى اللّه تعالى ، لم يتوبوا حتى أتاهم الموت. هـ. وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن الإصرار يضر بهم ، أو : وهم يعلمون أن لهم ربا يغفر الذنب لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «من أذنب ذنبا ، وعلم أنّ له ربا يغفر الذنوب ، غفر له وإن لم يستغفر». وفى الحديث القدسي يقول اللّه تعالى : «من علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى». وفى بعض الكتب المنزلة :

«يا ابن آدم ، إنّك ما دعوتنى ورجوتنى لأغفرن لك على ما كان منك ولا أبالى». أو : (و هم يعلمون) أن التوبة تمحق الذنوب.

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ تغطية لذنوبهم ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، ولا يلزم من إعدادها للتائبين اختصاصهم بها ، كما لا يلزم من إعداد النار للكفار اختصاصهم بها ، ثم مدح أجر التائبين فقال : وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ، وانظر هذا الفرق العظيم الذي بين المحسنين وأهل اليمين ، قال فى الآية الأولى : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وقال فى هذه الآية : وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ، أهل الآية الأولى من خواص الأحباب ، وأهل هذه يأخذون أجرهم من وراء الباب. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى عين التحقيق.

الإشارة : أهل مقام الإحسان عملهم قلبى ، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ ، وأهل اليمين عملهم بدني ، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة ، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا ، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا ، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم ، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم ، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم ، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم ، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم ، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة ، أهل مقام الإحسان محبوبون ، وأهل اليمين محبّون ، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسوم والأشكال ، وبقي فى نظرهم وجود الكبير المتعال ، وأهل اليمين : الأكوان عندهم موجودة ، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة ، أهل مقام الإحسان يعبدون اللّه على نعت الشهود والعيان ، وأهل اليمين يعبدون اللّه من وراء حجاب الدليل والبرهان ، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

واعلم أن لمعرفة الشهود والعيان ثمرات ونتائج ، حصرها بعضهم فى إحدى عشرة خصلة :

الأولى : الحرية ، ومعناها أن يكون العارف فردا لفرد ، من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات ، لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة ، فالحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة. قال بعضهم : ليس بحرّ من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار فص نواة ، المكاتب عبد ما بقي عليه

درهم.
الثانية : الوجود ، وهو الفوز بحقيقة الأشياء فى الأصل ، وهو عبارة عن إدراك مقام تضمحل فيه الرسوم ، بالاستغراق فى الحقيقة الأزلية.

(٤١٠/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١١
الثالثة : الجمع الأتم ، وهو الحال الذي يقضى بقطع الإشارات ، والشخوص عن الأمارات والعلامات ، بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين.
الرابعة : الصحو ، وهو عبارة عن تمكين حال المشاهدة ، واتصالها ، مع برء الروح من لدغات الدّهش ، ولا يكمل الصحو إلا بحياة الروح بوارد الجمع الدائم.
الخامسة : التحقيق ، وهو الوصول إلى المعرفة باللّه ، التي لا تدرك بالحواس ، لتخليص المشرب من الحق بالحق فى الحق ، حتى تسقط المشاهدات ، وتبطل العبارات ، وتفنى الإشارات.
السادسة : البسط ، ونعنى به : بسط الروح باسترسال شهود المعاني عند سقوط الأوانى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :
فما سكنت والهمّ يوما بموضع كذلك لم يسكن مع النغم الغمّ
السابعة : التلبيس ، وهو تغطية الأسرار بأستار الأسباب ، إبقاء للحكمة وسترا عن العامة.
الثامنة : البقاء ، والمراد به الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة ، من غير أفول يخل بشمس المشاهدة ، ولا رجوع إلى شواهد الحس ، إنما هو استصحاب الجمع مع استئناس الروح بحلاوة المعاني ، فهو كبائن دان. انظر بقيتها فى [بغية السالك ]. وباللّه التوفيق.
ثم قوّى قلوب أهل أحد لمّا انكسرت بالهزيمة ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)
قلت : السّنن : الطرق المسلوكة ، وقيل : الأمم.
يقول الحق جل جلاله : قد مضت مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ جرت على الأمم المكذبة لأنبيائها قبلكم ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وهو إمهالى واستدراجى إياهم ، حتى يبلغ الكتاب الذي أجل لهم ، فإذا بلغهم أهلكتهم ، وأدلت الأنبياء وأتباعهم عليهم ، فإذا هلكوا بقيت آثارهم دارسة ، اعتبارا لمن يأتى بعدهم ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ وتعرفوا أخبارهم ، وانظروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لأنبيائهم قبلكم ، فكذلك يكون

شأنكم مع من كذّبكم.
هذا الذي أمرتكم به من الاعتبار ، بَيانٌ لِلنَّاسِ لمن أراد أن يعتبر من الكفار ، وزيادة هداية واستبصار لِلْمُتَّقِينَ.

(١/٤١١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٢
ثم سلّاهم وبشرهم فقال : وَلا تَهِنُوا أي : لا تضعفوا عن قتال عدوكم بما أصابكم ، وَلا تَحْزَنُوا على من قتل منكم ، وهم سبعون من الأنصار وخمسة من المهاجرين ، منهم : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير – صاحب راية النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعبد اللّه بن جحش ، وعثمان بن شماس ، وسعد مولى عتبة – رضى اللّه عنهم – .
أو : (لا تحزنوا) لفوات الغنيمة وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بأن تكون لكم العاقبة والنصر ، أو : وحالكم أنكم أعلى منهم شأنا ، فإنكم على الحق وقتالكم للّه ، وقتلاكم فى الجنة ، وهم على الباطل ، وقتالهم للشيطان ، وقتلاهم فى النار ، فلا تفشلوا عن الجهاد إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى قوة القلب بالوثوق باللّه والاعتماد عليه ، أو : (إن كنتم مؤمنين) بما وعدتكم من العلو والنصر. واللّه أعلم.
الإشارة : قد خلت من قبلكم ، أيها المريدون ، سنن اللّه فى أوليائه مع المنكرين عليهم من عوام عباده ، فإنه أبعدهم عن ساحة حضرته ، وحرمهم من سابق عنايته ، حتى ماتوا على البعد ، فاندرست آثارهم وخربت ديارهم ، فسيروا فى الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين لأوليائه ، هذا بيان للمعتبرين ، وزيادة هدى وموعظة للمتقين ، فلا تهنوا أيها الفقراء وتضعفوا عن طلب الحق بالرجوع عن طريق الجد والاجتهاد ، لما يصيبكم من أذى أهل العناد ، وأنتم الأعلون بالنصر والتأييد ، ورفع درجاتكم مع خواص أهل التوحيد ، إن كنتم مؤمنين بوعد الملك المجيد ، فمن طلب اللّه وجده ، وأنجز بالوفاء موعده ، لكن بعد تجرع كؤوس مرارة الصبر ، ودوام الحمد والشكر ، وأنشدوا :
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصّبر «١»
ثم سلاهم بمشاركة المكذبين فيما أصابهم ، فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٠ الى ١٤٣]
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

قلت : القرح – بالفتح والضم – : الجرح ، وقيل : بالفتح : الجرح ، وبالضم : ألمه ووجعه. والمداولة : المفاعلة من الدولة ، وهى الغلبة ، و(الأيام) : نعت أو خبر ، و(نداولها) : خبر أو حال ، و(ليعلم) : متعلق بمحذوف ، أي : وفعل

---

(١) البيت للمتنبى.



---



ما فعل من الإدالة ليعلم ، أو عطف على علة محذوفة ، أي : نداولها ليكون كيت وكيت ، وليعلم ... إلخ ، إيذانا بأن العلة فيه غير واحدة ، وأن ما يصيب المؤمن : فيه من المصالح ما لا يعلم ، و(يعلم الصابرين) : منصوب بأن ، علّى أنّ الواو للجمع.

يقول الحق جل جلاله : إِنْ يَمْسَسْكُمْ فى غزوة أحد قَرْحٌ كقتل أو جرح ، فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ من أعدائكم يوم بدر قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فإن كان قتل منكم خمسة وسبعون يوم أحد ، فقد قتل منهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون. أو : فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ يوم أحد قَرْحٌ مثل ما أصابكم ، فإنكم نلتم منهم وهزمتموهم ، قبل أن تخالفوا أمر الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، كما نالوا منكم يومئذ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ أي : نصرف دولتها بينهم ، فنديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى ، كما قال الشاعر :

فيوم علينا ، ويوم لنا ، ويوم نساء ، ويوم نسر «١»

فقد أديل المسلمون على المشركين يوم بدر ، فكانت الدولة لهم ، وأديل المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام : أيام الدنيا ، أو أيام النصر والغلبة. وإنما أديل للمشركين يوم أحد ليتميز المؤمنون من المنافقين ، ويظهر علمهم للناس ، وليتخذ اللّه مِنْكُمْ شُهَداءَ حين ماتوا فى الجهاد ، أكرمهم اللّه بالشهادة ، ولا تدل إدالة المشركين على أن اللّه يحبهم ، فإن اللّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وإنما أدالهم لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أي : ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب ، وإنما أدال المسلمين على المشركين ليمحق الكافرين ويقطع دابرهم. والمحق : نقص الشيء قليلا قليلا.

ثم عاتب المسلمين فقال : أَمْ حَسِبْتُمْ أي : ظننتم أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ علم ظهوره ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ أي : لا تظنوا أن تدخلوا الجنة كما دخلها من قتل منكم ، ولم يقع منكم مثل ما وقع لهم من الجهاد والصبر على القتل والجرح حتى يقع العلم ظاهرا بجهادكم وصبركم.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ قبل خروجكم إلى الجهاد تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ أي : الحرب لأنه سبب الموت ، وتقولون : ليت لنا يوما مثل يوم بدر ، فلقد لقيتموه وعاينتموه يوم أحد وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ من مات من إخوانكم ، فما لكم

حين رأيتموه جبنتم وانهزمتم؟ وهو عتاب لمن طلب الخروج يوم أحد ، ثم انهزم عن الحرب ، ثم تداركهم بالتوبة والعفو ، على ما يأتى إن شاء اللّه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح كحبس أو ضرب أو سجن أو حرج أو جلاء ، فقد مس العموم مثل ذلك ، غير أنكم تسيرون به إلى اللّه تعالى لمعرفتكم فيه ، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم ، أو إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم ، ففيهم أسوة لكم ، وهذه عادة اللّه فى أوليائه ، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا ، ثم يديل لهم ، وإنما أديل عليهم أولا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا ، وليعلم

---

(١) البيت للنمر بن كولب ، كما ورد فى الكتاب لسيبويه ١/ ٨٦.



---



الصادق فى الطلب من الكاذب ، فإنّ محبة اللّه مقرونة بالبلاء ، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك ، كالحلاج وغيره ، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. (و اللّه لا يحب الظالمين) أي : المؤذين لأوليائه ، بل يمقتهم ويبعدهم.

(و ليمحص اللّه الذين آمنوا) بطريق الخصوص ، أي : يخلصهم من بقايا الحس ، سلط عليهم الناس ، وليمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إيذايتهم ، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده فى الغيران «١» ، فإذا سلم من الأول والثاني ، قال : لا يلحقنى منهم شيء ، فإذا أدخل يده فى غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يا معشر المريدين أن تدخلوا جنة المعارف ، ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا نفوسهم ، ويعلم الصابرين على إيذاية من آذاهم ، ولقد كنتم تمنون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال ، فقد رأيتموه وعاينتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم ، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟. وكان شيخ شيوخنا رضي اللّه عنه يقول : العجب كل العجب ، ممن يطلب معرفة اللّه ، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفى الحكم : «إذا فتح اللّه لك وجهة من التعرف فلا تبال معها ، وإن قلّ عملك ، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». وباللّه التوفيق.

ثم وبّخهم على ما وقع لهم من الفشل ، حين سمعوا بموت النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]

وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

قلت : (كتابا) : مصدر ، أي : كتب الموت كتابا مؤجلا.

يقول الحق جل جلاله : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ يصيبه ما أصابهم ، قَدْ مضت مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، فسيمضى كما مضوا بالموت أو القتل ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ بعد تقرر شريعته

---

(١) الغيران : جمع غار ، ويجمع أيضا على أغوار.



---



وظهور براهينه ، عاتبهم على تقدير أن لو صار منهم انقلاب لو مات صلّى اللّه عليه وسلم أو قتل ، أو على ما صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.

قال أصحاب المغازي : خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد ، فى سبعمائة رجل ، وأمّر عبد اللّه بن جبير على الرماة ، وهم خمسون رجلا ، وقال : انضحوا عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، لا تبرحوا مكانكم كانت لنا أو علينا ، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم ، فجاءت قريش ، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة ، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام : «من يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فجاء رجال فمنعهم ، حتى جاء أبو دجانة ، فقال : وما حقه يا رسول اللّه؟ قال : «تضرب به العدو حتى ينحنى» ، وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، فأخذه واعتم بعمامة حمراء ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إنها لمشية يبغضها اللّه إلّا فى هذا الموضع».

ثم حمل النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم ، قال الزبير : (فرأيت هندا وصواحبها هاربات مصعدات فى الجبل) ، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انكشفوا ، قالوا : الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم : لا تتركوا أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم فلم يلتفتوا ، وانطلق عامتهم ، فلما رأى خالد قلة الرماة ، صاح فى خيله من المشركين ، ثم حمل على أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم من خلفهم ، وقتل عبد اللّه بن جبير ، واختلط الناس ، فقتل بعضهم بعضا ، ورمى عبد اللّه بن قمئة الحارثي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بحجر ، فكسر أنفه ورباعيته ، وشجّه فى وجهه ، وكسر

البيضة «١» على رأسه ، فذبّ عنه مصعب بن عمير ، وكان صاحب الراية ، فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فرجع إلى قومه ، وقال : قد قتلت محمدا ، وصرخ صارخ : ألا إنّ محمدا قد مات. وقيل : إنه الشيطان ، فانكفأ الناس ، وجعل الرسول – عليه الصلاة والسلام – يدعو : «إليّ عباد اللّه» ، فانحاز إليه ثلاثون من الصحابة ، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين ، وأصيبت يد طلحة بن عبيد اللّه فيبست ، حين وقى بها النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنتيه ، فردها النبي صلّى اللّه عليه وسلم مكانها ، فعادت أحسن مما كانت.

وفشا فى الناس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مات – فقال بعض المسلمين : ليت ابن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان.

وقال بعض المنافقين : لو كان نبيا ما قتل ، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر – عمّ أنس بن مالك : (إن كان قد قتل محمد فإنّ رب محمد لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، حتى تموتوا على ما مات عليه). ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعنى المسلمين – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعنى الكفار – ، ثم شدّ سيفه وقاتل حتى قتل ، رحمة اللّه عليه.

---

(١) البيضة : الخوذة.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٦

فأنزل فيما قال المنافقون : وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ بارتداده فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وإنما يضر نفسه ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ على نعمة الإسلام بالثبات عليه ، كأنس وأضرابه ، وَما كانَ ينبغى لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي : بإرادته ومشيئته ، أو بإذنه لملك فى قبض روحه ، والمعنى : أنّ لكل نفس أجلا مسمى فى علمه تعالى وقضائه ، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم ، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه ، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله فإن اللّه تعالى كتب أجل الموت كِتاباً مُؤَجَّلًا مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل فى الرماة الذين خالفوا المركز للغنيمة : وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها الجزاء الجليل ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ الذين شكروا نعم اللّه ، فلم يشغلهم شىء عن الجهاد فى سبيل اللّه ، بل كان همهم رضى اللّه ورسوله دون شىء سواه.

الإشارة : ينبغى للمريد أن يستغنى باللّه ، فلا يركن إلى شيء سواه ، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الواسطة بشهود الموسوط ، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه ، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود ، وإن لم يتمكن نظر من يكمله ، فالوقوف مع الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم ، فلا يكون شاكرا للمنعم حتى لا يحجبه عنه شيء ، ولما مات – عليه الصلاة والسلام – دهشت الناس ، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة ، إلّا الصدّيق كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المنعم ، فخطب حينئذ على الناس ، وقال : (من كان يعبد محمّدا فإن محمّدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه فإنّ اللّه حى لا يموت). ثم قرأ : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... إلى قوله :
وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم ، ولم يقفوا مع النعمة.
ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكى ، فقال له : ما يبكيك؟ قال : مات أستاذى ، فقال له العارف : ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حيا لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة ، فالشيخ الحقيقي هو الذي يغنى صاحبه عنه وعن غيره ، بالدلالة على ربه.
ثم صبّرهم بما وقع لغيرهم قبلهم فقال :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٦ الى ١٤٨]
وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (١٤٧) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٧
قلت : (كأيّن) : أصله : أي ، دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى (كم) ، وأثبت التنوين نونا على غير قياس ، وقرأ ابن كثير : (و كائن) ، على وزن فاعل ، ووجهه : أنه قلب الياء قبل الهمزة فصار : كياء ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار كائن ، وهما لغتان ، وقد جمع الشاعر بينهما فى بيت ، فقال :
كأيّن أبدنا من عدوّ بعزّنا وكائن أجرنا من ضعيف وخائف
و(الربّيون) : جمع ربّة ، أي : الفرقة. أي : معه جموع كثيرة ، وقيل : العلماء الأتقياء ، وقيل : الولاة ، وهو : إما مبتدأ فيوقف على (قتل) ، أو نائب فاعل (قتل) ، أو فاعل على من قرأ بالبناء له ، و(كثير) : نعت له ، كقوله :

وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ لأن فعيلا يخبر به عن المفرد والجمع.

يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ وكم مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ فى المعركة ومعه جموع كثيرة ، أو ربانيون علماء أتقياء ، فلم يفشلوا ولم يضعفوا ، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم ، أو يقول : كثير من الأنبياء قتل معهم ربانيون كثير ، أي : ماتوا فى الحرب فثبت الباقون ، ولم يفتروا ولم يضعفوا عن عدوهم ، ويترجح الأول بما صرخ به الصارخ يوم أحد : إن محمدا قد مات ، فضرب لهم المثل بقوله : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ ، ويترجح الثاني بأنه لم يقتل نبى قط فى المحاربة.

أو : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ أي : جاهد معه رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، وبعد ما قتل نبيهم أو جموعهم فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : فما فتروا ، ولم ينكسر جندهم لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم ، وَما ضَعُفُوا عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم ، وَمَا اسْتَكانُوا أي : خضعوا لعدوهم ، من السكون لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد ، فالألف إشباع زائد ، أي : فما سكنوا لعدوهم بل صبروا له ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ فينصرهم ويعزهم ويعظم قدرهم.

وَما كانَ قَوْلَهُمْ عند قتل نبيهم مع ثباتهم على دينه ، إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا الصغائر ، وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا أي : ما تجاوزنا به الحد فى أمر ذنوبنا ، كالكبائر ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا فى مداحض الحرب لئلا ننهزم ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ من أعدائنا ، فهّلا فعلتم مثلهم ، وقلتم ذلك يا أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

فَآتاهُمُ اللَّهُ فى ثواب الاستغفار واللجوء إلى اللّه ثَوابَ الدُّنْيا وهو النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر ، وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وهو النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعارا بفضله ، وأنه المعتد به عنده ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الثابتين على دينهم ، لأنهم أحسنوا فيما بينهم وبين ربهم بحفظ دينه ، فأحبهم اللّه وقربهم إلى حضرته.

*(٤١٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤١٨

الإشارة : وكم من المريدين والأتباع مات شيخهم أو قتل ، فثبتوا على طريقهم ، فما فشلوا ولا ضعفوا ، ولا خضعوا لمن يقطعهم عن ربهم ، بل صبروا على السير إلى ربهم ، أو الترقي فى المقامات ، ومن لم يرشد منهم طلب من يكمل له ، (و اللّه يحب الصابرين) ، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم ، كما فى الحديث. وما كان حالهم عند موت شيخهم إلا الالتجاء إلى ربهم ، والاستغفار مما بقي من مساوئهم ، وطلب الثبات فى مواطن حرب أنفسهم ، فأعطاهم اللّه عز الدنيا والآخرة ، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة بدوام المشاهدة ، فكانوا أحباب اللّه (و اللّه يحب المحسنين).

ثم حذّرهم اللّه تعالى من الركون إلى عدوهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٩ الى ١٥٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا وهم المنافقون ، لما قالوا للمسلمين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دينكم الأول ، ولو كان نبيا ما قتل ، يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ راجعين عن إيمانكم ، فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ مفتونين عن دينكم ، فتحبط أعمالكم فتخسروا الدنيا والآخرة ، بل اثبتوا على إيمانكم ، فإن اللّه مَوْلاكُمْ سينصركم ويعزكم ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وقيل : إن تسكنوا إلى أبى سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل : عام فى مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم ، لا سيما إن طالت مدة الاستئمان.

قلت : وهذا هو السبب فى ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى ، هم وأولادهم ، والعياذ باللّه من سوء القضاء.

الإشارة : يا أيها المريدون – وخصوصا المتجردين – إن تطيعوا العامة ، وتركنوا إليهم ، يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بطلب الدنيا وتعاطى أسبابها ، فتزلّ قدم بعد ثبوتها ، وتنحط من الهمة العالية إلى الهمة السفلى ، فإن الطباع تسرق ، والمرء على دين خليله ، بل اثبتوا على التجريد وتحقيق التوحيد ، فإن اللّه مولاكم (و هو خير الناصرين) فينصركم ويعزكم ويغنيكم بلا سبب ، كما وعدكم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ.

ولّما انصرف أبو سفيان من أحد ، قال : بئس ما صنعنا! قتلنا القوم ولم يبق إلا اليسير ، ارجعوا حتى نستأصلهم ، فألقى اللّه فى قلبه الرعب ، كما قال :



---



[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥١]

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

قلت : (الرعب) : الخوف ، وفيه الضم والسكون ، وهكذا كل ثلاثى ساكن الوسط ، كالقدس والعسر واليسر ، وشبه ذلك ، و(بما أشركوا) : مصدرية.

يقول الحق جل جلاله : سنقذف فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا كأبى سفيان وأصحابه ، الرُّعْبَ والخوف ، حتى

يرجعوا عنكم بلا سبب ، بسبب شركهم باللّه ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ولا حجة على استحقاق العبادة ، وَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : هى مقامهم ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أي : قبح مقامهم. ووضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ فى العلة.

الإشارة : فيها تسلية للفقراء ، فإنّ كل من هم بإذايتهم ألقى اللّه فى قلبه الرعب ، حتى لا يقدر أن يتوصل إليهم بشىء مما أمّل فيهم ، وقد رأيتهم هموا بقتلهم وضربهم وحبسهم ، وسعوا فى ذلك جهدهم ، وعملوا فى ذلك بينات على زعمهم ، توجب قتلهم ، فكفاهم اللّه أمرهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، فانقلبوا خائبين وماتوا ظالمين ، واللّه ولى المتقين.

ثم ذكّرهم اللّه تعالى ما وعدهم من النصر ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٢]

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

قلت : حسّه : إذا قتله وأبطل حسه ، وجواب (إذا) : محذوف ، أي : حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم امتحناكم بالهزيمة ، والواو لا ترتب ، والتقدير : حتى إذا تنازعتم وعصيتم وفشلتم سلبنا النصر عنكم.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ ما وعدكم من النصر لو صبرتم واتقيتم ، وذلك حين كنتم تَحُسُّونَهُمْ بالسيف ، وتقتلونهم حتى انهزموا هاربين ، بإذنه تعالى وإرادته ، حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ أي : جبنتم



---



وضعف رأيكم وملتم إلى الغنيمة ، وَتَنازَعْتُمْ فى الثبات مع الرماة حين انهزم المشركون ، فقلتم : الغنيمة الغنيمة ، فما وقوفكم هنا! وقال آخرون : لا تخالفوا أمر الرسول ، ثم تركتم المركز ، وَعَصَيْتُمْ الرسول مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ من النصر والغنيمة ، امتحناكم حينئذ بالهزيمة.

فمنكم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ليصرفها فى الآخرة ، وهم الذين خالفوا المركز وذهبوا للغنيمة ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ صرفا ، وهم الثابتون مع عبد اللّه بن جبير ، محافظة على أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ حين خالفتم أمر الرسول ، لِيَبْتَلِيَكُمْ أي : ليختبركم ، فيتبين الصابر من الجازع ، والمخلص من المنافق ، وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، لاستحقاقكم ذلك ، أو تجاوز عن ذنبكم وتفضل بالتوبة والمغفرة ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عظيم عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يتفضل عليهم

بالمغفرة فى الأحوال كلها ، سواء أديل عليهم أو لهم ، فإن الابتلاء أيضا رحمة وتطهير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقول للفقراء الذين استشرفوا على بلاد الخصوصية ، ثم فشلوا ورجعوا إلى بلاد العمومية : ولقد صدقكم اللّه وعده فى إدراك الخصوصية لو صبرتم ، فإنكم حين كنتم تجاهدون نفوسكم وتحسونها بسيوف المخالفة ، لمعت لكم أنوار المشاهدة ، حتى إذا فشلتم وتفرقت قلوبكم ، وعصيتم شيوخكم قلّت أمدادكم ، وأظلمت قلوبكم ، من بعد ما رأيتم ما تحبون من مبادئ المشاهدة ، فملتم إلى الدنيا الفانية ، فمنكم يا معشر المنتسبين من يريد الدنيا ، فصحب العارفين على حرف ، وهو الذي رجع وفشل ، ومنكم من يريد الآخرة وقطع يأسه من الرجوع إلى الدنيا ، وهو الذي ثبت حتى ظفر ، ثم صرفكم عن صحبة العارفين ، يا من أراد الدنيا من المنتسبين ، ليبتليكم ، هل صحبتموهم للّه أو لغيره ، ولقد عفا عنكم وجعلكم من عوام المسلمين ، ولم يسلب عنكم الإيمان عقوبة لترك صحبة العارفين. أو لقد عفا عنكم إن رجعتم إلى صحبتهم والأدب معهم ، فإن اللّه (ذو فضل على المؤمنين) حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. وباللّه التوفيق.

وقال الورتجبي : قوله : مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، أي : منكم من وقع فى بحر غنى القدم ، واتصف به بنعت التمكين ورؤية النعم فى شكر المنعم ، كسليمان عليه السّلام. ومنكم من وقع فى بحر التنزيه وتقديس الأزلية ، فغلب عليه القدس والطهارة ، فخرج بنعت الفقر تجريدا لتوحيده وإفراد قدمه من الحدث ، كمحمد صلّى اللّه عليه وسلم حيث قال : «الفقر فخرى» «١».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لا أصل له. انظر : الأسرار المرفوعة.



---



ثم بيّن وقت الذلة التي افتقرت إلى العفو ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٣]

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٥٣)

قلت : (إذ) : ظرف لعفا ، أو اذكر. وأصعد : أبعد فى الأرض ، وصعد : فى الجبل ، فالإصعاد : الذهاب فى الأرض المستوية ، والصعود : الارتقاء فى العلو. وقرئ بهما معا لأنهما وقعا معا ، فمنهم من فر ذاهبا فى الأرض ، ومنهم من صعد إلى الجبل. و(لكيلا) : متعلق بأثابكم.

يقول الحق جل جلاله : ولقد عفا عنكم حين كنتم تُصْعِدُونَ عن نبيه – عليه الصلاة والسلام – ، منهزمين عنه ، تبعدون عنه ، وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ أي : لا يلتفت بعضكم إلى بعض ، ولا ينتظر بعضكم بعضا ، وَالرَّسُولُ محمد صلّى اللّه عليه وسلم يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ أي : فى ساقتكم ، يقول : «إلىّ عباد اللّه ، أنا رسول اللّه ، من يكرّ فله الجنة» ، وفيه مدح للرسول صلّى اللّه عليه وسلم بالشجاعة والثبات ، حيث وقف فى آخر المنهزمين ، فإن الآخر هو موقف الأبطال ، والفرار فى حقه صلّى اللّه عليه وسلم محال.

فَأَثابَكُمْ أي : فجازاكم على ذلك الفرار ، غَمًّا وهو ظهور المشركين عليكم وقتل إخوانكم ، بسبب غم أوصلتموه للنبى صلّى اللّه عليه وسلم بعصيانه والفرار عنه ، وقدّر ذلك لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ من الغنيمة ، وَلا على ما أَصابَكُمْ من الجرح والهزيمة ، لأن من استحق العقوبة والأدب لا يحزن على ما فاته ولا على ما أصابه إذ جريمته تستحق أكثر من ذلك ، يرى ما نزل به بعض ما يستحقه ، فيهون عليه أمر ما نزل به أو ما فاته من الخير.

أو يقول : فَأَثابَكُمْ غَمًّا متصلا بِغَمٍّ فالغم الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثاني : ما نالهم من القتل والهزيمة ، أو الأول : ما أصابهم من القتل والجراح ، والثاني : ما سمعوا من الإرجاف بقتل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك ليتمرنوا على المحن والشدائد حتى لا يجزعوا من شيء. وبذلك وصفهم كعب بن زهير فى لاميته ، حيث قال :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

فإن المتمرن على المصائب المتعود عليها يهون عليه أمرها ، فلا يحزن على ما أصابه ولا ما فاته ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ وبما قصدتم ، فيجازيكم على ذلك.

*(٤٢١/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٢

الإشارة : ما زال الدعاة إلى اللّه من أهل التربية النبوية يدعون الناس إلى اللّه ، ويعرفونهم بالطريق إلى اللّه ، يبينون لهم الطريق إلى عين التحقيق ، والناس يبعدون عنهم ويفرون منهم ، وهم فى أخراهم يقولون بلسان الحال أو المقال : يا عباد اللّه ، هلم إلينا نعرفكم باللّه ، وندلكم على اللّه ، فلا يلوى إليهم أحد ولا يلتفت إليهم بشر ، إلا من سبقت له العناية ، وأراد الحق تعالى أن يوصله إلى درجة الولاية ، «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» ، فأثابهم على الفرار غم الحجاب ، متصلا بغم الأسباب ، فلا يحزنوا على ما فاتهم من المعرفة إذ لم يعرفوا قدرها ، ولا على ما أصابهم من الغفلة والبطالة ، إذ لم يتفطنوا لها ، (و

اللّه خبير بما تعملون) يا معشر العباد ، من التودد أو العناد. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أنزل على أهل أحد الأمن والطمأنينة بعد الشدة والمحنة ، كما أشار إلى ذلك الحق ، بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٤]

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

قلت : (نعاسا) : بدل من (أمنة) ، أو هو المفعول ، و(أمنة) : حال منه ، مقدمة ، أو مفعول له ، أي : أنزل عليكم نعاسا لأجل الأمنة ، أو حال من كاف (عليكم) ، أي : أنزل عليكم حال كونكم آمنين. والأمنة : مصدر أمن ، كالعظمة والغلبة.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أيها المؤمنون مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الذي أصابكم بموت إخوانكم ، والإرجاف بقتل نبيكم ، الأمن والطمأنينة ، حتى أخذكم النعاس وأنتم فى الحرب. قال أبو طلحة : (غشينا النعاس ونحن فى المصافّ ، حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه). وقال الزبير رضي اللّه عنه : لقد رأيتنى حين اشتدّ الخوف ، ونحن مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، أرسل اللّه – تعالى – علينا النوم ، واللّه إنى لأسمع قول معتب ، والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلم : (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا).

ثم إن هذا النعاس إنما يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وهم المؤمنون ، أو : هذه الأمنة إنما تغشى طائفة منكم ، وأما المنافقون فقد أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، أي : أوقعتهم فى الهموم والغموم ، أو ما يهمهم إلا أنفسهم ، يدبرون خلاصها



---



ونجاتها ، فقد طارت قلوبهم من الخوف ، فلا يتصور فى حقهم النوم ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ أي : غير الظن الحق ، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر – عليه الصلاة والسلام ، وأن أمره مضمحل ، أو ظنوا أنه قتل ، ظنا كظن الجاهلية ، أهل الشرك ، يَقُولُونَ أي : بعضهم لبعض : هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ أي : عزلنا عن تدبر أنفسنا ، فلم يبق لنا من الأمر من شيء. قاله ابن أبى ، لما بلغه قتل الخزرج.

قُلْ لهم يا محمد : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار ، حال كون المنافقين يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ من الكفر والنفاق ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا أي : لو كان تدبيرا أو اختيارا ما خرجنا مع محمد حتى نقتل هاهنا ويقتل رؤساؤنا. قُلْ لهم يا محمد : أخرجتكم القدرة فى سلسلة المقادير ، رغما على أنفكم ، فلو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ آمنين لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ، ووصل أجلهم إِلى مَضاجِعِهِمْ ومصارعهم ، رغما على أنفهم ، فإن اللّه قدّر الأمور ودبرها فى سابق أزله ، لا معقب لحكمه ، وإنما فعل ذلك ، وأخرجكم إلى المعركة لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ أي : يختبر ما فيها من الخير أو الشر ، وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ أي : يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص ، فقد ظهر خبث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذي تمكن فيه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : بخفاياها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غنى عن الابتلاء ، وإنما فعل ذلك ليميّز المؤمنين ويظهر حال المنافقين. قاله البيضاوي.

الإشارة : ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون ، أو من تعلق بكم من السائرين ، من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمنة فى قلوبكم بالطمأنينة بشهود اللّه ، وراحة فى جوارحكم من تعب الخدمة فى السير إلى اللّه ، حتى وصلتم فنمتم فى ظل الأمن والأمان ، وسكنتم فى جوار الكريم المنان.

قال بعض العارفين : (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح) «١» ، وهذه الراحة إنما تحصل للعارفين ، أو من تعلق بهم من المريدين ، وطائفة من غيرهم وهم المتفقرة الجاهلون ، الذين لا شيخ لهم ، قد أهمتهم أنفسهم ، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها ، تارة تشرق عليهم أنوار التوجه ، فيقوى رجاؤهم فى الفتح ، وتارة تنقبض عنهم فيظنون باللّه غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الفتح من شى ء؟.

قل لهم : (إن الأمر كله للّه) يوصل من يشاء ويبعد من يشاء ، يخفون فى أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك ، فإذا طال عليهم الفتح ، وغلب عليهم الفقر ، ندموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا بالذل والفقر والجوع ، قل لهم : ذلك الذي سبق فى علم اللّه ، لا محيد لأحد عنه ، ليظهر الصادق فى الطلب من الكاذب ، [كن صادقا تجد مرشدا] ، فلو صدقتم فى الطلب لأرشدكم إلى من يوصلكم ويريحكم من التعب. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) سبق بيان معنى العبارة عند إشارة الآية/ ٢١٢ من سورة البقرة.

ثم ذكر الحق تعالى علة انهزام من انهزم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٥]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ وانهزموا يوم أحد يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ جمع المسلمين وجمع الكفار إنما كان السبب فى انهزامهم أن الشيطان اسْتَزَلَّهُمُ ، أي : طلب زللهم فأطاعوه ، أي : زين لهم الفرار فأطاعوه ، بسبب بعض ما كَسَبُوا من الإثم ، كمخالفة أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، والحرص على الغنيمة ، وذنوب اقترفوها قبل الجهاد ، فإن المعاصي تجر بعضها بعضا ، كالطاعة ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ فيما فعلوا من الفرار لتوبتهم واعتذارهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ للذنوب ، حَلِيمٌ لا يعاجل بعقوبة المذنب كى يتوب.

الإشارة : إن الذين تولوا منكم يا معشر الفقراء ، ورجعوا عن صحبة الشيوخ ، حين التقى فى قلبهم الخصمان :

خصم يرغبهم فى الثبوت ، وخصم يدلهم على الرجوع ، ثم غلب خصم الرجوع فرجعوا ، إنما استزلهم الشيطان بسوء أدبهم ، فإن تابوا ورجعوا ، أقبلوا عليهم ، وقبل اللّه توبتهم ، وعفا عنهم ، فإنه سبحانه غفور حليم.

ثم حذّر من التشبه بالمنافقين فى ضعف اليقين ، وما ينشأ عنه من مقالة الجاهلين ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)

قلت : (غزّى) : جمع غاز ، كعاف وعفى ، وإنما وضع (إذا) موضع (إذ) لحكاية الحال.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ونافقوا ، كعبد اللّه بن أبى ، وأصحابه ، وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ فى النسب ، أو فى المذهب ، أي : قالوا لأجلهم أو فى شأنهم ، إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أي : سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا ، أَوْ كانُوا غُزًّى أي : غازين فقتلوا فى الغزو : لَوْ كانُوا عِنْدَنا مقيمين ما ماتُوا وَما قُتِلُوا ، وإنما نطقوا بذلك لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ القول الناشئ عن الاعتقاد الفاسد حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ بالاغتمام على ما فات ، والتحسر على ما لم يأت ، وَاللَّهُ هو يُحْيِي وَيُمِيتُ بلا سبب فى الإقامة والسفر ، فليس يمنع حذر من قدر ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ ، أيها المؤمنون بَصِيرٌ ، ففيه تهديد لهم على أن يماثلوا المنافقين فى هذا الاعتقاد الفاسد ، ومن قرأ بالياء فهو تهديد لهم. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٥

الإشارة : لا ينبغى للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين ، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين ، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء : لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وما دروا أن اللّه قدّر الآجال كما قدّر الأرزاق وجميع الشئون والأحوال ، وعيّن لها أوقاتا محدودة فى أزله ، فكل مقدور يبرز فى وقته ، «ما من نفس تبديه ، إلا وله قدر فيك يمضيه» ، فما قدّره فى سابق علمه لا بد أن يكون ، وما لم يقدره لا يكون ، ولا تجلبه حركة ولا سكون. وللّه در القائل :

ما لا يقدّر لا يكون بحيلة أبدا وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن فى وقته وأخو الجهالة متعب محزون

يجرى الحريص ولا ينال بحرصه شيئا ويحظى عاجز ومهين

فدع الهموم ، تعرّ من أثوابها ، إن كان عندك بالقضاء يقين

هوّن عليك وكن بربّك واثقا فأخو الحقيقة شأنه التّهوين

وكان سيدنا عمر رضي اللّه عنه يتمثل بهذه الأبيات :

فهوّن عليك فإنّ الأمور بكفّ الإله مقاديرها

فليس يأتيك مصروفها ولا عازب عنك مقدورها

وكل من لم يحقق الإيمان بالقدر لا ينفك عن الحسرة والكدر ، ومن أراد النعيم المقيم فليثلج صدره ببرد الرضا والتسليم ، ومن أراد الروح والريحان فعليه بجنات العرفان ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رغّب الحق تعالى فى الموت فى الجهاد ، ورجّح الموت مطلقا على الحياة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥٧ الى ١٥٨]

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

قلت : إذا اجتمع القسم والشرط ذكر جواب الأول وأغنى عن الثاني ، فقوله : (لمغفرة) : جواب القسم ، أغنى عن جواب (إن) ، والتقدير : إن قتلتم فى سبيل اللّه غفر اللّه لكم ، ثم سد عنه (لمغفرة ..) إلخ ، ومن قرأ : (متم) بكسر الميم ، فهو من : مات يمات ، كهاب يهاب هبت ، وخاف يخاف خفت ، ومن قرأ بالضم : فمن مات يموت ، كقال يقول قلت.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٦

يقول الحق جل جلاله : إن السفر والغزو ليس هما مما يجلب الموت أو يقدم الأجل ، وعلى تقدير : لو وقع ذلك وحضر أجلكم فيه وقتلتم فِي سَبِيلِ اللَّهِ بالسيف ، أَوْ مُتُّمْ حتف أنفكم ، لما تنالون من المغفرة والرحمة والروح والريحان خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من حطام الدنيا الفانية لو لم تموتوا ، وعلى أي وجه متم أو قتلتم فلا تحشرون إلا إلى اللّه ، لا إلى أحد غيره ، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم ، وأما البقاء فى الدنيا فلا مطمع لأحد فيه ، سافر أو قعد فى بيته ، وقدّم أولا القتل على الموت وأخره ثانيا لأن الأول رتب عليه المغفرة والرحمة ، وهما فى حق من قتل فى الجهاد أعظم ممن مات بغيره ، فقدمه اعتناء به ، وفى الثاني رتب عليه الحشر ، وهو مستو فى القتل والموت ، فلا مزية فيه للقتل على الموت. واللّه أعلم.

الإشارة : ولئن قتلتم نفوسكم وبذلتم مهجكم فى طلب محبوبكم ، فظفرتم بالوصول إليه قبل موتكم ، أو متم فى السير قبل الوصول إلى محبوبكم ، لما تنالون من كمال اليقين وشهود رب العالمين ، أو من المغفرة والرحمة التي تضمكم إلى جواره ، خير مما كنتم تجمعون من الدنيا قبل توجهكم إليه ، فإن الموت والحشر مكتوب على كل مخلوق ، فيظهر فوز المجاهدين والمتوجهين ، وغبن القاعدين المتسوفين. وباللّه التوفيق.

ولمّا وقع ما وقع يوم أحد من مخالفة الرسول والفرار عنه – عليه الصلاة والسلام – لم يعاتب صلّى اللّه عليه وسلم أحدا ، ولكن ألان لهم الكلام وعفا عنهم ، كما أخبر عن ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٩]

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

قلت : (فبما) : صلة. والفظ : الجافي ، يقال : فظ فظاظة وفظوظا ، ورجل فظ ، وامرأة فظة ، والفض – بغير المشالة : التفرق ، ويطلق على الكسر ، ومنه : لا يفضض اللّه فاك.

يقول الحق جل جلاله : فبرحمة من اللّه ونعمة كنت سهلا لينا رفيقا ، فحين عصوا أمرك ، وفروا عنك ، ألنت لهم جانبك ، ورفقت بهم ، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا جافيا سيئ الخلق غَلِيظَ الْقَلْبِ قاسيه فأغلظت لهم القول ، لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ أي : لتفرقوا عنك ، ولم يسكنوا إليك ، فَاعْفُ عَنْهُمْ فيما يختص بك ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ فى حق ربك حتى يشفعك فيهم ، وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الذي يصح أن يشاور فيه تطييبا لخاطرهم ، ورفعا لأقدارهم ، واستخراجا وتمهيدا لسنة المشاورة لغيرهم ، وخصوصا الأمراء.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٧

قال عليه الصلاة والسلام : «ما شقى عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء برأى». وقال أيضا : «ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار». وقال أيضا – عليه الصلاة والسلام – «إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، ولم تكن أموركم شورى بينكم ، فبطن الأرض خير من ظهرها».

فَإِذا عَزَمْتَ على شيء بعد الشورى ، (فتوكل على اللّه) أي : ثق به وكيلا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.

الإشارة : ما اتصف به نبينا – عليه الصلاة والسلام – من السهولة والليونة والرفق بالأمة ، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين ، والعلماء الراسخين ، ليتهيأ لهم الدعوة إلى اللّه ، أو إلى أحكام اللّه ، ولو كانوا فظاظا غلاظا لانفض الناس من حولهم ، ولم يتهيأ لهم تعريف ولا تعليم ، فينبغى لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس ، ويستغفروا لهم ، ويشاوروهم فى أمورهم ، اقتداء برسولهم ، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على اللّه إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.

قال الجنيد – رضي اللّه عنه – : (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه). وقال الثوري : أن تفنى تدبيرك فى تدبيره ، وترضى باللّه وكيلا ومدبرا ، قال اللّه تعالى : وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا. وقال ذو النون : (خلع الأرباب ، وقطع الأسباب.) وقال الخواص : قطع الخوف والرجاء مما سوى اللّه تعالى. وقال العرجى : رد العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل : معرفة معطى أرزاق المخلوقين ، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر «١» والأرض كالحديد ، لا ينزل من السماء قطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ويعلم أن اللّه لا ينسى له ما ضمن من رزقه بين هذين. هـ. وقيل : هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل ، كاكتفاء الخليل بالخليل ، حين لم ينظر إلى عناية جبريل. وقيل لبهلول المجنون : متى يكون العبد متوكلا؟ قال : إذا كان بالنفس غريبا بين الخلق ، وبالقلب قريبا إلى الحق.

وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من سرّه أن يكون أكرم النّاس فليتق اللّه ، ومن سرّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يده».

قال ابن جزى : التوكل هو الاعتماد على اللّه فى تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها ، وفى دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها ، وهو من أعلى المقامات ، لوجهين : أحدهما : قوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ، والآخر :

(١) الصفر : النحاس.



البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٨

الضمان الذي فى قوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، وقد يكون واجبا لقوله : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فجعله شرطا فى الإيمان ، ولظاهر قوله : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس فى التوكل على ثلاث مراتب :

الأولى : أن يعتمد العبد على ربه ، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده ، الذي لا يشك فى نصيحته له وقيامه بمصالحه. الثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلّا إليها. الثالثة : أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدى الغاسل ، قد أسلم إليه نفسه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه ، بخلاف صاحب الثانية. وصاحب الثانية له حظ من الاختيار ، بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص ، الذي تكلمت عليه فى قوله :

وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، فهى تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

فإن قيل : هل يشترط فى التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب : أن الأسباب على ثلاثة أقسام :

أحدها : سبب معلوم قطعا قد أجراه اللّه ، فهذا لا يجوز تركه كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد.

الثاني : سبب مظنون : كالتجارة وطلب المعاش ، وشبه ذلك ، فهذا لا يقدح فعله فى التوكل ، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن ، ويجوز تركه لمن قوى عليه.

والثالث : سبب موهوم بعيد ، فهذا يقدح فعله فى التوكل ، قلت : ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر ، وشبه ذلك.

ثم فوق التوكل التفويض ، وهو : الاستسلام لأمر اللّه تعالى بالكلية ، فإن المتوكل له مراد واختيار ، وهو يطلب مراده فى الاعتماد على ربه ، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار ، بل أسند الاختيار إلى اللّه تعالى ، فهو أكمل أدبا مع اللّه. هـ وأصله للغزالى ، وسيأتى بقية الكلام عند قوله : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ. وباللّه التوفيق.

ولما أمر نبيّه – عليه الصلاة والسلام – بالتوكل ، رغب فيه جميع عباده ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٠]

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

(٤٢٨/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٢٩

يقول الحق جل جلاله : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ) كما نصركم يوم بدر ، (فلا غالب لكم) من أحد من الناس ، (و إن يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد ، (فمن) هذا (الذي ينصركم من بعده) تعالى ، أي : فلا ناصر سواه. وهذا تنبيه على الحث على التوكل ، وتحريض على ما يستوجب به النصر ، وهو الاعتماد على اللّه ، وتحذير مما يستوجب الخذلان ، وهو مخالفة أمره وعصيان رسوله ، أو الاعتماد على غيره ، ولذلك قال : (و على اللّه فليتوكل المؤمنون) لما علموا ألا ناصر سواه.

الإشارة : إن ينصركم اللّه على مجاهدة النفوس ، ودوام السير إلى حضرة القدوس ، فلا غالب لكم من النفس ، ولا من الناس ولا من الهوى ولا من الشيطان ، وإن يخذلكم – والعياذ باللّه – فمن ذا الذي ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ فليعتمد المريد فى سيره على مولاه ، وليستنصر به فى قطع حظوظه وهواه ، فإنه لا ناصر له سواه. وأنشدوا :

إذا كان عون اللّه للمرء ناصرا تهيّأ له من كلّ صعب مراده

وإن لم يكن عون من اللّه للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا تبادرت الرماة إلى الغنيمة كما تقدم ، وقع فى وهمهم أنه – عليه الصلاة والسلام – يحرمهم من الغنيمة ، وذلك غلول لا يليق بحاله – عليه الصلاة والسلام – ، فنزه اللّه نبيّه عن ذلك ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦١]

وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١)

قلت : الغلول : السرقة من الغنائم ، فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين ، فمعناه : لا ينبغى له أن يأخذ شيئا من الغنيمة خفية ، والمراد : تبرئة رسوله – عليه الصلاة والسلام – من ذلك. ومن قرأ بضم الياء ففيه وجهان : أحدهما :

أن يكون المعنى ، ما كان لنبى أن يخان ، أي : أن تخونه أمّته فى المغانم ، وكذلك الأمراء ، وإنما خص النبىّ صلّى اللّه عليه وسلم بذلك لبشاعة ذلك مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته ، والثاني : أن يكون المعنى : ما كان لنبى أن ينسب إلى الخيانة كقوله : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ أي : لا ينسبونك إلى

الكذب.

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ويأخذ شيئا من الغنيمة خفية لأن ذلك خيانة والنبوة تنافى ذلك ، والمراد : نزاهة الرسول – عليه الصلاة والسلام – عن ذلك ، كقوله : ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ

(٤٢٩/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٠

مِنْ وَلَدٍ

،

ودفع ما توهمه الرماة ، فقد روى أنه – عليه الصلاة والسلام – قال لهم لما تركوا المركز : «ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتّى يأتيكم أمرى؟» قالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «بل ظننتم أنّا نغلّ ولا نقسم لكم». فنزلت الآية. وقيل إنه – عليه الصلاة والسلام – : بعث طلائع ، فغنم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقسم على من معه فقط ، فنزلت ، فاسترجع ذلك منهم. وقيل : فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر ، فقال المنافقون : لعلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أخذها ، فنزلت.

ثم ذكر وعيد الغلول ، فقال : وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : يأتى بالذي غله يحمله على رقبته ، قال عليه الصلاة والسلام : «لا ألقى أحدكم يوم القيامة يجئ على رقبته بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر «١».» ثم قال : «اللهمّ هل بلّغت؟ ثلاثا». كما فى البخاري.

ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما كَسَبَتْ تاما ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب مطيعهم ، ولا يزاد على عقاب عاصيهم وكان اللائق بما قبله أن يقول : ثم يوفى ما كسب. لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه ، وأنه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله ، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي.

الإشارة : ما قيل فى النبي – عليه الصلاة والسلام – يقال فى ورثته الكرام ، كالأولياء والعلماء الأتقياء ، فإنهم ورثة الأنبياء ، فيظن بهم أحسن المذاهب ، ويلتمس لهم أحسن المخارج ، لأن الأولياء دلوا على معرفة اللّه ، والعلماء دلوا على أحكام اللّه ، وبذلك جاءت الرسل من عند اللّه ، فلا يظن بهم نقص ولا خلل ، ولا غلول ولا دخل ، فلهم قسط ونصيب من حرمة الأنبياء ، ولا سيما خواص الأولياء ، ومن يظن بهم نقصا أو خللا ، ويغل قلبه على شيء من ذلك ، فسيرى وباله يوم تفضح السرائر ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، فلحوم الأولياء والعلماء سموم قاتلة ، وظن السوء بهم خيانة حاصلة. واللّه تعالى أعلم.

فاعتقاد الكمال فى الأنبياء والأولياء مستوجب لرضى اللّه ، والانتقاد عليهم موجب لمقت اللّه ، كما أشار إلى ذلك الحق – جلت قدرته – فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٢ الى ١٦٣]

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٦٣)

---

(١) تيعر : تصيح ، واليعار : صوت الشاة.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣١

يقول الحق جل جلاله : (أ فمن اتبع رضوان اللّه) بأن اعتقد فى نبيه الكمال ، وأطاعه فى وصف الجلال والجمال ، وهم المؤمنون ، حيث نزهوا نبيهم من النقائص ، ومن هجس فى قلبه شىء بادر إلى التوبة ، ثم اتصف بكمال الخصائص ، هل يكون كَمَنْ باءَ بغضب مِنَ اللَّهِ؟ وهم المنافقون ، حيث نافقوا الرسول واتهموه – عليه الصلاة والسلام – بالغلول.

أو يقول : أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ بالطاعة والانقياد كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ بالمعاصي وسوء الاعتقاد وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي المنقلب ، والفرق بين المصير والمرجع : أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ، ولا كذلك المرجع. قاله البيضاوي.

هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أي : أهل الرضوان درجات متفاوتة عند اللّه ، على قدر سعيهم فى موجب الرضا ، وأهل السخط درجات أيضا ، على قدر تفاوتهم فى العصيان ، وهو على حذف مضاف ، أي : ذوو درجات ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ فيجازى كلا على قدر سعيه.

الإشارة : (أ فمن اتبع رضوان اللّه) بتعظيم الأولياء والعلماء وأهل النسبة ، كمن باء بسخط من اللّه بإهانة من أمر اللّه أن يعظم ويرفع ، ومأواه حجاب الحس وعذاب البعد ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، فأهل القرب درجات على قدر تقربهم إلى ربهم ، وأهل البعد درجات فى البعد على قدر بعدهم من ربهم ، بشؤم ذنبهم وسوء أدبهم ، واللّه بصير بأعمالهم وما احتوت عليه قلوبهم.

ثم ذكر موجب التعظيم للرسول – عليه الصلاة والسلام – وهو كونه نعمة مهداة ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٤]

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حيث بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أي : من جنسهم ، أو من نسبهم ، عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ، ويفتخروا به على غيرهم. وتخصيص المؤمنين بالمنة ، وإن كانت نعمته عامة لزيادة انتفاعهم على غيرهم لشرفهم وذكرهم به ، حال كونه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ القرآن ، بعد أن كانوا جاهلية لا يعرفون الوحى ولا سمعوا به ، وَيُزَكِّيهِمْ أي : يطهرهم من دنس الذنوب ودرن العيوب ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ أي : القرآن ، وَالْحِكْمَةَ أي : السنة ، وَإِنْ كانُوا أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن كانوا مِنْ قَبْلُ بعثته لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ظاهر بيّن.

*(٤٣١/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٢

الإشارة : لقد منّ اللّه على المتوجهين إليه الطالبين لمعرفته ، حيث بعث لهم من يأخذ بأيديهم ، ويطوى مسافة البعد عنهم ، وهم شيوخ التربية ، يتلون عليهم آياته الدالة على كشف الحجاب وفتح الباب ، ويزكيهم من دنس العيوب المانعة لعلم الغيوب ، ثم يزكيهم من درن الحس إلى مشاهدة القرب والأنس ، ويعلمهم الكتاب المشتمل على عين التحقيق ، والحكمة المشتملة على التشريع وبيان الطريق ، فيجمعون لهم ما بين الحقيقة والشريعة ، وقد كانوا قبل ذلك فى ضلال مبين عن الجمع بينهما. وهذه المنّة عامة فى كل زمان ، إذ لا تخلو الأرض من داع يدعو إلى اللّه ، ومن اعتقد قطعه فقد قطع منة اللّه ، واستعجز قدرة اللّه ، وسد باب الرحمة فى وجه عباد اللّه ، والعياذ باللّه.

ولما استغرب الصحابة – رضى اللّه عنهم – ما وقع بهم يوم أحد ، مع كونهم وعدوا النصر ، نبههم الحق تعالى أن ذلك منهم بشؤم مخالفتهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٥]

أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

قلت : الهمزة – للتفريع ، و(لمّا) : ظرف ، خافضة لشرطها ، منصوبة بجوابها ، وهى معطوفة على محذوف ، أي : أكان ما كان يوم أحد ، ولمّا أصابتكم مصيبة ، قلتم ما قلتم ، و(قد أصبتم) : جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله : أحين أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ يوم أحد بقتل سبعين منكم ، وقَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها يوم بدر فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، قُلْتُمْ أَنَّى هذا أي : من أين أصابنا هذا البلاء وقد وعدنا النصر؟ قُلْ لهم : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أي : مما اقترفته أنفسكم من مخالفة المركز ، والنصر الموعود كان مشروطا بالثبات والطاعة ، فلما اختل الشرط اختل المشروط ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على النصر

بشرط وبغيره ، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والشروط لأن هذا العالم قائم بين قدرة وحكمة.
أو : (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) باختياركم الفداء يوم بدر. روى عن على رضي اللّه عنه قال : (جاء جبريل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوم بدر فقال : خيّر أصحابك فى الأسارى ، إن شاءوا القتل ، وإن شاءوا الفداء ، على أن يقتل منهم عاما مقبلا مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منّا.). واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا أصاب المريد شيء من المصائب والبلايا ، فلا يستغرب وقوع ذلك به ، ولا يتبرم منه ، فإنه فى دار المصائب والفجائع ، «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت فى هذه الدار ، فإنما أبرزت ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها». وإذا كان أصابته مصيبة فى وقت ، فقد أصابته نعم جمة فى أوقات عديدة ، فليشكر اللّه على ما أولاه ، وليصبر على ما ابتلاه ، ليكون صبارا شكورا.

*(٤٣٢/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٣
قال الشيخ أبو الحسن – رضي اللّه عنه – : (العارف هو الذي عرف إساءاته فى إحسان اللّه إليه ، وعرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من اللّه عليه ، فاذكروا آلاء للّه لعلكم تفلحون). وأيضا : كل ما يصيب المؤمن فمن كسب يده ، ويعفو عن كثير.
وإن كان المريد وعد بالحفظ والنصر ، فقد يكون ذلك بشروط خفيت عليه ، فلم تتحقق فيه ، فيخلف حفظه لينفذ قدر اللّه فيه ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.
وليتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٦ الى ١٦٨]
وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨)
قلت : (و قيل لهم تعالوا) : استئناف ، أو معطوف على (نافقوا) ، و(الذين قالوا لإخوانهم) : بدل من الضمير المجرور فى (لهم) ، أي : وقيل للمنافقين : قاتلوا أو ادفعوا ، ثم فسرهم بقوله : وهم (الذين قالوا لإخوانهم ...) إلخ. أو من الواو فى (يكتمون) ، أو منصوب على الذم ، أو مبتدأ ، والخبر : (قل ..) على من يجيز إنشاء الخبر ، و(قعدوا) :
جملة حالية ، على إضمار قد.
يقول الحق جل جلاله : وَما أَصابَكُمْ يا معشر المسلمين يوم أحد يَوْمَ الْتَقَى جمع المسلمين وجمع

الكفار ، من القتل والجرح والهزيمة ، فَبِإِذْنِ اللَّهِ وقضائه ، لا راد لإمضائه ، وَلِيَعْلَمَ علم ظهور فى عالم الشهادة الْمُؤْمِنِينَ والمنافقين فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ، وقد ظهر نفاقهم حيث رجعوا مع عبد اللّه بن أبى ، وكانوا ثلاثمائة.

وذلك أنّ ابن أبي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين ، فلما طلب الخروج قوم من المسلمين ، فخرج – عليه الصلاة والسلام – كما تقدم ، غضب ابن أبي ، وقال : أطاعهم وعصانى. فرجع ، ورجع معه أصحابه ، فتبعهم

(٤٣٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٤

أبو جابر عبد اللّه بن عمرو بن حرام ، وقال لهم : ارجعوا (قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا) ، أي : كثروا سواد المسلمين ، فقال ابن أبيّ – رأس المنافقين – : ما أرى أن يكون قتالا ، ولو علمنا أن يكون قتال (لاتبعناكم) ، وكنا معكم.

قال تعالى : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ لظهور الكفر عليهم من كلامهم ، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان ، أو : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأن رجوعهم ومقالتهم تقوية للكفار عليهم وتخذيل للمسلمين ، يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ منكم بِما يَكْتُمُونَ من النفاق لأنه يعلمه مفصلا بعلم واجب ، وأنتم تعلمونه مجملا بأمارات.

وهؤلاء المنافقون هم (الذين قالوا) فى شأن إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد : لَوْ أَطاعُونا وجلسوا فى ديارهم ما قُتِلُوا ، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج ، قُلْ لهم يا محمد : فَادْرَؤُا أي : فادفعوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه ، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم ، فإنه أحرى بكم ، فالقعود لا ينجى من الموت إذا وصل الأجل ، فإن أسباب الموت كثيرة ، فقد يكون القعود سببا للموت إن بلغ الأجل ، وقد يكون الخروج سببا للنجاة إن لم يبلغ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق ، حين استشرفتم على الجمع وجمع الجمع فبإذن اللّه فإن الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، وليظهر الصادق من الكاذب ، فإن محبة اللّه مقرونة بالبلاء ، والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره ، مشروطة بقتل النفوس وحط الرؤوس ، ودفع العلائق ، والفرار من العوائق.

فإذا قيل للعوام : قاتلوا أنفسكم فى سبيل اللّه لتدخلوا حضرة اللّه ، أو ادفعوا عن أنفسكم العلائق

لتشرق عليكم أنوار الحقائق ، قالوا : قد انقطع هذا الطريق واندرست أرباب علم التحقيق ، ولو نعلم قتالا بقي يوصلنا إلى ربنا ، كما زعمتم لاتبعناكم ودخلنا فى طريقكم. هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان ، حيث تحكموا على القدرة الأزلية ، وسدوا باب الرحمة الإلهية ، وإنما يقولون ذلك احتجاجا لنفوسهم ، وإبقاء على حظوظهم ، وليس ذلك من خالص قلوبهم ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية ، قالوا لإخوانهم ، الذين دخلوا فى طريق القوم ، وقد قعدوا هم مع العوام : لو أطاعونا ولم يدخلوا فى هذا الشأن ، ما قتلوا أو عذبوا ، فقل لهم أيها الفقير : القضاء والقدر يجرى على الجميع ، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون ، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

*(٤٣٤/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٥

ولمّا قتل الشهداء يوم أحد أكرم اللّه أرواحهم بما يكل عنه اللسان ، فقالوا : يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه ، كى يرغبوا فى الجهاد ، فقال لهم اللّه تعالى : أنا أخبرهم عنكم ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٩ الى ١٧١]

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

قلت : (ألّاخوف عليهم) : بدل من (الذين لم يلحقوا) ، أو مفعول لأجله ، وكرر : (يستبشرون) ليذكر ما تعلق به من الفضل والنعمة ، أو : الأول بحال إخوانهم ، وهذا بحال أنفسهم.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَحْسَبَنَّ أيها الرسول ، أو أيها السامع ، الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ هم أَحْياءٌ لأن اللّه تعالى جعل أرواحهم فى حواصل طير خضر ، يسرحون فى الجنة حيث شاءوا عند ربهم ، بالكرامة والزلفى ، يرزقون من ثمار الجنة ونعيمها ، فحالهم حال الأحياء فى التمتع بأرزاق الجنة ، بخلاف سائر الأموات من المؤمنين فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حتى يدخلوا الجنة. قاله ابن جزى.

قلت : شهداء الملكوت – وهم العارفون – أعظم قدرا من شهداء السيوف ، وراجع ما تقدم فى سورة البقرة «١».

فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من الكرامة والزلفى والنعيم الذي لا يفنى ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أي : بإخوانهم الذي لم يقتلوا فيلحقوا بهم من بعدهم. وتلك البشارة هى : أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أو من أجل أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

والحاصل : أنهم يستبشرون بما تبين لهم من الكرامة فى الآخرة ، وبحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا ، كانوا أحياء ، حياة لا يدركها خوف وقوع محذور ، ولا حزن فوات محبوب. فالآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف على وجود البدن إدراكه وتألمه والتذاذه. ويؤيد ذلك قوله تعالى فى آل فرعون : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وما روى ابن عباس من أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنّة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلّقة فى ظلّ العرش» – قال معناه البيضاوي.

---

(١) عند إشارة الآية : ١٥٤ وما بعدها.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٦

ولمّا ذكر استبشارهم بإخوانهم ذكر استبشارهم بما يخصهم فقال : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهو ثواب أعمالهم الجسماني ، وَفَضْلٍ وهو نعيم أرواحهم الروحاني ، وهو النظر إلى وجهه الكريم ، ويستبشرون أيضا بكونه تعالى لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ماتوا فى الجهاد أو على فرشهم ، حيث حسنت سريرتهم وكرمت علانيتهم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن للّه عبادا يصرفهم عن القتل والزلازل والأسقام ، يطيل أعمارهم فى حسن العمل ، ويحسن أرزاقهم ، ويحييهم فى عافية ، ويميتهم فى عافية على الفرش ، ويعطيهم منازل الشهداء» «١». قلت : ولعلهم العارفون باللّه ، جعلنا اللّه من خواصهم ، وسلك بنا مسالكهم. آمين.

الإشارة : لا تحسبن الذين بذلوا مهجهم ، وقتلوا أنفسهم بخرق عوائدها ، وعكس مراداتها ، فى طلب معرفة اللّه ، حتى ماتت نفوسهم ، وحييت أرواحهم بشهود محبوبهم ، حياة لا موت بعدها ، فلا تظن أيها السامع أنهم أموات ، ولو ماتوا حسا ، بل هم أحياء على الدوام ، وفى ذلك يقول الشاعر :

موت التّقيّ حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم فى النّاس أحياء

فهم عند ربهم يشاهدونه مدة بقائهم ، يرزقون من ثمار المعارف وفواكه العلوم ، فرحين بما أتحفهم اللّه به من القرب والسر المكتوم ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم فى المرتبة ممن تعلق بهم ، وأنهم سيصلون إلى ما وصلوا إليه من معرفة الحي القيوم ، فلا يلحقهم حينئذ خوف ولا حزن ولا هم ولا غم ، لما سكن فى قلبهم من خمرة محبة الحبيب ، والقرب من القريب المجيب ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح ، وارتحل الهمّ

يستبشرون بنعمة أدب العبودية ، وفضل شهود أسرار عظمة الربوبية ، وأن اللّه لا يضيع أجر المؤمنين المحبين لطريق المخصوصين ، فإن طريق محبة طريق القوم عناية ، والتصديق بها ولاية ، وباللّه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما رجع أبو سفيان من غزوة أحد ، هو وأصحابه ، حتى بلغوا الروحاء ، ندم وهم بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فندب أصحابه للخروج فى طلبه ، وقال : «لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس» ، فخرج صلّى اللّه عليه وسلم فى سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الأسد – وهى على ثمانية أميال من المدينة – وكان بأصحابه القرح ، فتحاملوا على أنفسهم كى لا يفوتهم الأجر ، وألقى اللّه الرعب فى قلوب المشركين ، فذهبوا ، فأنزل اللّه – تعالى – فى شأن من خرج مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٢]

الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

---

(١) عزاه الهيثمي فى مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣ للطبرانى عن ابن مسعود مرفوعا. وفيه : جعفر بن محمود الواسطي الوراق ، قال الهيثمي : لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٧

قلت : (الذين) : مبتدأ ، وجملة (للذين أحسنوا) : خبر ، أو صفة للمؤمنين قبله ، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فأطاعوه فيما ندبهم إليه من اللحوق بالمشركين ، إرهابا لهم ، مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ أي : الجرح ، فتحاملوا على أنفسهم حتى ذهبوا مع نبيهم ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ بأن فعلوا ما أمروا به ، وَاتَّقَوْا اللّه فى مخالفة أمر رسوله ، أَجْرٌ عَظِيمٌ يوم يقدمون عليه.

الإشارة : الذين استجابوا للّه فيما ندبهم من الوصول إلى حضرته ، وللرسول فيما طلبهم به من اتباع سنته ، فجعلوا قلوبهم محلا لحضرته ، وجوارحهم متبعة لشريعته ، من بعد ما أصابهم فى طلب الوصول إلى ذلك قرح وضرب وسجن وإهانة ، فصبروا حتى ظفروا بالجمع بين الحقيقة والشريعة ، للذين أحسنوا منهم بالثبات على السير إلى الوصول إلى الحق ، واتقوا كل ما يردهم إلى شهود الفرق ، أجر

عظيم وخير جسيم ، بالعكوف فى الحضرة ، والتنعم بالشهود والنظرة.

ثم قال الحق تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٧٣ الى ١٧٥]

الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

قلت : الموصول بدل من الموصول قبله ، و(يخوف) : يتعدى إلى مفعولين للتضعيف ، حذف الأول ، أي :

يخوفكم أولياءه من الكفار ، أو حذف الثاني ، أي : يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج إلى ملاقاة العدو.

وهنا تفسيران : أحدهما : أن يكون من تتمة غزوة أحد ، وهو الظاهر ، ليتصل الكلام بما بعده ، وذلك أن أبا سفيان لما همّ بالرجعة ليستأصل المسلمين ، لقيه معبد الخزاعي ، فقال له : إن محمدا خرج يطلبك فى جمع لم أر مثله ، فدخله الرعب ، فلقيه ركب من عبد القيس يريد المدينة بالميرة ، فقال لهم : ثبطوا محمدا عن لحوقنا ، ولكم حمل بعير من الزبيب ، فلما لقوا المسلمين خوفوهم ، فقالوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، ومضوا حتى بلغوا حمراء الأسد ثم رجعوا ، فعلى هذا :

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين : إِنَّ النَّاسَ يعنى أبا سفيان ومن معه ، قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ليرجعوا ليستأصلوكم فَاخْشَوْهُمْ وارجعوا إلى دياركم

*(٤٣٧/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٣٨

فَزادَهُمْ ذلك إِيماناً ويقينا وتثبيتا فى الدين ، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بحسب التوجه إلى اللّه والتفرغ مما سواه ، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها ، ويزيد أيضا بالطاعة والنظر والاعتبار ، وينقص بالمعصية والغفلة والاغترار.

ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم ، قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ أي : كافينا اللّه وحده ، فلا نخاف غيره ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ أي : نعم من يتوكل عليه العبد ، وهى كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره ، وهى الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، فَانْقَلَبُوا راجعين من حمراء الأسد ، متلبسين بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وهى العافية والسلامة ، وَفَضْلٍ وهى زيادة الإيمان وشدة الإيقان ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ من جراحة وكيد عدو ، وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فقد تفضل عليهم بالتثبيت

وزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلم الذي هو موجب الرضوان.

ثم حذّرهم الحق تعالى ممن ثبّطهم عن اللحوق بالكفار ، وهو ركب عبد القيس ، تشبيها لهم بالشيطان ، فقال :

إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يخوفكم أولياءه من المشركين ، أو يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ القاعدين من المنافقين ، فَلا تَخافُوهُمْ فإن أمرهم بيدي ، وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف اللّه على خوف الناس.

التفسير الثاني : أن يكون الكلام على غزوة بدر الصغرى : وذلك أن أبا سفيان لما انصرف من أحد نادى :

يا محمد ، موعدنا بدر لقابل ، إن شئت ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن شاء اللّه تعالى» ، فلما كان العام القابل ، خرج أبو سفيان فى أهل مكة ، حتى نزل مرّ الظهران ، فأنزل اللّه الرعب فى قلبه ، وبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى معتمرا ، فقال له : ائت المدينة وأعلمهم أنّا فى جمع كثير ، وثبطهم عن الخروج ، ولك عندى عشر من الإبل ، فأتى المدينة فأخبرهم ، فكره أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم الخروج ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «والذي نفسى بيده لأخرجنّ ، ولو وحدي».

فرجع الجبان وتأهب الشجعان ، فخرجوا حتى أتوا بدرا الصغرى ، ورجع أبو سفيان إلى مكة ، فسموا جيش السويق ، ووافق المسلمون السوق ببدر ، وكانت معهم تجارات ، فباعوا وربحوا ، وانصرف النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى المدينة «١».

فعلى هذا ، يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، يعنى : فى غزوة بدر الصغرى ، لميعاد أبى سفيان ، مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ يعنى : فى غزوة أحد فى العام الأول ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ بالخروج مع الرسول ، وَاتَّقَوْا اللّه فى مخالفته ، أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ يعنى نعيم بن مسعود ، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم ، كما يقال : فلان يركب الخيل ، وما يركب إلا فرسا. أو : لأنه انضم إليه

---

(١) نزول الآية فى قصة حمراء الأسد هو ما عليه جمهور المفسرين ، انظر : الطبري والمحرر الوجيز.

ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ يعنى : أبا سفيان وأهل مكة لما خرج إلى مرّ الظهران. وقوله : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ أي : عافية وسلامة ، وَفَضْلٍ ما أصابوا من التجارة ، وقوله : إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يعنى : نعيما يخوفكم أَوْلِياءَهُ والباقي ظاهر.

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم ، زادهم ذلك إيمانا وإيقانا ، وتحققوا أنهم على الجادة ، لسلوكهم على منهاج من قبلهم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا الآية ، واكتفوا بعلم اللّه ونظره وبرعايته ونصره ، فانقلبوا بنعمة الشهود ، وفضل الترقي فى عظمة الملك الودود ، لم يمسسهم فى باطنهم سوء ولا نقصان ، واستوجبوا من اللّه الرضى والرضوان ، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان ، فلا ينبغى لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان ، الذي تبذل فى طلبه الأرواح والأبدان. وباللّه التوفيق.

ثم هوّن شأن الكفار ، وأمّن المسلمين من ضررهم ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٧٦ الى ١٧٧]

وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

قلت : حزن يحزن كبلغ يبلغ ، وأحزن يحزن ، كأكرم يكرم ، لغتان ، والأولى أفصح.

يقول الحق جل جلاله : ولا يهولك شأن الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أي : يبادرون إلى الوقوع فيه ، كالمنافقين أو الكفار جميعا ، فلا تخف ضررهم إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً أي : لن يضروا أولياء الله ، وإنما يرجع ضررهم إلى أنفسهم. يُرِيدُ اللَّهُ – بسبب ما أظهر فيهم من المسارعة إلى الكفر – أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ثواب الْآخِرَةِ لمّا سبق لهم من الشقاء ، حتى يموتوا على الكفر. وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية ، حتى أراد أرحم الراحمين ألّا يكون لهم حظ من رحمته. وَلَهُمْ مع ذلك عَذابٌ عَظِيمٌ.

ثم كرر شأنهم تأكيدا فقال : إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ أي : استبدلوا الإيمان الذي ينجيهم من العذاب ، لو دخلوا فيه ، بالكفر الذي يوجب العذاب ، لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع ، أو يكون فى الكفار أصالة ، وهذا فى المرتدين ، واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٠

الإشارة : إنكار العوام على الخصوص لا يضرهم ، ولا يغض من مرتبتهم ، بل يزيدهم رفعة وعلوا وعزا وقربا ، قال تعالى : لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وسمعت شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه يقول :

«كلام الناس فى الولي كناموسة نفخت على جبل». أي : لا يلحقهم من ذلك إلا ما يلحق الجبل من نفخ الناموسة ، يريد اللّه ألا يجعل لهم من نصيب القرب شيئا ، ولهم عذاب البعد والنصب ، فى غم الحجاب وسوء الحساب ، لا سيما من تمكن من معرفتهم ، ثم استبدل صحبتهم بصحبة العوام ، فلا تسأل عن حرمانه التام ، والعياذ باللّه.

ثم لا يدل إمهال الكافرين وتمتعهم بطول الحياة على إرادة الخير لهم ، بل إنما ذلك استدراج وزيادة فى الإثم ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٨]

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٧٨)

قلت : من قرأ بالتحتية ، فالذين كفروا : فاعل ، و(أن) وما بعدها : سد مسد المفعولين ، ومن قرأ بالفوقية فالذين : مفعول أول ، و(إنما) : سد مسد الثاني ، و(ما) : مصدرية ، والإملال : الإمهال والتأخير. ومنه : وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا أي : حينا طويلا.

يقول الحق جل جلاله : ولا يظنن الذين كفروا أن إمهالى لهم وإمدادهم بطول الحياة ، هو خير لهم ، إنما نمهلهم استدراجا لِيَزْدادُوا إثما وعقوبة ، وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ يهينهم ، ويخزيهم يوم يعز المؤمنين.

الإشارة : إمهال العبد وإطالة عمره ، إن كانت أيامه مصروفة فى الطاعة واليقظة ، وزيادة المعرفة ، فإطالتها خير ، والبركة فى العمر إنما هى بالتوفيق وزيادة المعرفة ، وفى الحكم : «من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمان مالا تدركه العبارة ولا تلحقه الإشارة». وإن كانت أيام العمر مصروفة فى الغفلة والبطالة وزيادة المعصية ، فالموت خير منها. وقد سئل – عليه الصلاة والسلام – أىّ الناس خير؟ قال : «من طال عمره وحسن عمله ، قيل فأىّ النّاس شر؟ قال : من طال عمره وساء عمله». واللّه تعالى أعلم.

*(١/٤٤٠)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤١

ولمّا قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ اللّه أطلعنى على من يؤمن بي ممن يكفر». قال المنافقون : نحن

معه ولا يعرفنا ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٩]

ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

قلت : ماز يميز ، وميّز يميّز ، بمعنى واحد ، لكن فى ميّز معنى التكثير.

يقول الحق جل جلاله لعامة المؤمنين والمنافقين : ما كانَ اللَّهُ ليترك الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ من الاختلاط ، ولا يعرف مخلصكم من منافقكم ، بل لا بد أن يختبركم حتى يتميز المنافق من المخلص ، بالوحى أو بالتكاليف الشاقة ، التي لا يصبر عليها إلا المخلصون ، كبذل الأموال والأنفس فى سبيل اللّه ، ليختبر به بواطنكم ، ويستدل به على عقائدكم ، أو بما ظهر فى غزوة أحد من الأقوال والأفعال التي تدل على الإيمان أو النفاق ، وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ حتى تعرفوا ما فى القلوب من كفر أو إيمان ، أو تعرفوا : هل تغلبون أو تغلبون. وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي لرسالته مَنْ يَشاءُ ، فيوحى إليه ويخبره ببعض المغيبات ، أو ينصب له ما يدل عليها ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ الذي اختص بعلم الغيب الحقيقي ، وآمنوا برسله الذين اختارهم لأسرار الغيوب ، لا يعلمون إلا ما علّمهم.

روى أن الكفرة قالوا : إن كان محمد صادقا فليخبرنا : من يؤمن منا ومن يكفر؟ فنزلت الآية. وقيل : سببها ما تقدم من قول المنافقين ، ووجه المناسبة : هو ما صدر منهم يوم أحد من المقالات التي ميزتهم من المؤمنين.

وَإِنْ تُؤْمِنُوا إيمانا حقيقيا وَتَتَّقُوا النفاق والشرك فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عند اللّه.

الإشارة : من سنة اللّه فى المتوجهين إليه إذا كثروا ، وظهرت فيهم دعوى القوة ، أرسل اللّه عليهم ريح التصفية ، فيثبت الصحيح ، والخاوي تذروه الريح ، وما كان اللّه ليذرهم على ما هم عليه من غير اختبار ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، أي : من همّته اللّه ومن همّته سواه ، وما كان اللّه ليطلعكم على الغيب حتى يعلموا من يثبت ممن يرجع ، أو يعلموا ما يلحقهم من الجلال والجمال ، وإنما ذلك خاص بالرسل عليهم السلام ، وقد يطلع على شيء من ذلك بعض خواص ورثتهم الكرام ، فالواجب على المريد أن يؤمن بالقدر المغيب ، ولا يستشرف على الاطلاع عليه «استشرافك على ما بطن فيك من العيوب ، خير من استشرافك على ما حجب عنك من الغيوب». (و إن تؤمنوا) بمواقع القضاء والقدر ، (و تتقوا) القنوط والكدر ، (فلكم أجر عظيم).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٢

ولمّا كان البخل هو معيار المخلصين من المخلطين ، ذكره بإثر تمييز المؤمنين من المنافقين ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٠]

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

قلت : من قرأ بالخطاب فالموصول مفعول أول ، و(خيرا) : مفعول ثان ، والضمير للفصل ، والخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا بد من حذف مضاف ، أي : لا تحسبن بخل الذين يبخلون خيرا لهم ، ومن قرأ بالغيب ف – (الذين) :

فاعل ، والمفعول الأول محذوف ، لدلالة (يبخلون) عليه ، لا يحسبن البخلاء بخلهم خيرا لهم ، والطوق : ما يدار بالعنق.

يقول الحق جل جلاله : ولا يظنن الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من الأموال ، فلم يؤدوا زكاتها ، أن بخلهم خير لهم ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ لاستجلابه العذاب إليهم ، ثم بيّنه بقوله : سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ أي : يلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق ، وقيل : يطوق به حقيقة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

«ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا إذا كان يوم القيامة – مثّل له شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، يطّوقه ، ثم يأخذ بلهزمتيه – أي : شدقيه – يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : وَلا يَحْسَبَنَّ ...».

وقيل : يجعل يوم القيامة فى أعناقهم طوقا من نار.

والمال الذي بخل به هو للّه ، وسيرجع للّه ، وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فهو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فكيف يبخل العبد بمال اللّه ، وهو يعلم أنه يرجع للّه ، فيموت ويتركه لمن يسعد به! وللّه در القائل ، حيث قال :

يا جامع المال كم تضرّ به تطمع باللّه فى الخلود معه

هل حمل المال ميّت معه؟ أما تراه لغيره جمعه؟!

وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه منعكم ولا إعطاؤكم ، فيجازى كلّا بعمله.

الإشارة : لا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم اللّه من فضل الرئاسة والجاه ، أن يبذلوها فى طلب معرفة اللّه ، وبذلها : إسقاطها وإبدالها بالخمول ، والذل للّه ، وإسقاط المنزلة بين عباد اللّه ، فلا يظنون أن بخلهم بذلك خير لهم ، بل هو شر لهم ، سيلزمون وبال ما بخلوا به يوم القيامة ، حين يرون منازل المقربين كالشمس الضاحية فى أعلى عليين ، وهم مع عوام أهل اليمين ، محجوبون عن شهود رب العالمين ، إلا فى وقت مخصوص وحين.

فمن بخل بماله حشر مع الفجار ، ومن بخل بنفسه وجاهه ، وبذل ماله ، حشر مع الأبرار ، ومن بذلهما معا حشر مع المصطفين الأخيار ، ومنتهى الملك للّه الواحد القهار ، وهو الغنى بالإطلاق. فمن وصفه بضد ذلك كان من أهل البعاد والشقاق. وإلى ذلك أشار بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨١ الى ١٨٣]

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٨٣)

قلت : (و قتلهم) : معطوف على (ما) المفعولة أو النائبة عن الفاعل ، على القرائتين رفعا ونصبا ، و(أن اللّه) :

عطف على (ما) أي : ذلك العذاب بسبب ما قدمتم وبأن اللّه منتف عنه الظلم ، فلا بد أن يعاقب المسيئ ويثيب المحسن ، (الذين قالوا إن اللّه عهد إلينا) : صفة للذين (قالوا إن اللّه فقير) ، أو بدل منه مجرور مثله.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ اليهود الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ وقائله : فنحاص بن عازوراء ، فى جماعة منهم ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كتب مع أبى بكر إلى يهود بنى قينقاع ، يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا اللّه قرضا حسنا ، فدخل أبو بكر رضي اللّه عنه مدراسهم «١» ، فوجد خلقا كثيرا اجتمعوا إلى فنحاس ، وهو من علمائهم – ومعه حبر آخر اسمه : (أيشع) ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق اللّه وأسلم ، فو اللّه إنك لتعلم أن محمدا رسول اللّه ، قد جاءكم بالحق من عند اللّه ، فأسلم وصدّق ، وأقرض اللّه قرضا حسنا يدخلك الجنة ، فقال فنحاص لعنه اللّه : يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، ولو كان غنيا ما استقرض ، فلطمه أبو بكر رضي اللّه عنه وقال : لو لا ما بيننا من العهد لضربت عنقك ، فشكاه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال له : عليه الصلاة والسلام : – «ما حملك على ما فعلت؟» فقال :

يا رسول اللّه ، إن عدو اللّه قال قولا عظيما ، زعم أن اللّه فقير ، وهم أغنياء ، فجحد ما قال ، فنزلت الآية تكذيبا له.

---

(١) راجع معنى المدراس فى التعليق على تفسير الآية/ ١٠٩ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٤

والمعنى : أن اللّه سمع مقالتهم الشنيعة ، وأنه سيعاقبهم عليها ، ولذلك قال : سَنَكْتُبُ ما قالُوا أي : سنسطرها عليهم فى صحائف أعمالهم ، أو سنحفظها فى علمنا ولا نهملها ، لأنها كلمة عظيمة ، فيها الكفر باللّه والاستهزاء بكتاب اللّه وتكذيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولذلك نظمت مع قتلهم الأنبياء ، حيث عطفه عليه ، وفيه تنبيه على أن قولهم الشنيع ليس هو أول جريمة ارتكبوها ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد أمثال هذا القول منه.

ثم ذكر عقابهم ، فقال : وَنَقُولُ لهم يوم القيامة : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أي : المحرق ، والذوق : يطلق على إدراك المحسوسات كالمطعومات ، والمعنويات كما هنا ، وذكره هنا لأن عذابهم مرتب على قولهم الناشئ عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان إليه ، لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله للخوف من فقده.

ذلِكَ العذاب بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ من قتل الأنبياء ، وقولكم هذا ، وسائر معاصيكم ، وعبّر بالأيدى لأن غالب الأعمال بهن ، وبأن اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ بل يجازى كلّ عبد بما كسب من خير أو شر ، فأنتم ظلمتم أنفسكم.

ثم إن قوما منهم ، وهو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيى بن أخطب وفنحاص ووهب بن يهوذا ، أتوا النبىّ صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أن اللّه بعثك إلينا رسولا ، وإن اللّه قد عهد إلينا فى التوراة ، ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه نبى حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك ، فأنزل اللّه فيهم تكذيبا لهم : الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا فى التوراة وأوصانا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ كصدقة أو نسيكة ، تَأْكُلُهُ النَّارُ كما كانت لأنبياء بنى إسرائيل.

وذلك أن القرابين والغنائم كانت حراما على بنى إسرائيل ، وكانوا إذا قرّبوا قربانا ، أو غنموا غنيمة ، فتقبل منهم ، ولم يغل من الغنيمة ، نزلت نار بيضاء من السماء ، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة ، فيكون ذلك علامة على القبول ، وإذا لم يتقبل بقي على حاله ، وهذا من تعنتهم وأباطيلهم ، لأن أكل القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، وسائر المعجزات فى ذلك سواء ، فلذلك ردّ عليهم بقوله : قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ أي :

المعجزات الواضحات ، وَبِالَّذِي قُلْتُمْ من أكل النار القربان ، فكذبتموهم وقتلتموهم كزكريا ويحيى وغيرهما ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أنه ما منعكم من الإيمان إلا عدم ظهور هذه المعجزة ، فما لكم لم تؤمنوا بمن جاء بها حتى قتلتموه؟ واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما زالت خواص العامة مولعة بالإنكار على خواص الخاصة ، يسترقون السمع منهم ، إذا

سمعوا كلمة لم يبلغها علمهم ، وفيها ما يوجب النقص من مرتبتهم ، حفظوها ، وحرفوها ، وأذاعوها ، يريدون بذلك إطفاء نورهم ،

(٤٤٤/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٥

وإظهار عوراهم ، واللّه حفيظ عليهم ، سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه ، ويقول لهم : ذوقوا عذاب البعد والحجاب. ومما يتشبثون به فى الإنكار عليهم : اقتراحهم الكرامات التي كانت للأولياء قبلهم ، ويقولون :

لانصدق بهم حتى يأتوا بما أتى به فلان وفلان ، فقد كان من قبلهم يطعنون فيهم مع ظهور ذلك عليهم ، كما هو سنة اللّه فيهم. (و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم سلّى الحقّ نبيه – عليه الصلاة والسلام – بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٤]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

قلت : (الزبر) : جمع زبور ، بمعنى مزبور ، أي : مكتوب ، من زبرت ، أي : كتبت ، وكل كتاب فهو زبور ، وقال امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخطّ زبور فى عسيب يمان

يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية رسوله – عليه الصلاة والسلام – من تكذيب اليهود وغيرهم له : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فليس ذلك ببدع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مثلك مِنْ قَبْلِكَ جاءوا قومهم بالمعجزات البينات ، وبالكتب المنزلات ، فيها مواعظ زاجرات ، وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ المشتمل على الأحكام الشرعيات.

الإشارة : كما كذبت الأنبياء كذبت الأولياء ، بعد أن ظهر عليهم من العلوم الباهرة والحكم الظاهرة والكرامات الواضحة ، وأعظمها المعرفة ، وهذه سنة ماضية ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا.

وعند اللّه تجتمع الخصوم فيظهر المحق من المبطل ، وتوفى كل نفس ما أسلفت ، وتعلم علم يقين ما أظهرت وأضمرت ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٥]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

قلت : (زحزح) : بوعد ، والزحزحة : الجذب والإخراج بعجلة.

يقول الحق جل جلاله : كل نفس منفوسة لا بد أن تذوق حرارة الموت ، وتسقى كأس المنون ، وإنما توفون جزاء أعمالكم يوم القيامة ، يوم قيامكم من القبور ، خيرا كان أو شرا.

(٤٤٥/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٦

قال البيضاوي : ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ، أي : توفية بعض الأجور ، ويؤيده قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار» ، فَمَنْ زُحْزِحَ أي : بوعد عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ بالنجاة ونيل المراد ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيّته وهو يؤمن باللّه واليوم الآخر ، ويأتى إلى الناس ما يحبّ أن يؤتى إليه».

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا وزخارفها ولذاتها إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ فإن الغار – وهو المدلّس – يظهر ما هو حسن من متاعه ، ويخفى ما هو معيب ، كذلك الدنيا تبتهج لطالبها ، وتظهر له حلاوتها وشهواتها ، حتى تشغله عن ذكر اللّه وعن طاعته ، فيؤثرها على آخرته ، ثم يتركها أحوج ما يكون إليها ، فينقلب نادما متحسرا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف للعسر عن قريب يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

الإشارة : النفس ، من حيث هى ، كلها تقبل الموت لمن قتلها وجاهدها ، وإنما وقع التفريط من أربابها ، فمن زحزها عن نار الشهوات ، وقتلها بسيوف المخالفات ، حتى أدخلها جنات الحضرات ، فقد فاز فوزا عظيما ، وربح ربحا كريما. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالصبر على فقد الأموال والإخوان ، وعلى أذى اليهود والمشركين ، فقال تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٦]

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

قلت : أصل (تبلونّ) : تبلوون كتنصرون ، ثم قلبت الواو ألفا ، ثم حذفت لالتقاء الساكنين ، فصار تبلونن ، ثم أكد بالنون ، فاجتمع ثلاث نونات ، حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان الواو ونون التوكيد ، فحركت الواو بالضمة المجانسة ، وهى النائبة عن الفاعل.

يقول الحق جل جلاله : واللّه لَتُبْلَوُنَّ أي : لتختبرن فِي أَمْوالِكُمْ بما يصيبها من الآفات ، وما كلفتم به

من النفقات ، وَأَنْفُسِكُمْ بالقتل والجراحات ، والأسر والأمراض وسائر العاهات. وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(٤٤٦/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٧

الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

اليهود وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا كفار مكة ، أَذىً كَثِيراً كقولهم : إن اللّه فقير ، وهجاء الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، والطعن فى الدين ، وإغراء الكفرة على المسلمين ، أو غير ذلك من الأذى. أعلمهم بذلك قبل وقوعه ، ليتأهبوا للصبر والاحتمال ، حتى لا يروعهم نزولها حين الإنزال. وَإِنْ تَصْبِرُوا على ذلك ، وَتَتَّقُوا اللّه فيما أمركم به ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها ، أو مما عزم اللّه على فعلها ، وأوجبه على عباده. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من دخل فى طريق الخصوص بالصدق والعزم على الوصول ، لا بد أن يبتلى ويختبر فى ماله ونفسه ، ليظهر صدقه فى طلبه ، ولا بد أن يسمع من الناس أذى كثيرا ، فإن صبر ظفر ، وإن رجع خسر ، وهذه سنة اللّه فى عباده : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ ، قال الورتجبي : (لتبلون فى أموالكم) بجمعها ومنعها والتقصير فى حقوق اللّه فيها ، (و أنفسكم) باتباع شهواتها ، وترك رياضتها ، وملازمتها أسباب الدنيا ، وخلوها من النظر فى أمر الميعاد ، وقيل : (لتبلون فى أموالكم) بالاشتغال بها أخذا وإعطاء. هـ.

ثم عاتب الحقّ تعالى اليهود ، ووبّخهم على كتمان الحق وإظهار الباطل ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٧]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (١٨٧)

قلت : الضمير فى (نبذوه) : يعود على الكتاب ، أو الميثاق.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وهم اليهود ، أخذ عليهم العهد ليبينن للناس ما فى كتابهم من صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ولا يكتمونه ، فنبذوا ذلك العهد أو الكتاب وَراءَ ظُهُورِهِمْ فكتموا صفته – عليه الصلاة والسلام – خوفا من زوال رئاستهم ، وَاشْتَرَوْا بذلك العهد ، أي : استبدلوا به ثَمَناً قَلِيلًا من حطام الدنيا ، وما كانوا يأخذونه من سفلتهم ، فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ ، وهى تجر ذيلها على من كتم علما سئل عنه ، قال عليه الصلاة والسلام : «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار». وعن على رضي اللّه عنه :

(ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا). وقال محمد بن كعب : (لا يحل للعالم أن يسكت على علمه ، ولا الجاهل أن يسكت على جهله).

(٤٤٧/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٨

الإشارة : أهل العلم إذا تحققوا بوجود الخصوصية عند ولى ، وكتموا ذلك حسدا وخوفا على زوال رئاستهم ، دخلوا فى وعيد الآية لأنّ العوام تابعون لهم ، فإذا كتموا أو أنكروا تبعوهم على ذلك ، فيحملون أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، واللّه تعالى أعلم.

ولما سأل – عليه الصلاة والسلام – اليهود عن شىء فى التوراة ، وكتموه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أنهم أخبروه عما سألهم ، واستحمدوا إليه ففرحوا ، أنزل اللّه فيهم :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨٨ الى ١٨٩]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

قلت : من قرأ بالخطاب ، فالذين : مفعول أول ، والثاني : محذوف ، أي : بمفازة من العذاب ، أو هو المذكور ، و(تحسبنهم) : تأكيد للفعل الأول ، ومن قرأ بالغيب فالذين : فاعل ، والمفعولان : محذوفان ، دلّ عليهما ذكرهما مع الثاني ، أي : لا يحسبوا أنفسهم فائزة. (فلا تحسبنهم) : من قرأ بفتح التاء فالخطاب للرسول – عليه الصلاة والسلام – ، والفعل مبنى ، ومن قرأ بالياء فالخطاب للذين يفرحون ، والفعل معرب ، أي : لا يحسبوا أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الحق جل جلاله : لا تَحْسَبَنَّ يا محمد الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا أي : بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا من الوفاء بالعهد ، وإظهار الحق ، والإخبار بالصدق ، أنهم فائزون من العذاب ، فلا تظنهم بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ ، بل لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إن شاء عذب وإن شاء رحم ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يعجزه من ذلك شىء ، أو : لا يظن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

وعن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه : (أنها نزلت فى المنافقين ، كانوا إذا خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم «١» تخلّفوا ، وإذا قدم اعتذروا ، فإذا قبل عذرهم فرحوا ، وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا).

وما تقدم فى التوطئة هو عن ابن عباس. وقال

(١) أي : إلى الغزو. [.....]

(٤٤٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٤٩

ابن حجر : ولا مانع من أن تتناول الآية كلّ من أتى بحسنة وفرح بها فرح إعجاب ، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يظن أهل الفرق الذين يسندون الأفعال إلى أنفسهم ، غائبين عن فعل ربهم ، ويحبون أن يحمدهم الناس ويمدحهم بفعل غيرهم ، أنهم فائزون عن عذاب الفرق ، وحجاب العجب ، إذ لا فاعل سوى الحق ، فمن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فإن فرح العبد بالطاعة من حيث ظهورها عليه ، وهى عنوان العناية – ورأى نفسه فيها كالآلة ، معزولا عن فعلها ، محمولا بالقدرة الأزلية فيها ، فلا بأس عليه ، ويزيد بذلك تواضعا وشكرا ، وإن فرح بها من حيث صدورها منه ، ويتبجح بها على عباد اللّه ، فهو عين العجب ، وفى الحكم : «لا تفرحك الطاعة من حيث إنها صدرت منك ، وافرح بها من حيث إنها هدية من اللّه عليك قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا».

ثم استدل على قدرته المفهومة من (القدير) ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٠]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (١٩٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وإظهارهما للعيان ، لدلائل واضحة على وجود الصانع ، وكمال قدرته ، وعلمه ، لذوى العقول الكاملة الصافية ، الخالصة من شوائب الحس والوهم.

قال البيضاوي : ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة فى هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير ، وهذه متعرضة لجملة أنواعه ، فإنه – أي التغير – إما أن يكون فى ذات الشيء ، كتغير الليل والنهار ، أو جزئه ، كتغير الناميات بتبدل صورها ، أو لخارج عنها ، كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

الإشارة : الخلق هو الاختراع والإظهار ، فإظهار هذه التجليات الأربعة يدل على أن الحقّ – تعالى – تجلى لعباده بين الضدين ، بين النور والظلمة ، بين القدرة والحكمة ، بين الحس والمعنى ، وهكذا خلق من كل زوجين اثنين ، ليقع الفرار من اثنينية حسهما إلى فردية معناهما ، ففروا إلى اللّه ، فالسموات والنهار نورانيان ، والأرض والليل ظلمانيان ، ففى ذلك دلالة على وحدة المعاني ، فلا تقف

مع الأوانى ، وخض بحر المعاني ، لعلك ترانى. وباللّه التوفيق.
ثم وصف أولى الألباب الذين يدركون صفاء هذه المعاني ، فقال :

(١/٤٤٩)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٠
[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩١ الى ١٩٤]
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (١٩٢) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (١٩٣) رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (١٩٤)
يقول الحق جل جلاله ، فى وصف أولى الألباب : هم الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ ، أي : يذكرونه على الدوام ، قائمين وقاعدين ومضطجعين ، وعنه – صلّى اللّه عليه وسلم – : «من أراد أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر اللّه». وقيل : يصلون على الهيئات الثلاث ، حسب الطاقة لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين ، وكان مريضا : «صلّ قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك وتومىء إيماء».
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ استدلالا واعتبارا ، وهو أفضل العبادات قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا عبادة كالتفكر» لأنه المخصوص بالقلب ، والمقصود من الخلق ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «بينما رجل مستلق على فراشه فنظر إلى السماء والنجوم ، فقال : أشهد أن لك خالقا ، اللهمّ اغفر لى ، فنظر اللّه إليه فغفر له». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. قاله البيضاوي. وسيأتى مزيد من كلام على التفكر فى الإشارة إن شاء اللّه.
فلما تفكروا فى عجائب المصنوعات ، قالوا : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا أي : عبثا من غير حكمة ، بل خلقته لحكمة بديعة ، من جملتها : أن يكون مبدأ لوجود الإنسان ، وسببا لمعاشه ، ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك ، لينال الحياة الأبدية ، والسعادة السرمدية فى جوارك ، سُبْحانَكَ تنزيها لك من العبث وخلق الباطل ، فَقِنا عَذابَ النَّارِ التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار ، وأخل بما يقتضيه من أحكام الواحد القهار ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ يمنعونهم من دخول النار. ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار ، وانقطاع النصرة عنهم فى دار البوار.
رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ ، وهو الرسول العظيم الشأن ، أو القرآن قائلا : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ

ووحدوه ، فأجبنا نداءه وآمنا ، رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا الكبائر ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا الصغائر ، وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ المصطفين الأخيار ، مخصوصين بصحبتهم ، معدودين فى زمرتهم ، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء اللّه فأحب اللّه لقاءهم. رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى تصديق رُسُلِكَ من الثواب ، أو على ألسنة



---



رسلك من الفضل والرحمة وحسن المآب ، سألوا ما وعدوا على الامتثال ، لا خوفا من إخلاف الوعد ، بل مخافة ألّا يكونوا موعودين لسوء عاقبة ، أو قصور فى الامتثال ، أو تعبدا ، أو استكانة. قاله البيضاوي.

وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : لا تهنّا بسبب تقصيرنا ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي ، أو ميعاد البعث والحساب ، وتكرير رَبَّنا للمبالغة فى الابتهال ، والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها ، ففى بعض الآثار : (من حزبه أمر فقال خمس مرات : «ربنا» ، أنجاه اللّه مما يخاف). «١» قاله البيضاوي.

الإشارة : قدّم الحق الذكر على الفكر على ترتيب السير ، فإن المريد يؤمر أول أمره بذكر اللسان ، حتى يفضى إلى الجنان ، فينتقل الذكر إلى القلب ، ثم إلى الروح ، وهو الفكر ، ثم إلى السر ، وهو الشهود والعيان ، وهنا يخرس اللسان ، ويغيب الإنسان فى أنوار العيان ، وفى ذلك يقول القائل :

ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى وروحى وقلبى عند ذكراك

حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك : ويحك والتّذكار! إيّاك!

أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده وواصل الكلّ من معناه معناك

فإذا بلغ العبد هذا المقام – الذي هو مقام الإفراد – اتحدت عنده الأوراد ، وصار وردا واحدا ، وهو عكوف القلب فى الحضرة بين فكرة ونظرة ، أو إفراد القلب باللّه ، وتغيبه عما سواه.

قال فى الإحياء فى كتاب الأوراد : الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد ، الذي أصبح وهمومه هم واحد ، فلا يحب إلا اللّه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يتوقع الرزق من غيره ، ولا ينظر فى شيء إلا يرى اللّه فيه ، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة ، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها ، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد ، وهو حضور القلب مع اللّه فى كل حال ، فلا يخطر بقلبه أمر ، ولا يقرع سمعه قارع ، ولا يلوح لنظره لائح ، إلّا كان له فيه عبرة وفكرة ومزيد ، فلا محرك ولا مسكن إلا اللّه. فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم ، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة ، وهم الذين فروا إلى اللّه كما قال تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، وتحقق فيهم قوله :

إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي ، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين ، ولا ينبغى أن يغتر المريد بما يسمعه من ذلك ، فيدعيه لنفسه ، ويفتر عن وظائف عباداته ، فذلك علامته ألا يحس فى قلبه وسواسا ، ولا يخطر بقلبه معصية ، لا يزعجه هواجم الأحوال ، ولا يستفزه عظائم الأشغال ، وأنى تكون هذه المرتبة!. هـ.

---

(١) حكى القرآن عن أولى الألباب فى هذه الآيات – أنهم قالوا : (ربنا) خمس مرات. وعن الأثر الذي ذكره المصنف – قال المناوى فى الفتح السماوي : لم أقف عليه.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٢

قلت : قوله : [لا يخطر بقلبه معصية] غير لازم لأن قلب العارف مرسى للتجليات النورانية والظلمانية ، لكنها تقل ولا تسكن.

وقال فى موضع آخر : وأما عبادة ذوى الألباب فلا تجاوز ذكر اللّه تعالى والفكر فيه حبا لجلاله وجماله ، وسائر الأعمال تكون مؤكدات. قال : والعامل لأجر الجنة درجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله. هـ. وقال فى كتاب كيمياء السعادة : وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء ، حتى قال بعض مشايخ الصوفية : من رآنى فى الابتداء ، قال : صار صديقا ، ومن رآنى فى الانتهاء ، قال : صار زنديقا ، يعنى أن الابتداء يقتضى المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات ، وفى الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن ، فيبقى القلب على الدوام فى عين الشهود والحضور ، وتفتر ظواهر الأعضاء ، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة «١» ، وهيهات هيهات!! ، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها ، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس. هـ.

قال شيخ شيوخنا – سيدى عبد الرحمن العارف – بعد نقل كلام القشيري فى هذا المعنى : وما أشار إليه ظاهر فى أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم. ولذلك قال الجنيد :

أحب للصوفى ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه ، قال : وأحب للمريد ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث لئلا يتغير حاله. هـ. قلت : ومن رزقه اللّه شيخ التربية فما عيّنه له فهو عين ذكره ، يسير به كيفما كان.

هذا ما يتعلق بحال الذكر الذي قدّمه اللّه تعالى ، وأما التفكر فهو أعظم العبادات وأفضل القربات ، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفى الخبر : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة».

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : أشرف المجالس وأعلاها : الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ،

والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر لحسن الظن باللّه تعالى. ثم قال : يا لها من مجالس ، ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رضي اللّه عنه : التفكر نعت كل طالب ، وثمرته : الوصول بشرط العلم ، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق. هـ.

وسئلت زوجة أبى ذر عن عبادة زوجها ، فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبى بكر قالت : كان ليله أجمع فى ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبى الدرداء ، وكان سيدنا عيسى عليه السّلام يقول : طوبى لمن كان قيله ذكرا وصمته تفكرا ، ونظره عبرة. وقال الحسن رضي اللّه عنه : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو. هـ.

وقال فى الحكم : (ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة). وقال أيضا : (الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له). وقال أيضا : (الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ، فالأولى لأرباب الاعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار).

---

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٢١٢ من سورة البقرة.



---



وفكرة الشهود والعيان هى عبادة العارفين ، ولا يحصر ثوابها فى ستين ولا فى سبعين ، بل وقت منها يعدل ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر ، ومن لم يبلغ هذا المقام فليبك على نفسه على الدوام ، ومن ظفر بها ونالها حق له الهناء ، وفى أمثاله قال القائل :

هم الرّجال وغبن أن يقال لمن لم يتّصف بمعاني وصفهم رجل

حققنا اللّه بمقامهم ، وسقانا من منالهم ، آمين.

وقوله : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا بل هو ثابت بإثباتك ، ممحوّ بأحدية ذاتك ، فالباطل محال ، وكل ما سواه باطل ، كما قرره الرسول – عليه الصلاة والسلام «١». وقوله : رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا أي : كنا فى الرعيل الأول من أهل الإيمان ، فجعل لنا سبيلا إلى مقام الإحسان ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا وهو الوصول إلى العيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما أجابهم به ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٥]

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (١٩٥)

قلت : (استجاب) : أخص من أجاب ، لأن استجاب مستلزم لفعل ما طلب منه ، وأجاب يصدق بالوعد ، ويتعدى بنفسه وباللام ، و(بعضكم من بعض) : جملة معترضة. قاله البيضاوي فانظره.

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فيما طلبوه لأنه لا يرد السؤال ، ولا تخيب لديه الآمال ، ولذلك قال : أَنِّي أي : بسبب أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى لأنكم بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ لأن الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، ولأنهما من أصل واحد ، ولفرط الاتصال والاتحاد والاتفاق فى الدين.

---

(١) حين قال صلّى اللّه عليه وسلم : (أصدق كلمة قالها شاعر : ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل). الحديث أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار : باب أيام الجاهلية) ومسلم فى (الشعر) من حديث أبى هريرة.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٤

روى «أنّ أمّ سلمة قالت : يا رسول اللّه ، إنى أسمع اللّه يذكر الرجال فى الهجرة ولم يذكر النساء ، فنزلت. مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى » إلخ.

ثم فصل أعمال العمال ، وما أعد لهم من الثواب فقال : فَالَّذِينَ هاجَرُوا دار الشرك ، وفارقوا الأوطان والأصحاب والعشائر ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي بسبب إيمانهم باللّه ، وَقاتَلُوا الكفار ، وَقُتِلُوا أي : ماتوا فى الجهاد. وقرىء بالعكس لأن الواو لا ترتب ، أو قتل بعضهم ، وقاتل الباقون ولم يضعفوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : لأمحونها ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أي : أثيبهم ثوابا من عند اللّه تفضلا وإحسانا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ لا يعجزه شيء.

الإشارة : لما توجهوا إليه بهممهم العلية ، وعزائمهم القوية ، فقرعوا بابه بدوام ذكره ، والتفكر فى عظمة ذاته ، وجميل إحسانه وبره ، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار ، وحال الخضوع والاضطرار ، أجابهم ففتح فى وجوههم الباب ، وأدخلهم فى حضرته مع الأحباب ، لأنه يجيب السؤال ، ولا يخيب الآمال ، بعد أن هاجروا الأوطان ، وفارقوا العشائر والإخوان ، إلا من يزيد بهم إلى الرحمن ، فقاتلوا

نفوسهم حتى ماتت فحييت بالوصال ، إلى جوار الكبير المتعال ، قال الشاعر :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

فمحا عن عين بصائرهم سيئات الأغيار ، وطهّر قلوبهم من درن الأكدار ، حتى دخلوا جنة المعارف ، التي لا يحيط بوصفها وصف واصف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، وتنفتح منها مخازن الفهوم ، ثوابا من عند الحي القيوم واللّه تعالى أعلم.

ولما بسط اللّه الدنيا على اليهود والمشركين ، استدراجا ، قال بعض المؤمنين : إن أعداء اللّه فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (١٩٨)

قلت : النزل – ويسكن – : ما يقدم للنازل من طعام وشراب وصلة ، وانتصابه : على الحال من (جنات) ، والعامل فيه : الظرف ، أو على المصدر المؤكد ، أي : أنزلوها نزلا.

*(٤٥٤/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٥

يقول الحق جل جلاله : لا يَغُرَّنَّكَ أيها السامع أو أيها الرسول ، والمراد : تثبيته على ما كان عليه ، كقوله :

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، أي : دم على ما أنت عليه من عدم اغترارك بظاهر ما ترى عليه الكفار من البسط فى الدنيا ، والتقلب فيها بالتجارات والزراعات ، وما هم عليه من الخصب ولين عيش ، فإن ذلك مَتاعٌ قَلِيلٌ بلغة فانية ، ومتعة زائلة ، وظلال آفلة ، وسحابة حائلة. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «ما الدّنيا فى الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع». فلا بد أن يرحلوا عنها قهرا ، ثُمَّ مَأْواهُمْ أي : مصيرهم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ ما مهدوا لأنفسهم.

والمعتبر عند الأكياس هو ما أعد اللّه للمتقين من الناس ، قال تعالى : لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ وخافوا عقابه ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، هيأ ذلك لهم وأعده نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هذا النزول الذي يقدم للضيف ، وأما ما أعد لهم بعد النزول فلا يعبر عنه لسان ، ولذلك قال : وَما عِنْدَ اللَّهِ من النعيم الذي لا يفنى ، جسمانى وروحانى ، خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ مما ينقلب إليه الفجار. قيل : حقيقة البر : هو الذي لا يؤذى الذر.

الإشارة : لا يغرنك أيها الفقير ما ترى عليه أهل الدنيا من اتخاذ المنازل المشيدة ، والفرش الممهدة ، فإن الدنيا متاعها قليل ، وعزيزها قليل ، وغنيها فقير ، وكبيرها حقير ، واعتبر بحال نبيك – عليه الصلاة والسلام – .

قال أنس رضي اللّه عنه : دخلت على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو على سرير مرفل بالشريط – أي : مضفور به – وتحت رأسه وسادة من أدم ، حشوها ليف ، فدخل عليه عمر ، وانحرف النبي صلّى اللّه عليه وسلم انحرافة ، فرأى عمر أثر الشريط فى جنبه ، فبكى ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «ما يبكيك يا عمر»؟ فقال : مالى لا أبكى وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على الحال الذي أرى ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدّنيا ولنا الآخرة».

رواه البخاري.

وانظر ما أعد اللّه للمتقين الأبرار ، الذين صبروا قدر ساعة من نهار ، فأفضوا الى جوار الكريم الغفار فى دار القرار ، وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ ، ولا سيما العارفين الكبار. قال الورتجبي : بيّن الحق – تعالى – رفعة منزل المتقين فى الجنان ، ثم أبهم لطائف العناية بقوله : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ أي : ما عنده من نعيم المشاهدة ، ولطائف القربة ، وحلاوة الوصلة ، خير مما هم فيه من نعيم الجنة ، وأيضا : صرح فى هذه الآية ببيان مراتب الولاية ، لأنه ذكر المتقين ، والتقوى : تقديس الباطن عن لوث الطبيعة ، وتنزيه الأخلاق عن دنس

*(٤٥٥/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٦

المخالفة ، وذلك درجة الأول من الولاية ، والأبرار أهل الاستقامة فى المعرفة ، وبين أن أهل التقوى فى الجنة ، والأبرار فى الحضرة. هـ.

ولمّا عاتب الحق تعالى ، فيما تقدم ، أهل الكتاب ، وكان فيهم من لا يستحق العتاب لاتباعه الحق والصواب ، أخرجه الحق تعالى بقوله :

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٩]

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود ، لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيمانا حقيقيا ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من القرآن ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ من التوراة ، حال كونهم خاشِعِينَ

لِلَّهِ خاضعين مخبتين وافين بالعهد ، لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا ، كما فعل المحرفون من أحبار اليهود ، أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيسرع الى توفية أجورهم وإكرام منقلبهم لأن اللّه عالم بالأعمال وما تستوجبه من النوال ، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط لأنه غنى عن التأمل والاحتياط.

وقيل : نزلت فى النصارى : أربعين من نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، قدموا على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأسلموا.

وقيل : نزلت فى النجاشي ، لما نعاه جبريل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فخرج – عليه الصلاة والسلام – ، وصلى عليه ، فقال المنافقون : انظروا الى هذا ، يصلى على علج «١» نصرانى ، فنزلت الآية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم ، فتحققوا بولايتهم ، ونالوا شيئا من محبتهم ، لكن لم تساعفهم الأقدار فى صحبتهم ، فظهرت عليهم آثار أنوارهم ، واقتبسوا شيئا من أسرارهم ، فتنورت سريرتهم ، وكملت شريعتهم ، وأظهر عليهم آثار الخشوع ، وأخذوا حظا من التواضع والخضوع ، متخلقين بالقناعة والورع ، قد ذهب عن قلبهم ما ابتلى به غيرهم من الجزع والهلع ، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين : أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام ، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم «المرء مع من أحب». وباللّه التوفيق ، وهو الهادي الى سواء الطريق.

---

(١) العلج : الرجل القوى الضخم.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٧

ولمّا كان الصبر من الدّين كالرأس من الجسد ، فلو حصل للناس دائما لم يتوجه العتاب لأحد ، ختم به السورة ، التي عاتب فيها جل العباد ، فقال :

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٠٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

قلت : المرابطة : أن يربط هؤلاء خيولهم ، وهؤلاء خيولهم ، إرصادا لمن حاربهم ، ثم أطلق على كل مقيم فى ثغر يدفع عمن وراءه ، وإن لم يكن له مركب ، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على خلوص النية ، خلاف ما قاله ابن عطية «١» ، وسيأتى صوابه «٢» فى تفسير المعنى ، إن شاء اللّه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا على مشاق الطاعات ، وما يصيبكم من الشدائد والأزمات ، وعلى مجانبة المعاصي والمخالفات ، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطيات وَصابِرُوا أي :

غالبوا الأعداء فى مواطن الصبر ، والثبوت فى مداحض الحرب ، وَرابِطُوا أبدانكم وخيولكم فى الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور ، كى تفوزوا بعظائم الأجور قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من رابط يوما وليلة فى سبيل اللّه كان كعدل صيام شهر وقيامه ، لا يفطر ولا ينفتل «٣» عن صلاته إلا لحاجة ، ومن توفى فى سبيل اللّه – أي : مرابطا فى سبيل اللّه – أجرى اللّه عليه أجره حتى يقضى بين أهل الجنة وأهل النّار». ومما يلحق بالرباط : «انتظار الصّلاة بعد الصّلاة» ، كما فى الحديث.

وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فلاحا لا خسران بعده أبدا.

الإشارة : (يا أيها الذين آمنوا) إيمان أهل الخصوص ، (اصبروا) على حفظ مراسم الشريعة ، (و صابروا) على تحصيل أنوار الطريقة ، (و رابطوا) قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة ، أو : اصبروا على أداء العبادة ، وصابروا على تحقيق العبودية ، ورابطوا فى تحصيل العبودة – أي : الحرية – أو : اصبروا على تحقيق مقام الإسلام ، وصابروا على دوام الإيمان ، ورابطوا على العكوف فى مقام الإحسان ، أو : اصبروا على تخليص الطاعات ، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات ، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات ، (و اتقوا اللّه) فلا تشهدوا معه سواه ، (لعلكم تفلحون) ، بتحقيق معرفة اللّه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) قال ابن عطية – بعد كلام – : فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هناك ، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.

(٢) فى الأصول : ثوابه.

(٣) انفتل : انصرف.



البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٥٨

## سورة النّساء

مدنية ، وهى ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا. وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة. ومائة وستون آية. قاله الثعلبي. وقال البيضاوي : مائة وخمس وسبعون آية.

ومضمنها : الأمر بحفظ ستة أمور : حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وحفظ الأبدان ، وحفظ الأديان ، وحفظ اللسان ، وحفظ الإيمان. بعد أن قدّم الأمر بالتقوى ، التي هى ملاك ذلك كله ، فقال :

**[سورة النساء (٤) : آية ١]**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)

قلت : من قرأ : (و الأرحام) بالنصب ، فعطف على لفظ الجلالة ، أي : اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقرأ حمزة بالخفض على الضمير من (به) كقول الشاعر :

فاليوم قد بتّ تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيّام من عجب «١»

وجمهور البصريين يمنعون العطف على الضمير إلا بإعادة الجار ، فيقولون : مررت به وبزيد. وقال ابن مالك :

وليس عندى لازما إذ قد أتى فى النّظم والنّثر الصّحيح مثبتا.

والنثر الصحيح هو ما قرأ به حمزة ، وهذا هو التوجيه الصحيح ، وأما من جعل الواو للقسم فبعيد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ أي : جميع الخلق ، اتقوا ربكم فيما كلفكم به ، ثم بيّن موجب التقوى فقال : الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ يعنى آدم ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها يعنى حواء ، من ضلع من أضلاعه ، وَبَثَّ أي : نشر مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً أي : نشر من تلك النفس الواحدة بنين وبنات. قال البيضاوي : واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء ، إذ الحكمة تقتضى أن يكنّ أكثر ، وذكر : كَثِيراً

---

(١) البيت أنشده سيبويه ، انظر : شرح ابن عقيل على الألفية ، باب عطف النسق.



---



حملا على الجمع ، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي

من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة مولاها. هـ.

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ أي : يسأل بعضكم بعضا فيقول : أسألك بالله العظيم ، وَالْأَرْحامَ أي : واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فمن قطعها قطعه الله ، ومن وصلها وصله اللّه ، كما فى الحديث. أو تساءلون به وبالأرحام ، فيقول بعضكم لبعض : أسألك بالرحم التي بينى وبينك ، أو بالقرابة التي بينى وبينك. ثم هددهم على ترك ما أمروا به فقال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً حافظا مطلعا شهيدا عليكم فى كل حال.

الإشارة : درجهم فى آخر السورة فى مدارج السلوك حتى زجّهم فى حضرة ملك الملوك ، وأمرهم أن يتقوا ما يخرجهم عن مشاهدة ظلمة أنوار الربوبية ، ثم دلاهم فى أول السورة إلى التنزل لآداب العبودية بشهود آثار القدرة الإلهية ، فى النشأة الأولية ، ليعلّمهم الجمع بين آداب المراقبة ودوام المشاهدة ، أو بين الفناء والبقاء.

وقد تكلم ابن جزى هنا على أحكام المراقبة ، فقال : إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها ، استفاد مقام المراقبة ، وهو مقام شريف أصله علم وحال ، ثم يثمر حالين. أما العلم : فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه ، ناظر إليه فى جميع أعماله ، ويسمع جميع أقواله ، ويعلم كل ما يخطر على باله. وأما الحال : فهو ملازمة هذا العلم بالقلب ، بحيث يغلب عليه ولا يغفل عنه. ولا يكفى العلم دون هذه الحال ، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين :

الحياء من الله ، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي والجد فى الطاعات ، وكانت ثمرتهما عند المقربين :

المشاهدة ، التي توجب التعظيم والإجلال لذى الجلال.

وإلى هاتين الثمرتين أشار الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» ، فقوله :

«أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية ، وهى الموجبة للتعظيم ، كمن يشاهد ملكا عظيما فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة ، وقوله : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى ، ومعناه : إن لم تكن من أهل المشاهدة – التي هى مقام المقربين – فاعلم أنه يراك ، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين ، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى ، ورأى أن كثيرا من الناس قد يعجزون عنه ، تنزل منه إلى المقام الآخر.

واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتقدم قبلها المشارطة والمرابطة ، ويتأخر عنها المحاسبة والمعاتبة ، فأما المشارطة فهى اشتراط العبد على نفسه التزام الطاعة ، وترك المعاصي ، وأما المرابطة فهى معاهدة العبد لربه على ذلك ، ثم بعد المشارطة والمرابطة فى أول الأمر تكون المراقبة ... إلخ.

وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه ، فإن وجد نفسه قد وفّى بما عاهد عليه الله يحمد الله ، وإن وجد نفسه قد حل عقد المشارطة ونقض عهد المراقبة ، عاقب النفس عقابا شديدا بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك ، ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة ، وحافظ على المراقبة ، ثم اختبر بالمحاسبة ، وهكذا يكون إلى أن يلقى الله تعالى. انتهى كلامه ، وهو مقتبس من الإحياء. والله تعالى أعلم.

ثم شرع تعالى فى الكلام على حفظ الأموال ، وبدأ بأموال اليتامى ، اعتناء بهم لضعفهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢]

وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (٢)

قلت : اليتيم : من فقد أباه ، ولا يقال فيه اليتيم عرفا إلا قبل البلوغ ، وهو هنا مجاز ، أي : من كان يتيما ، والحوب :

الإثم ، ويقال فيه : حوبا ، بالضم والفتح ، مع الواو والألف ، مصدر حاب حوبا وحوبا وحابا.

يقول الحق جل جلاله : وَآتُوا أي : أعطوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ إذا بلغوا ، وأنس منهم الرشد ، وسمّاهم يتامى بعد البلوغ اتساعا لقرب عهدهم بالصغر ، حثا على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم ، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إذا أنس فيهم الرشد ، ويدل على هذا ما قيل فى سبب نزول الآية ، وهو أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له ، فلما بلغ طلب مال أبيه ، فمنعه ، فنزلت الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله ، ونعوذ بالله من الحوب الكبير. وقيل : إن العرب كانت لا تورّث الصغار مع الكبار ، فأمروا أن يورثوهم ، وعلى هذا يكون اليتيم على حقيقته ، فعلى الأول : الخطاب للأوصياء ، وعلى الثاني : للعرب التي كانت لا تورث الصغار.

ثم قال : وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ أي : لا تتبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ، أو : لا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخبيث مكانها من أموالكم. كان بعضهم يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالمهزولة من ماله ، والدرهم الطيب بالزائف. وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ مضموما إِلى أَمْوالِكُمْ فتنفقونها معا ، مع أن اليتيم لا يأكل كالكبير ، إلا إذا كان المنفق قدّر أكله ، أو لمصلحة. إِنَّهُ أي : الأكل ، كانَ حُوباً كَبِيراً أي : إثما عظيما.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله أغنياء القلوب ، وهم أكابر الأولياء الراسخون فى علم الغيوب ، أن يمنحوا من تعلق بهم من الفقراء والضعفاء ، من الغنى بالله الذي منحهم الله ، حتى لا يلتفتوا إلى سواه ، وأن يقبلوا كل من أتى إليهم من العباد ، سواء كان من أهل المحبة والوداد ، أو من أهل المخالفة والعناد ، ولا يتبدلوا الخبيث بالطيب ، بحيث

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٢

يقبلون من وجدوه طيب الأخلاق ، ويردون من وجدوه خبيث الأخلاق ، فإن هذا ليس من شأن أهل التربية النبوية ، بل من شأنهم أن يقبلوا الناس على السوية ، ويقلبوا فيهم الأعيان ، فيقلبون العاصي طائعا ، والكافر مؤمنا ، والغافل ذاكرا ، والشحيح سخيا ، والخبيث طيبا ، والمسيء محسنا ، والجاهل عارفا ، وهكذا لما عندهم من الإكسير ، وهى الخمرة الأزلية ، أي : التي من شأنها أن تقلب الأعيان ، كما قال ابن الفارض رضي اللّه عنه فى وصفها :

تهذب أخلاق النّدامى فيهتدى بها لطريق العزم من لا له عزم

ويكرم من لم يعرف الجود كفّه ويحلم عند الغيظ من لا له حلم

وقوله : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ يعنى : حتى تتحققوا بوصول الغنى إلى قلوبهم ، فإن تحققتم فخذوا ما بذلوا لكم من أموالهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الأولياء ، إذا كانت تحتهم يتيمة لها مال ، وخافوا أن يدخل معهم أجنبى ، تزوجها أو زوجوها من أبنائهم ، حرصا على أكل مالها ، ولا يقسطون لها فى صداقها ، وربما أساءوا عشرتها انتظارا لموتها ، فنهاهم الله عن ذلك بقوله :

[سورة النساء (٤) : آية ٣]

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (٣)

قلت : «ما» من شأنها أن تقع على ما لا يعقل ، وهنا وقعت على النساء لقلة عقلهن حتى التحقن بمن لا يعقل «١» و(مثنى وثلاث ورباع) أحوال من (ما) ممنوعة من الصرف للوصف والعدل ، أي : اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ خِفْتُمْ يا معشر الأولياء ألّا تعدلوا فِي الْيَتامى التي تحت حجركم إذا تزوجتم بهن طلبا لمالهن ، مع قلة جمالهن ، فتهجروهن أو تسيئوا عشرتهن ، فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ من غيرهن ، أو : وإن خفتم ألا تقسطوا فى صداقهن إذا أعجبنكم لمالهنّ – الذي بيدكم – وجمالهن ، فانكحوا غيرهن ، ولا تنكحوهن إلا إذا أعطيتموهن صداق أمثالهن.

---

(١) قوله : (من شأنها أن تقع على ما لا يعقل) ، فيه نظر ، فإن (ما) تقع على العاقل وغير العاقل ، قال تعالى عن الصالحين : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» (سورة ص آية ٢٤) وغير ذلك من آيات كثيرة ، بل إن قول الله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، نص فى أن «ما»

تقع على العاقل.
أما قوله : [حتى التحقن بمن لا يعقل ] فينقضه الكثير من الآيات والأحاديث ، قال تعالى : «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» (آل عمران ١٩٥) وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «النساء شقائق الرجال» وللمفسرين فى الآية توجيهات أخر ، أولى من توجيه شيخنا ابن عجيبة ، منها : أن «ما» فى الآية موصولة أو موصوفة. راجع (تفسير : القرطبي – ابن عطيه – الآلولسى).

(٤٦٢/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٣
قالت عائشة – رضى الله عنها – : (هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء.). رواه البخاري.
وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : – (إن الرجل منهم كان يتزوج العشرة وأكثر – يعنى قبل التحريم – فإذا ضاق ماله أخذ من مال يتيمه) ، فقال لهم : إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى – أي : فى أموالهن – فانكحوا ما طاب لكم من غيرهن (مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ أي : اثنتين اثنتين لكل واحد ، أو ثلاثا ثلاثا ، أو أربعا أربعا ، ولا تزيدوا ، فمنع ما كان فى الجاهلية من الزيادة على الأربع ، وهو مجمع عليه بنص الآية ، ولا عبرة بمن جوّز تسعا لظاهر الآية لأن المراد التخيير بين تلك الأعداد ، لا الجمع ، ولو أراد الجمع لقال تسعا ، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه وأقل بيانا.
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا بين الاثنتين أو الثلاث أو الأربع ، فاقتصروا على واحدة ، أو على ما ملكت أيمانكم من قليل أو كثير إذ لا يجب العدل بينهن ، ذلِكَ الاقتصار على الواحدة أَدْنى أي : أقرب أَلَّا تَعُولُوا أي :
تجوروا أو تميلوا ، أو ألا تجاوزوا ما فرض عليكم من العدل ، أو أدنى ألا يكثر عيالكم فتفتقروا ، وهى لغة حمير. والله تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الحق تعالى جعل أولياءه أصنافا عديدة فمنهم من غلب عليه فيض العلوم ، ومنهم من غلب عليه هجوم الأحوال ، ومنهم من غلب عليه تحقيق المقامات. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كان الجنيد رضي اللّه عنه قطبا فى العلوم ، وكان أبو يزيد رضي اللّه عنه قطبا فى الأحوال ، وكان سهل بن عبد الله قطبا فى المقامات. هـ. أي : كل واحد غلب عليه واحد من ذلك ، مع مشاركته للآخر فى الباقي ، فينبغى لكل واحد أن يخوض فى فنّه الذي خصّه الله به ولا يتصدى لغيره. فقال لهم الحق – جل جلاله – من طريق الإشارة : فإن خفتم يا من غلبت عليهم الأحوال أو

المقامات ، ألّا تقسطوا فى يتامى العلوم التي اختص بها غيركم ، فانكحوا ما طاب لكم من ثيبات الأحوال وأبكار الحقائق ، كثيرة أو قليلة ، فإن خفتم أن تغلبكم الأحوال ، أو التنزل فى المقامات ، ولا تعدلوا فيها ، فالزموا حالة واحدة ومقاما واحدا ، وهو المقام الذي ملكه وتحقق به ، فإنه أقرب ألا ينحرف عن الاعتدال لأن كثرة الأحوال تضر بالمريد كما هو مقرر فى فنه. والله تعالى أعلم.

ولمّا أمر بالنكاح أمر ببذل الصداق ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤]

وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٤)

(٤٦٣/١)

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٤

قلت : نِحْلَةً : مصدر من آتوهن ، لأنها فى معنى الإيتاء ، يقال : نحله كذا نحلة ونحلا إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ولا حكم حاكم ، والضمير فى «منه» يعود على الصداق أو على «الإيتاء» ، و(نفسا) تمييز ، و(هنيئا مريئا) : صفتان لمصدر محذوف ، أي : أكلا هنيئا ، وهو من هنؤ الطعام ومرؤ ، إذا كان سائغا لا تنغيص فيه ، وقيل الهنيء : ما يلذه الإنسان ، والمريء : ما تحمد عاقبته.

يقول الحق جل جلاله للأزواج : وَآتُوا النِّساءَ التي تزوجتموهن صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً أي : عطية مبتلة «١» ، لا مطل فيها ولا ظلم ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ من الصداق ، وأعطينه لكم عن طيب أنفسهن فَكُلُوهُ هَنِيئاً لاتبعة عليكم فيه ، مَرِيئاً : سائغا حلالا لا شبهة فيه ، روى أن ناسا كانوا يتحرّجون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا ، فنزلت. وقيل : الخطاب للأولياء ، لأن بعضهم كان يأكل صداق محجورته ، فأمروا أن يعطوهن صداقهن ، إلا إن أعطينهم شيئا عن طيب أنفسهن ، والله تعالى أعلم.

الإشارة : وآتوا النفوس حقوقها من الراحة وقوت البشرية ، نحلة ، ولا تكلفوها فوق طاقتها ، فإن طبن لكم عن شيء من الأعمال أو الأحوال ، بانشراح صدر ونشاط ، فكلوه هنيئا مريئا ، فإنّ العبادة مع النشاط والفرح بالله أعظم وأقرب للدوام ، وهذا فى حق النفوس المطمئنة ، وأما النفوس الأمارة فلا يناسبها إلا قهرية المجاهدة مع السياسة لئلا تمل ، أو تقول : من أقامه الحق تعالى فى حال من الأحوال أو مقام من المقامات فليلزمه ، وليقم حيث أقامه الحق ، ويعطيه حقه ، فإن طاب وقته لحال من الأحوال فليأكله هنيئا مريئا. فالفقير ابن وقته ، ينظر ما يبرز له فيه من رزقه ، فكل ما وجد فيه قلبه فهو رزقه ، فليبادر إلى أكله لئلا يفوته رزقه منه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم نهى الأوصياء عن تمكين اليتامى من أموالهم قبل الرشد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥]

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥)

قلت : «قيما» : «٢» مصدر قام قياما وقيما ، وأصله : قواما ، قلبت الواو ياء.

---

(١) البتل : القطع

(٢) قرأ نافع وابن عامر «قيما» وقرأ الجمهور «قياما».



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٥

يقول الحق جل جلاله للأوصياء : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ التي تحت حضانتكم أَمْوالَكُمُ أي : أموالهم التي فى أيديكم ، وإنما أضاف أموال اليتامى لهم حثا على حفظها وتنميتها كأنها مال من أموالهم ، أي : ولا تمكنوا السفهاء من أموالهم التي جعلها الله فى أيديكم قِياماً لمعاشهم ، تقومون بها عليهم ، ولكن احفظوها ، واتجروا فيها ، واجعلوا رزقهم وكسوتهم فيها باعتبار العادة ، فإن طلبوها منكم فعدوهم وعدا جميلا ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً أي : كلاما لينا بأن يقول له : حتى تكبر وترشد لتصلح للتصرف فيها. وشبه ذلك. وإنما قال : (و ارزقوهم فيها) دون «منها» لأن «فيها» يقتضى بقاءها بالتنمية والتجارة حتى تكون محلا للرزق والكسوة دون «منها» ، وقيل :

الخطاب للأزواج ، نهاهم أن يعمدوا إلى ما خولهم اللّه من المال فيعطوه إلى نسائهم وأولادهم ، ثم ينظرون إلى أيديهم. وإنما سمّاهن سفهاء استخفافا بعقلهن ، كما عبر عنهن ب – «ما» التي لغير العاقل «١».

وروى أبو أمامة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنما خلقت النار للسفهاء – قالها ثلاثا – ألا وإن السفهاء النساء إلا امرأة أطاعت قيّمها «٢»». وقالت امرأة : يا رسول الله : سميتنا السفهاء! فقال : «الله تعالى سماكن فى كتابه» «٣» ، يشير إلى هذه الآية. وقال أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه : (ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها «٤» ، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه ، ورجل أعطى سفيها ماله ، وقد قال الله تعالى : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ.) قلت : إنما منعوا من إجابة الدعاء لتفريطهم فى مراسم الشريعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينبغى للشيخ أن يطلع المريد على أسرار التوحيد ، وهى أسرار المعاني التي جعلها الله تعالى قائمة بالأشياء ، حتى يكمل عقله ، ويتحقق أدبه ، ويظهر صدقه ، فإذا استعجلها قبل وقتها

فليعده وعدا قريبا ، وليقل له قولا معروفا ، فكم من مريد استعجل الفتح قبل إبانه فعوقب بحرمانه ، وكم من مريد اطلع على أسرار الحقيقة قبل كمال خدمته فطرد أو قتل ، ووقتها هو حين تبرز معه فتأخذه الحيرة ، اللهم إلا أن يراه الشيخ أهلا لحملها لرجحان عقله وكمال صدقه ، فيمكنه منها قبل أن تبرز معه ، ثم يربيه فيها ، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا لشدة كرمهم – رضى الله عنهم وأرضاهم – ورزقنا حسن الأدب معهم ، فأطلق الحق تعالى الأموال بطريق الإشارة على أسرار المعاني ، وأمر الشيوخ أن يرزقوهم منها شيئا فشيئا بالتدريب والتدريج ، وأن يكسوهم بالشرائع ، ويحتمل أن تبقى الأموال

---

(١) راجع التعليق على تفسير الآية الثالثة من سورة النساء.

(٢) ذكره بنحوه ابن كثير فى تفسيره ، وعزاه لابن أبى حاتم.

(٣) ذكره الآلوسى فى تفسيره من رواية مجاهد وابن عمر عن أنس. وقال الطبرسي : (لى فى صحته شك). [.....]

(٤) يحمل سوء الخلق هنا على ما يطعن فى العفة والحياء. وإلّا فظاهر هذا الكلام مخالف لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر»



---



على ظاهرها ، ويكون أمر الشيوخ أن يمنعوا المريدين من أخذ الأموال قبل التمكين. أشار إلى هذا الورتجبي ، فانظره.

ثم ذكر الحق تعالى وقت دفع أموال اليتامى لهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٦]

وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦)

قلت : الابتلاء : الاختبار ، و«آنس : » أبصر. والرشد هو كمال العقل بحيث يعرف مصالح نفسه وتدبير ماله من غير تبذير ولا إفساد. وإِسْرافاً وَبِداراً : حالان من «الواو» ، أو مفعولان لأجله ، و(أن يكبروا) مفعول ببدارا.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء : واختبروا الْيَتامى قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى تصرفاتهم ، بأن يدفع

لهم الدرهم والدرهمان ، فإن ظهر عليهم حسن التصرف زادهم قليلا قليلا ، وإن ظهر عليهم التبذير كفّ عنهم المال ، حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، وهو البلوغ بعلامته ، فَإِنْ آنَسْتُمْ أي : أبصرتم مِنْهُمْ رُشْداً ، وهو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله ، وإن لم يكن من أهل الدين – واشترطه قوم ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ حينئذ أَمْوالَهُمْ من غير تأخير. وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا أي : لا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فتزول من يدكم ، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم ، وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ عن أكلها فى أجرة قيامه بها ، وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بقدر حاجته وأجر سعيه ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : أنّ رجلا قال له : إنّ فى حجرى يتيما أفآكل من ماله؟

قال : «بالمعروف ، غير متأثّل «١» مالا ولا واق مالك بماله».

فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا فى قبضها منكم عَلَيْهِمْ ، فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة ، وهو ندب ، وقيل : فرض ، فلا يصدق فى الدفع إلا ببينة ، وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً أي : محاسبا ، فلا تخالفوا ما أمرتم به ، ولا تجاوزوا ما حدّ لكم.

وإنما قال : «حسيبا» ولم يقل : «شهيدا» ، مع مناسبته ، تهديدا للأوصياء لئلا يكتموا شيئا من مال اليتامى ، فإذا علموا أن اللّه يحاسبهم على النقير والقطمير ، ويعاقبهم عليه ، انزجروا عن الكتمان. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : غير جامع.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٧

الإشارة : ينبغى للشيخ أن يختبر المريد فى معرفته وتحقيق بغيته ، فإذا بلغ مبلغ الرجال وتحققت فيه أوصاف الكمال ، بحيث تحقق فناؤه ، وكمل بقاؤه ، وتمت معرفته ، فيكون تصرفه كله باللّه ومن اللّه وإلى اللّه ، يفهم عن اللّه فى كل شىء ، ويأخذ النصيب من كل شىء ، ولا يأخذ من نصيبه شيئا ، قد تحلّى بحلية الورع ، وزال عنه الجزع والطمع ، وزال عن قلبه خوف الخلق وهمّ الرزق ، واكتفى بنظر الملك الحق ، يأخذ الحقيقة من معدنها ، والشريعة من موضعها ، فإذا تحققت فيه هذه الأمور ، وأنس رشده ، فليطلق له التصرف فى نفسه ، وليأمره بتربية غيره ، إن رآه أهلا لذلك ، ولا ينبغى أن يحجر عليه بعد ظهور رشده ، ولا يسرف عليه فى الخدمة قبل رشده ، مخافة أن يزول من يده.

فإن كان غنيا عن خدمته فليستعفف عنه ، وليجعل تربيته للّه اقتداء بأنبياء اللّه. قال تعالى : قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، وإن كان محتاجا إليها فليستخدمه بالمعروف ، ولا يكلفه

ما يشق عليه ، فإذا دفع إليه السر ، وتمكن منه ، وأمره بالتربية أو التذكير فليشهد له بذلك ، ويوصى بخلافته عنه ، كى تطمئن القلوب بالأخذ عنه ، (و كفى بالله وليا وكفى به نصيرا).

ولما أمر الحق تعالى بحفظ أموال اليتامى أمر بحفظ أموال النساء ، وذكرهن بعدهم لمشاركتّهن لهم فى الضعف ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧]

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧)

قلت : جملة مِمَّا قَلَّ .. إلخ ، بدل (مما ترك) ، و«نصيبا» : مصدر مؤكد كقوله : فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أي : نصب لهم نصيبا مقطوعا ، أو حال ، أو على الاختصاص ، أعنى : نصيبا مقطوعا.

يقول الحق جل جلاله : وإذا مات ميت وترك مالا فللرجال نصيب مما ترك آباؤهم وأقاربهم ، وللنساء نصيب مما ترك والدهن وأقاربهن كالإخوة والأخوات ، مما ترك ذلك الميت قل أو كثر ، (نصيبا مفروضا) واجبا محتما.

روى أنّ أوس بن ثابت الأنصارىّ توفّى ، وترك امرأة يقال لها : (أم كحّة) وثلاث بنات ، فأخذ ابنا عمّ الميت المال ، ولم يعطيا المرأة ولا بناته شيئا ، وكان أهل الجاهليّة لا يورّثون النّساء ولا الصغير ولو كان ذكرا ، ويقولون :

إنما يرث من يحارب ويذب عن الموروث ، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم وهو فى مسجد الفضيخ ، فقالت :



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٨

يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات ، وترك بنات ثلاثا ، وأنا امرأته ، وليس عندى ما أنفقه عليهنّ ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا ، وهو عند سويد وعرفجة ، فدعاهما النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالا : يا رسول اللّه ولدها لا يركب فرسا ، ولا يحمل سلاحا ، لا ينكأ عدوّا ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «انصرفوا حتى أرى ما يحدث اللّه تعالى» ، فانصرفوا. فنزلت الآية. فأثبت الله لهن فى الآية حقا ، ولم يبيّن كم هو – فأرسل النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى سويد وعرفجة : «لا تفرقا من مال أوس شيئا ، فإنّ اللّه تعالى جعل لبناته نصيبا ، ولم يبيّن كم هو حتى أنظر ما ينزل اللّه تعالى» ، فأنزل الله تعالى بعد : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ .. إلى قوله ... الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. فأرسل إليهما : «أن ادفعا إلى أم كحة الثّمن ، وإلى بناته الثّلثين ، ولكما باقى المال».

الإشارة : كما جعل الله للنساء نصيبا من الميراث الحسى جعل لهن نصيبا من الميراث المعنوي ، وهو السر ، إن صحبت أهل السر ، وكان لها أبو الروحانية ، وهو الشيخ ، فللرجال نصيب مما ترك لهم أشياخهم من سر الولاية ، وللنساء كذلك على قدر ما سبق فى القسمة الأزلية ، قليلة كانت أو كثيرة ، نصيبا مفروضا معينا فى علم الله وقدره ، وقد سواهن الله تعالى مع الرجال فى آية السير ، فقال : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ إلى آخر الآية ، فمن صار منهن مع الرجال أدرك ما أدركوا. وبالله التوفيق.

ثم أمر الورثة بالإحسان إلى من حضر معهم القسمة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨]

وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٨)

قلت : الضمير فى (منه) : يعود على المقسوم المفهوم من القسمة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا حَضَرَ معكم فى قسمة التركة ذوو القرابة ممّن لا يرث ، كالأخوال والخالات والعمات ، وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ ، فَارْزُقُوهُمْ أي : فأعطوهم شيئا من المال المقسوم تطييبا لقلوبهم.

فإن كان المال لغيركم ، أو كان الورثة غير بالغين ، فقولوا لهم قَوْلًا مَعْرُوفاً ، بأن تعلموهم أن المال لغيرنا ، ولو كان لنا لأعطيناكم ، والله يرزقنا وإياكم.

واختلف فى هذا الأمر ، هل للندب – وهو المشهور – أو للوجوب ونسخ بآية المواريث؟ وقيل : لم ينسخ ، وهى مما تهاون الناس بها. والله تعالى أعلم.

*(٤٦٨/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٦٩

الإشارة : يقول الحق جل جلاله لخواص أحبابه : إذا دارت الكؤوس بخمرة الملك القدوس ، وتعاطيتم قسمتها بين أرواحكم حتى امتلأت جميع أشباحكم ، وروت منها عروقكم ، وحضر معكم من ليس من أبناء جنسكم ، ممن لا يحل شرب خمرتكم ، فإن كان من أهل المحبة والوداد ، أو من له بكم قرابة واستناد ، فلا تحرموه من شراب خمرتكم ، ولا من نفحات نسمتكم ، فإنكم قوم لا يشقى جليسكم ، فارزقوه من ثمار علومكم ، واسقوه من شراب خمرتكم ، وذكّروه بالله ، وقولوا له ما يدله على الله ، ويوصله إلى حضرة الله ، وهذا هو القول المعروف ، الذي هو بالنصح موصوف.

روى أن أبا هريرة رضي اللّه عنه نادى فى سوق المدينة : يا معشر التجار ، اذهبوا إلى المسجد ، فإنّ تركة محمد تقسم فيه ، لتأخذوا حقكم منها مع الناس قبل أن تنفد ، فذهب التجّار إلى المسجد النبوي

، فوجدوه معمورا بالناس ، بعضهم يصلى ، وبعضهم يتلو ، وبعضهم يذكر ، وبعضهم يعلم العلم ، فقالوا : يا أبا هريرة ، ليس هنا ما ذكرت من قسم التركة! فقال لهم : (هذه تركة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لا ما أنتم عليه من جمع الأموال) أو كما قال رضي اللّه عنه.

ثم حثّ الأوصياء على الرفق بأولاد الناس ، الذي هم فى حجرهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٩]

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩)

قلت : «لَوْ» – هنا – شرطية ، تخلص للاستقبال ، وجوابها : (خافُوا) ، وحذف مفعول لْيَخْشَ للعموم ، فيصدق بخشية العذاب وخشية العتاب وخشية البعد عن الأحباب ، على حسب حال المخاطبين بهذه الخشية.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء الذين فى ولايتهم أولاد الناس : وَلْيَخْشَ الذين يتولون يتامى الناس ، فليحفظوا ما لهم ، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه ، وليخافوا عليهم الضيعة ، كما يخافون على أولادهم ، فإنهم لو ماتوا وتركوا ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ ، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فى شأنهم ، وليحفظوا عليهم أموالهم ، وليرفقوا بهم ويلاطفوهم فى الكلام ، كما يحبون أن يلاطف بأولادهم ، وَلْيَقُولُوا لهم قَوْلًا سَدِيداً أي : عدلا صوابا بالشفقة وحسن الأدب.

وقيل : الخطاب لمن حضر المريض عند الإيصاء فيقولون له : قدم لنفسك ، أعتق ، تصدق ، أعط كذا ، حتى يستغرق ماله ، فنهاهم الحق – تعالى – عن ذلك ، وقال لهم : كما تخافون الضيعة على أولادكم بعدكم خافوا على أولاد الناس ، فليتقوا الله فى أمر المريض بإعطاء ماله كله ، وَلْيَقُولُوا له قَوْلًا سَدِيداً : عدلا ، وهو الثلث ، وقيل :

للمؤمنين كلهم عند موتهم ، بأن ينظروا للورثة ، فلا يسرفوا فى الوصية بمجاوزة الثلث. والله تعالى أعلم.

*(٤٦٩/١)*

---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٠

الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – أهل التربية النبوية إذا خافوا على أولادهم الروحانيين أن ينقطعوا بعد موتهم ، أن يمدوهم بالمدد الأبهر ، ويدلوهم على الغنى الأكبر ، حتى يتركوهم أغنياء بالله ، قد اكتفوا عن كل أحد سواه ، مخافة أن يسقطوا بعد موتهم فى يد من يلعب بهم ، فليتقوا الله فى شأنهم ، وليدلوهم على ربهم ، وهو القول السديد.

وينسحب حكمها على أولاد البشرية ، فمن خاف على أولاده بعد موته ، فليتق الله وليكثر من طاعة الله ، وليحسن إلى عباد الله ، فى أشباحهم وأرواحهم أما أشباحهم فيطعمهم مما خوله الله ، ففى بعض الأثر عنه عليه الصلاة والسلام : «ما أحسن عبد الصّدقة فى ماله إلا أحسن اللّه الخلافة على تركته». وأما الإحسان إلى أرواحهم ، فيدلهم على الله ، ويرشدهم إلى طاعة الله ، ويعلمهم أحكام دين الله. فمن فعل هذا تولى الله حفظ ذريته من بعده ، فيعيشون فى حفظ ورعاية وعز ونصر ، كما هو مشاهد فى أولاد الصالحين ، قال تعالى : وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وتذكر قوله تعالى : وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً.

وقال القشيري فى هذه الآية : إن الذي ينبغى للمسلم أن يدخر لعياله التقوى والصلاح ، لا المال ، لأنه لم يقل فليجمعوا لهم المال ، وليكثروا لهم العقار والأسباب ، وليخلفوا العبيد والأثاث ، بل قال : فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فإنه يتولى الصالحين. هـ المراد منه.

ثم ذكر الحق تعالى وعيد من يأكل مال اليتيم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)

قلت : (ظلما) : تمييز ، أو مفعول لأجله.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً من غير موجب شرعى ، إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً ، أي : ما يجر إلى النار ويؤول إليها.

وعن أبى برزة أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «يبعث الله أقواما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا» ، فقيل : من هم يا رسول الله؟

قال : «ألم تر أن الله يقول : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً».

أي : يحترقون فى نار ، وأي نار!! والصّلى : هو الشيّ ، تقول : صليت الشيء : شويته ، وأصليته وصليته ، وذكر البطون مبالغة وتهجين لحالهم.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧١

الإشارة : حذّر الحق – جل جلاله – أهل الدعوى ، الذين نصبوا أنفسهم للشيخوخة ، وادعوا مقام التربية ، مع كونهم جهالا بالله ، محجوبين عن شهود أسرار التوحيد ، أن يأخذوا أموال الضعفاء الذين تعلقوا بهم لأنهم إنما يدفعون لهم ذلك طمعا فى الوصول إلى الله. وهم ليسوا أهلا لذلك ، فإذا أكلوا ذلك فإنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ، وهو تكثيف الحجاب ، وزيادة العنت والتعب ،

إن أقبل عليهم الناس فرحوا واستبشروا ، وإن أدبروا عنهم حزنوا وغضبوا ، فأىّ عذاب أعظم من هذا!! فتحصّل من أول الآية إلى آخرها ، أن الحق – تعالى – أمر أهل الغنى الأكبر ، وهم الذين أهّلهم للتربية النبوية ، بأن سلكوا الطريق وأشرقت عليهم شموس التحقيق على يد شيخ كامل ، بالاستعفاف ، ولا يأخذوا إلّا قدر الحاجة ، من أموال من انتسب إليهم ، وسد الباب لأهل الدعوى ، لأنه من أكل أموال الناس بالباطل ، لأنه يعطى على وجه لم يوجد فى المعطى إليه ، إلا إذا كان على وجه الصدقة المحضة ، مع أنه قد يكون غير مستحق لها. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن الحق تعالى قسمة التركة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١١]

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١)

يقول الحق جل جلاله : (يوصيكم الله) أي : يأمركم ويعهد إليكم ، فِي أَوْلادِكُمْ ، أي : فى بيان ميراثهم ، ثم فصّله فقال : لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، أي يعد كل ذكر بأنثيين ، فإذا ترك ابنا وبنتا ، كانت من ثلاثة ، للذكر سهمان وللبنت سهم ، وإذا ترك ابنا وبنتين فله قسمتان ، ولكل واحدة قسمة ، وهكذا ، قال ابن جزى : هذه الآية نزلت بسبب سعد بن الربيع ، وقيل : بسبب جابر بن عبد الله ، إذ عاده رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فى مرضه ورفعت ما كان فى الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال. وقيل : نسخت الوصية للوالدين والأقربين.

وإنما قال : «يوصيكم» بلفظ الفعل الدائم ، ولم يقل : أوصاكم ، تنبيها على نسخ ما مضى ، والشروع فى حكم آخر ، وإنما قال : (يوصيكم) بالاسم الظاهر ، أي : (الله) ولم يقل : نوصيكم ، لأنه أراد تعظيم الوصية ، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء ، وإنما قال : (فى أولادكم) ولم يقل : فى أبنائكم لأن الابن يقع على الابن من الرضاعة ، وعلى ابن البنت ، وعلى الابن المتبنى ، وليسوا من الورثة ، فإن قيل : هلّا قال : للأنثيين مثل حظ الذّكر ، أو للأنثى



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٢

نصف حظ الذّكر؟ ، فالجواب ، أنه بدأ بالذّكر لفضله ، ولأن القصد ذكر حظه ، ولو قال للأنثيين مثل حظ الذكر لكان فيه تفضيل للإناث. هـ «١»

.

الإشارة : كما أوصى الله – تعالى – فى أولاد البشرية ، أوصى على أولاد الروحانية ، ويقع التفضيل فى قسمة الإمداد على حسب التعظيم والمحبة والعطف من الشيخ ، فبقدر ما يقع فى قلب الشيخ ، يسرى إليه المدد ، فقد يأخذ مثل حظ رجلين أو أكثر ، على حسب ما سبق فى القسمة الأزلية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم البنات إذا انفردن ، فقال :

قلت : أنّث الضمير فى (كن) باعتبار الخبر ، أو يعود على المتروكات ، وما قاله الزمخشري بعيد. ومن قرأ (واحدة) بالرفع ، ففاعل كان التامة ، ومن قرأ بالنصب ، فخبر كان.

يقول الحق جل جلاله : فإن كان المتروك من الأولاد نِساءً ليس معهن ذكور فَوْقَ اثْنَتَيْنِ أي : اثنتين فما فوق ، فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ ، والباقي للعاصب ، وأخذ ابن عباس بظاهر الآية ، فأعطاهما النصف كالواحدة ، والجمهور على خلافه ، وأن لفظ فَوْقَ زائدة كقوله : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وقيل : أخذ الثلثين بالسنة ، وإن كانَتْ بنتا واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، والباقي للعاصب ، وفيه دليل على أن الابن يأخذ جميع المال إذا انفرد لأن له مثل حظ الأنثيين.

الإشارة : انظر البنت ، إذا انفردت أخذت النصف ، وإذا اجتمعت مع غيرها نقص لها ، كذلك أمداد الأشياخ ، من انفرد عندهم وحده ، أخذ أكثر مما إذا اجتمع مع غيره ، لانجماع نظر الشيخ إليه ، وكان شيخنا رضي اللّه عنه يقول له شيخه : ما زال يأتيك الرجال – أي : إخوانك من الفقراء – وكان وحده ، فيقول له : الله لا يجعل أحدا يأتى حتى نشبع.

وكذلك أيضا ، انفراد العبد بالعبادة ، فى وقت الغفلة ، مددها أعظم من كونه مع غيره ، كالمجاهد خلف الفارين.

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : «طوبى للغرباء» ، والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع تفسير ابن جزى.



---

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٣

ثم ذكر ميراث الأبوين ، فقال :

قلت : (السدس) مبتدأ ، و(لأبويه) خبر ، و(لكل واحد) ، بدل من (أبويه) ، ونكتة البدل إفادة أنهما لا يشتركان فى السدس ، ولو قال : لأبويه السدس لأوهم الاشتراك.

يقول الحق جل جلاله : إذا مات الولد ، وترك أبويه ، ف لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ ذكرا أو أنثى ، واحدا أو متعددا ، للصلب أو ولد ابن ، فكلهم يردّون الأبوين للسدس ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فقط ، فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، والباقي للأب ، فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ أي : أخوان فأكثر ، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم ، أو مختلفين ، فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، والباقي للأب ، ولا شيء للأخوة معه. وأخذ ابن عباس بظاهر الآية ، فلم يحجبها للسدس باثنين ، وجعلهما كالواحد ، واحتج بأن لفظ الإخوة جمع ، وأقله ثلاثة ، وأجيب بأن لفظ الجمع ، يقع على الاثنين كقوله : وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ ، إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ، ولقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «الاثنان فما فوقهما جماعة». وهذا كله ، بعد إخراج الوصية وقضاء الدين ، وإنما قدّم الحق – تعالى – الوصية على الدّين ، مع كون الدّين مقدما فى القضاء من رأس المال لأن أرباب الدّين أقوياء ، بخلاف الموصى لهم ، فقدمهم اعتناء بهم.

الإشارة : الروح كالأب ، والبشرية كالأم ، وعقد الصحبة مع الشيخ كالولد ، فإن كان الإنسان له صحبة مع شيخ التربية ، يعنى له ورد منه ، فالبشرية والروحانية سواء ، إذ كلاهما يتهذبان ويتنوران بالأدب والمعرفة الأدب للبشرية ، والمعرفة للروحانية ، إذا استمد بالطاعة الظاهر استمد الباطن ، وبالعكس ، وإن لم يكن عقد الصحبة موجودا كان ميراث البشرية من الحس أقوى كميراث الأم مع فقد الولد ، أو تقول : الإنسان مركب من حس ومعنى ، فالحس كالأم ، والمعنى كالأب ، لأن المعاني قائمة بالحس ، والروح تستمد منهما معا ، فهى كالولد بينهما ، فإن كانت الروح حية بوجود المعرفة ، استمدت منهما معا ، وإن كانت ميتة ، كان استمدادها من الحس أكثر ، كموت الولد فى ميراث الأم.

أو تقول : الإنسان بين قدرة وحكمة ، القدرة كالأب ، والحكمة كالأم ، والقلب بينهما كالولد ، فإن وجد القلب استمدت الروح من القدرة والحكمة ، واستوى نظرها فيهما. وإن فقد القلب غلب على الروح ميراث الحكمة ، كفقد